

# بَدَائِعُ التَّفْسِيرِ

الْمَجْمُوعَةُ لِتَأْثِيرِ الْإِمَامِ

ابْنِ تَيْمٍ الْجُوزِيِّ

رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

مُجَمَّعَةٌ وَضَرَعَ أَهْلُهَا

يَسْرِي السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ

رَاحِمُهُ وَسَمِعَ مَادَتَهُ وَرَتَّبَهَا

صَالِحُ أَحْمَدُ الشَّامِيُّ

طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ مُنْقَحَةٌ

الْمَجْلَدُ الثَّانِي

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٢٢  
مري ب

بِزَائِعِ التَّفْسِيرِ  
العام

جميع الحقوق محفوظة دار ابن الجوزي

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٢٧ هـ

طبعة جديدة منقحة

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٢٧ هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية، الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -

الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - ت: ٤٢٦٦٣٣٩ - الإحصاء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ -

جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - الغير - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - بيروت - هاتف: ٨٦٩٦٠٠ / ٠٣ -

فاكس: ٠١ / ٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٣٤٤٩٧٠ -

البريد الإلكتروني: [aljawzi@hotmail.com](mailto:aljawzi@hotmail.com) - [www.aljawzi.com](http://www.aljawzi.com)

## سُورَةُ التَّوْبَةِ

قوله تعالى: ﴿فَتَلَوُهمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

فأمرهم بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ست فوائد. فالغيط يؤلم القلب ودواؤه في شفاء غيظه فإن شفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضاً أخر أصعب من مرض العشق<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦].

أي: وليجة<sup>(٢)</sup> ممن اتخذ رجلاً بعينه، عياراً على كلام الله ورسوله وكلام سائر علماء الأمة، يزن القرآن والسنة وكلام سائر العلماء على قوله، فما خالفه رده، وما وافقه قبله<sup>(٣)</sup>.

ولا وليجة أعظم ممن جعل رجلاً بعينه مختاراً على كلام رسوله وكلام سائر الأمة يقدمه على ذلك كله، ويعرض كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على قوله، فما وافقه منها قبله لموافقته لقوله، وما خالفه منها تطف في رده وتطلب له وجوه الحيل، فإن لم تكن هذه وليجة فلا ندري ما الوليجة<sup>(٤)</sup>؟.

\* \* \*

(١) إغاثة اللهفان (١/١٩).

(٢) «وليجة» من الولايج: بطانة. أساس البلاغة، ص (٥٠٨)، وقال الأصفهاني في المفردات: «... كل ما يتخذ الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله...»، ص (٥٣٢).

(٣) الصواعق المرسله (٤/١٥٢٥). (٤) إعلام الموقعين (٢/١٧٩).

قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ١٩-٢٠].  
 فأخبر ﷺ أنه لا يستوي عنده عُمَارُ المسجد الحرام - وهم عُمَارُهُ بالاعتكاف والطواف والصلاة، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن - وأهل سقاية الحاج، لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله، وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون، وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات، فنفى التسوية بين المجاهدين وعُمَارِ المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عُمَارِهِ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].  
 فهؤلاء هم عُمَارُ المساجد، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].  
 وأما تقديمهم [أي: الآباء والأبناء] على الأموال فلحكمة باهرة، وهي أن براءة متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها أحب إليه من الجهاد في سبيل الله، ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وآبائه وإخوانه وعشيرته تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعه مفارقتهم ماله، فإن تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر، ولا يكاد عند هذا التصور يخطر له مفارقة ماله، بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال.

وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته، فبدأ أولاً بذكر أصول العبد، وهم آباؤه المتقدمون طبعاً وشرفاً ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم وحتى عن آبائهم، ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومنازلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية، ولا يشهدون على آبائهم بالكفر

والنقيصة، ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم. ثم ذكر الفروع وهم الأبناء؛ لأنهم يتلونهم في الرتبة وهم أقرب أقاربهم إليهم، وأعلق بقلوبهم، وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة، ثم ذكر الإخوان وهم الكلالة وحواشي النسب.

فذكر الأصول أولاً، ثم الفروع ثانياً، ثم النظراء ثالثاً، ثم الأزواج رابعاً، لأن الزوجة أجنبية عنده ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها، وهي إنما تراد للشهوة، وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم، ويرادون للنصرة والدفاع، وذلك مقدم على مجرد الشهوة.

ثم ذكر القرابة البعيدة خامساً، وهي العشيرة وبنو العم، فإن عشائهم كانوا بني عمتهم غالباً، وإن كانوا أجنباً فأولى بالتأخير.

ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب سادساً، ووصفها بكونها مقترفة، أي: مكتسبة؛ لأن القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل، وله أحب، ويقدره أعرف؛ لما حصل له فيه من التعب والمشقة، بخلاف مال جاء عفواً بلا كسب من ميراث أو هبة أو وصية، فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه على بقاءه أعظم من الثاني، والحس شاهد بهذا وحسبك به.

ثم ذكر التجارة سابعاً، لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التي يحصله بها، فالتجارة عنده وسيلة إلى المال المقترف، فقدم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشى كسادها، وهذا يدل على شرفها وخطرها، وأنه قد بلغ قدرها إلا أنها مخوفة الكساد.

ثم ذكر الأوطان ثامناً، آخر المراتب لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ما تقدم، فإن الأوطان تتشابه، وقد يقوم الوطن الثاني مقام الأول من كل وجه، ويكون خيراً منه فممنها عوض. وأما الآباء والأبناء والأقارب والعشائر فلا يتعوض منها بغيرها، فالقلب وإن كان يحن إلى وطنه الأول فحنينه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم، فمحبة الوطن آخر المراتب.

وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إثارة البعيد على القريب، فذلك جزئي لا كلي فلا تناقض به، وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) بدائع الفوائد (١/٧٥، ٧٦).

قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

فالجزية هي: الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالاً وصغاراً. والمعنى: حتى يعطوا الخراج عن رقابهم.

واختلف في اشتقاقها، فقال القاضي في «الأحكام السلطانية»<sup>(١)</sup>: اسمها مشتق من الجزاء، إما جزاء على كفرهم لأخذها منهم صغاراً، أو جزاء على أماننا لهم لأخذها منهم رفقا.

قال صاحب «المغني»: هي مشتقة من جزاء، بمعنى قضاه، لقوله: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ [البقرة: ٤٨]، فتكون الجزية مثل الفدية. قال شيخنا<sup>(٢)</sup>: والأول أصح وهذا يرجع إلى أنها عقوبة أو أجرة.

وأما قوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ فهو في موضع النصب على الحال، أي: يعطوها أذلاء مقهورين: هذا هو الصحيح في الآية<sup>(٣)</sup>.

وقالت طائفة: المعنى: من يد إلى يد نقداً غير نسيئة.

وقالت فرقة: من يده إلى يد الآخذ لا باعاً بها ولا موكلاً في دفعها.

وقالت طائفة: معناه: عن إنعام منكم عليهم بإقراركم لهم، وبالقبول منهم.

والصحيح القول الأول، وعليه الناس، وأبعد كل البعد ولم يصب مراد الله من قال: المعنى: عن يد منهم، أي: على قدرة على أدائها، فلا تؤخذ من عاجز عنها.

وهذا الحكم صحيح، وحمل الآية عليه باطل، ولم يفسر به أحد من الصحابة ولا التابعين ولا سلف الأمة، وإنما هو من حذاقة بعض المتأخرين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ حال أخرى.

فالأول: حال المسلمين في أخذ الجزية منهم أن يأخذوها بقهر وعن يد.

والثاني: حال الدافع لها أن يدفعها وهو صاغر ذليل.

واختلف الناس في تفسير «الصغار»<sup>(٤)</sup> الذي يكونون عليه وقت أداء الجزية، فقال عكرمة: أن يدفعها وهو قائم، ويكون الآخذ جالساً. وقالت طائفة: أن يأتي

(١) «الأحكام السلطانية» للقاضي أبي يعلى، ص (١٥٣).

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى. (٣) راجع: تفسير الطبري (١٠/١٠٩).

(٤) الطبري (١٠/١٠٩).

بها بنفسه ماشياً لا راكباً، ويطال وقوفه عند إتيانه بها، ويجر إلى الموضع الذي تؤخذ منه بالعنف، ثم تجر يده ويمتهن. وهذا كله مما لا دليل عليه، ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله ﷺ، ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك.

والصواب في الآية: أن الصغار هو التزامهم لجريان أحكام الملة عليهم، وإعطاء الجزية. فإن التزام ذلك هو الصغار، وقد قال الإمام أحمد في رواية حنبل: كانوا يجرون في أيديهم، ويختمون في أعناقهم إذا لم يؤدوا الصغار الذي قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾، وهذا يدل على أن الذمي إذا بذل ما عليه، والتزم الصغار؛ لم يحتج إلى أن يجرب يده ويضرب.

وقد قال في رواية مهنا بن يحيى: يستحب أن يتعربوا في الجزية. قال القاضي: ولم يرد تعذيبهم ولا تكليفهم فوق طاقتهم، وإنما أراد الاستخفاف بهم وإذلالهم.

قلت: لما كانت يد المعطي العليا، ويد الآخذ السفلى، احترز الأئمة أن يكون الأمر كذلك في الجزية، وأخذوها على وجه، تكون يد المعطي السفلى ويد الآخذ العليا. قال القاضي أبو يعلى: وفي هذا دلالة على أن هؤلاء النصارى الذين يتولون أعمال السلطان، ويظهر منهم الظلم والاستعلاء على المسلمين، وأخذ الضرائب لا ذمة لهم وأن دماءهم مباحة؛ لأن الله تعالى وصفهم بإعطاء الجزية على وجه الصغار والذل. وهذا الذي استنبطه القاضي من أصح الاستنباط؛ فإن الله ﷻ مد القتال إلى غاية: وهي إعطاء الجزية مع الصغار، فإذا كانت حالة النصراني وغيره من أهل الجزية منافية للذل والصغار، فلا عصمة لدمه ولا ماله وليست له ذمة، ومن هنا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ<sup>(١)</sup> تلك الشروط التي فيها صغارهم، وإذلالهم وأنهم متى خرجوا عن شيء منها فلا عهد لهم ولا ذمة، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل الشقاق والمعاندة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧].

(١) انظر: شرح كتاب «عمر بن الخطاب» ﷺ في أحكام أهل الذمة (٢/٦٥٧)، وتفسير ابن كثير (٢/٣٧٢).

(٢) أحكام أهل الذمة (٢٢ - ٢٥).

ومعنى النسيء: تأخير رجب إلى شعبان، والمحرم إلى صفر، وأصله مأخوذ من نسأت الشيء إذا أخرته. ومنه النسيئة في البيع.

وكان من جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم هذه الأشهر الحرم، فكانوا يتخرجون فيها عن القتال، وعن سفك الدماء، ويأمن بعضهم بعضاً، إلى أن تنصرم هذه الأشهر، ويخرجوا إلى الحل، فكان أكثرهم يتمسكون بذلك، ولا يستحلون القتال فيها، وكان قبائل منهم يستبيحونها، فإذا قاتلوا في شهر حرام حرموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحل، ويقولون: نسانا الشهر.

واستمر ذلك بهم حتى اختلط ذلك عليهم، وخرج حسابه من أيديهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر، ويحجون في قابل في شهر غيره، إلى أن كان العام الذي حج فيه رسول الله ﷺ، فصادف حجهم شهر الحج المشروع، وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة يوم التاسع منه، ثم خطبهم فأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى الأصل الذي وضعه الله<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. فمن أصح الإشارات إشارة هذه الآية، وهي أن من صحب الرسول ﷺ وما جاء به بقلبه وعمله وإن لم يصحبه ببدنه فإن الله معه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (٤٥) ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرَهُ اللَّهُ أَنْ تُعَانَتْهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦) ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٥ - ٤٧].

والتشبيط رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله. قال ابن عباس<sup>(٣)</sup>: يريد خذلهم وكسلهم عن الخروج. وقال في رواية أخرى: حبسهم.

(٢) الكلام على مسألة السماع (٣٩٧).

(١) تهذيب السنن (٤٠٧/٢).

(٣) راجع: تفسير الطبري (١٤٤/١٠).

قال مقاتل: وأوحى إلى قلوبهم: اقعدوا مع القاعدين. وقد بين سبحانه حكمته في هذا التثبيط والخذلان قبل وبعد.

ولما تركوا الإيمان به وبلقائه، وارتابوا بما لا ريب فيه، ولم يريدوا الخروج في طاعة الله، ولم يستعدوا له، ولا أخذوا أهبة ذلك؛ كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه. فإن من لم يرفع به وبرسوله أو كتابه رأساً، ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه، ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها، بل بدلها كفرًا، فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله سبحانه فَثَبَّطَهُ لثَلَا يَقَعَ مَا يَكْرَهُ مِنْ خُرُوجِهِ، وأوحى إلى قلبه قدرًا وكونًا أن يقعد مع القاعدين.

ثم أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء، عنهم فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾.

والخبال: الفساد والاضطراب، فلو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرهم، فأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف. قال ابن عباس: ما زادوكم إلا خبالًا: عجزًا وجبنًا. يعني: يجبنونهم عن لقاء العدو بتهويل أمرهم، وتعظيمهم في صدورهم.

ثم قال: ﴿لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾، أي: أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد. قال ابن عباس: يريد أضعفوا شجاعتكم، يعني: بالتفريق بينهم، لتفرق الكلمة؛ فيجبنوا عن لقاء العدو. وقال الحسن: لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات البين. وقال الكلبي: ساروا بينكم يبعثونكم العيب. قال لبيد:

أرانا موضعين لحتم عيب      وسحر بالطعام وبالشراب  
أي: مسرعين.

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

يتألهن بالعرفان لما عرفنني      وقلن امرؤ باغ أكَلٌ وأوضعا  
أي: أسرع حتى كلت مطبته.

قوله: ﴿يَبْغُونَكُمْ أَلْفَنَةً وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾، قال قتادة: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم. وقال ابن إسحاق: وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم. ومعناه على هذا القول: وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو صحبهم هؤلاء المنافقون؛ أفسدوهم عليكم.

قلت: تتضمن «سماعون» معنى مستحيين.

وقال مجاهد وابن زيد والكلبي: المعنى: وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما

يسمعون منكم، أي: جواسيس. والقول هو الأول، كما قال تعالى: ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: قابلون له.

ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين، فإن المنافقين كانوا مختلطين بالمؤمنين، ينزلون معهم ويرحلون ويصلّون معهم، ويجالسونهم، ولم يكونوا متحيزين عنهم، قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم. فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفة ولم يخالطها، وأرصد بينهم عيوناً له. فالقول قول قتادة وابن إسحاق، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

□ □ □

قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾، أي: قابلون مستجيبون لهم، فإذا كان جيل القرآن كان بينهم منافقون، وفيهم سماعون لهم، فما الظن بمن بعدهم، فلا يزال المنافقون في الأرض، ولا يزال في المؤمنين سماعون لهم؛ لجهلهم بحقيقة أمرهم وعدم معرفتهم بغور كلامهم<sup>(٢)</sup>.

فإن قيل: انبعاثهم إلى طاعته طاعتهم له فكيف يكرهها؟ وإذا كان سبحانه يكرهها فهو يحب ضدها لا محالة، إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر فيكون قعودهم محبوباً له، فكيف يعاقبهم عليه؟

قيل: هذا سؤال له شأن، وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب.

فالجواب الصحيح: أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره واتباعاً لرسوله ﷺ، ونصرة له وللمؤمنين، وأحب ذلك منهم ورضيه لهم ديناً، وعلم سبحانه أن خروجهم - لو خرجوا - لم يقع على هذا الوجه، بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين. فكان خروجاً يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه، ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه، فكان مكروهاً له من هذا الوجه، ومحبوباً له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه، وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه له، فكرهه وعاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه، لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه.

وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة، حتى لو فعلوه لم يشبههم عليه، ولم يرضه منهم، وهذا الخروج المكروه له ضدان:

(٢) الصواعق المرسلّة (٤/ ١٤٠٤، ١٤٠٥).

(١) شفاء العليل (١٠١ - ١٠٣).

أحدهما: الخروج المرضي المحبوب، وهذا الضد الذي يحبه.

والثاني: التخلف عن رسوله والقعود عن الغزو معه. وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضاً، وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا يتنافى كراهته لهذا الضد.

فنقول للسائل: قعودهم مبغوض له، ولكن هاهنا أمران مكروهان له سبحانه، أحدهما أكره له من الآخر؛ لأنه أعظم مفسدة، فإن قعودهم مكروه له، وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه، ولم يكن لهم بد من أحد المكروهين إليه سبحانه، فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى؛ فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه، فإن مفسدة قعودهم تختص بهم، ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين. فتأمل هذا الموضع.

فإن قلت: فهلا وفقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه، وهو الذي خرج عليه المؤمنون؟

قلت: قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مراراً، وأن حكمته سبحانه تأبى أن يضع التوفيق في غير محله، وعند غير أهله، فالله أعلم حيث يجعل هداة وتوفيقه وفضله، وليس كل محل يصلح لذلك. ووضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته، فإن قلت: وعلى ذلك فهلا جعل المحال كلها صالحة؟

قلت: يآباه كمال ربوبيته وملكه وظهور آثار أسمائه وصفاته في الخلق والأمر، وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان محبوباً له، فإنه يحب أن يذكر ويشكر ويطاع ويوحد ويعبد، ولكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان، وهو محبته لجهاد أعدائه والانتقام منهم، وإظهار قدر أوليائه وشرفهم وتخصيصهم بفضله وبذل نفوسهم له في معاداة من عاداه، وظهور عزته وقدرته وسطوته وشدة أخذه وأليم عقابه، وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق - ولو تناهوا في العلم والمعرفة - إلى الإحاطة بها، ونسبة ما عقلوه منها إلى ما خفي عليهم كنقرة عصفور في بحر<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَثْذَنَ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

نزلت في الجد بن قيس<sup>(١)</sup> لما غزا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تبوك قال له: «هل لك يا جد في بلاد بني الأصفر تتخذ منهم السراري والوصفاء؟». فقال جد: ائذن لي في القعود عنك، فقد عرف قومي أنني مغرم بالنساء وأني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال ابن زيد: يريد: لا تفتني بصباحة وجوههن. وقال أبو العالية: لا تعرضني للفتنة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾. قال قتادة: «ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، والرغبة بنفسه عنه أعظم». فالفتنة التي فر منها - بزعمه - هي فتنة محبة النساء، وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا، والعذاب في الآخرة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ يَأْذِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]. [هذا] مما يدل على أن توبة الزنديق بعد القدرة لا تعصم دمه.

قال السلف في هذه الآية<sup>(٣)</sup>: أو بأيدينا، بالقتل إن أظهرتم ما في قلوبكم. وهو كما قالوا: لأن العذاب على ما يبطنونه من الكفر بأيدي المؤمنين لا يكون إلا بالقتل، فلو قبلت توبتهم بعد ما ظهرت زندقتههم؛ لم يمكن المؤمنون أن يتربصوا بالزنادقة أن يصيبهم الله بأيديهم؛ لأنهم كلما أرادوا أن يعذبوهم على ذلك أظهروا الإسلام، فلم يصابوا بأيديهم قط. والأدلة على ذلك كثيرة جداً، وبالله التوفيق<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) كان ذلك في غزوة «تبوك» في رجب سنة تسع. انظر: سيرة ابن هشام (١٥٥/٤)، وتفسير الطبري (١٤٨/١٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢١٢/٥)، وتفسير ابن كثير (٣٨٧/٢)، وانظر: مجمل أحاديثها في الدر المنثور (٢١٣/٤).  
أقول: الذي عند ابن كثير قوله ﷺ: «هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟»، ولم يزد على ذلك [الشامي].

(٢) إغاثة اللهفان (١٥٨/٢)، (١٥٩). (٣) انظر: تفسير الطبري (١٥٠/١٠).

(٤) إعلام الموقعين (١٧٥/٣)، (١٧٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَزَحَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

ولم يصب من قال: إن الآية على التقديم والتأخير، كالجرجاني حيث قال: ينتظم قوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بعد فصل آخر ليس بموضعه على تأويل «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة». وهذا القول يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما<sup>(١)</sup>، وهو منقطع، واختاره قتادة وجماعة، وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك فروا إلى التقديم والتأخير.

وأما الذين رأوا أن الآية على وجهها ونظمها، فاختلّفوا في هذا التعذيب: قال الحسن البصري: يعذبهم بأخذ الزكاة منها، والإنفاق في الجهاد. واختاره ابن جرير<sup>(٢)</sup> وأوضحه، فقال: العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان يؤخذ منه ذلك وهو غير طيب النفس، ولا راجع من الله جزاء، ولا من الآخذ منه حمداً ولا شكراً، بل على صغار منه وكره.

وهذا أيضاً عدول عن المراد بتعذيبهم في الدنيا بها، وذهاب عن مقصود الآية. وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسبي أولادهم فإن هذا حكم الكافر، وهم في الباطن كذلك.

وهذا أيضاً من جنس ما قبله؛ فإن الله سبحانه أقر المنافقين، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر، وتولى سرائرهم، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه: من غنيمة أموالهم، وسبي أولادهم، فإن الإرادة هاهنا كونية بمعنى: المشيئة، وما شاء الله كان ولا بد، وما لم يشأ لم يكن.

والصواب، والله أعلم، أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهد على تحصيلها. والعذاب هنا هو الألم والمشقة والنصب، كقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «السفر قطعة من العذاب»<sup>(٣)</sup>، وقوله: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»<sup>(٤)</sup>، أي: يتألم ويتوجع لا أنه يعاقب بأعمالهم.

(١) راجع: تفسير الطبري (١٥٣/١٠). (٢) المصدر نفسه.

(٣) رواه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧). (٤) رواه البخاري (١٢٨٦) ومسلم (٩٢٧).

وهكذا من الدنيا كل همه أو أكبر همه، كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي<sup>(١)</sup> وغيره من حديث أنس رضي الله عنه: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأتها من الدنيا إلا ما قدر له»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبَقَ لَكُم نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦١ - ٦٣].

ذكر سبحانه هذه الآية عقب قوله: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾، فجعلهم مؤذنين له بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾. ثم قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، فجعلهم بهذا محادين، ومعلوم قطعاً أن من أظهر مسبة الله ورسوله، والطعن في دينه أعظم محادة له ولرسوله<sup>(٣)</sup>، وإذا ثبت أنه محاد فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَلِينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

والأذل أبلغ من الذليل، ولا يكون أذل حتى يخاف على نفسه وماله، لأن من كان دمه وماله معصوماً لا يستباح فليس بأذل، يدل عليه قوله تعالى: ﴿صُرِّتَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا يَحْبِلُ مَنَ اللَّهِ وَحَبِلَ مَنَ الْفَاسِقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٢]، فبيّن سبحانه أنهم أينما تقفوا فعليهم الذلة إلا مع العهد، فعلم أن من له عهد وجبل يأمن به على نفسه وماله لا ذلة عليه، وإن كانت عليه المسكنة، فإن المسكنة قد تكون مع عدم الذلة، وقد جعل سبحانه المحادين في الأذلين، فلا يكون لهم عهد إذ العهد ينافي الذلة، كما دلت عليه الآية وهذا ظاهر، فإن الأذل ليس له قوة يمتنع بها ممن أراده بسوء، فإذا كان<sup>(٤)</sup> من المسلمين عهد يجب عليهم به نصره ومنعه فليس بأذل. فثبت أن المحاد لله ورسوله لا يكون له عهد يعصمه<sup>(٥)</sup>.

\* \* \*

(١) الترمذي (٢٤٦٥). وصححه الألباني. (٢) إغاثة اللهفان (١/٣٥، ٣٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠/١٦٧، ١٦٨).

(٤) قارن بما في الصارم المسلول ص (٢٢). (٥) أحكام أهل الذمة (٢/٨٢٥، ٨٢٦).

قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

وقد اختلف<sup>(١)</sup> في محل هذا الكاف [كالذين]، وما يتعلق به فقيل: هو رفع خبر مبتدأ محذوف، أي: أنتم كالذين من قبلكم.

وقيل: نصب بفعل محذوف، تقديره: فعلتم كفعل الذين من قبلكم. والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل، وقيل: إن التشبيه في العذاب. ثم قيل: العامل محذوف، أي: لعنهم وعذبهم، كما لعن الذين من قبل، وقيل: بل العامل ما تقدم، أي: وعد الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم، ولعنهم كلعنهم، ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم.

والمقصود: أنه سبحانه ألحقهم بهم في الوعيد، وسوى بينهم فيه كما تساوا في الأعمال، وكونهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فرق غير مؤثر، فعلق الحكم بالوصف الجامع المؤثر، وألغى الوصف الفارق، ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء، فقال: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾، فهذه هي العلة المؤثرة، والوصف الجامع. وقوله: ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ هو الحكم، والذين من قبل: هم: الأصل، والمخاطبون: الفرع.

قال عبد الرزاق في تفسيره: أنا معمر عن الحسن في قوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾، قال: بذنبهم. ويروى عن أبي هريرة. وقال ابن عباس: استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا. وقال آخرون: بنصيبهم من الدنيا.

وحقيقة الأمر أن الخلاق هو النصيب والحظ، كأنه الذي خلق للإنسان وقدر له، كما يقال: قسمه الذي قسم له، ونصيبه الذي نصب له، أي: أثبت، وقطعه الذي قطعه، أي: قطع.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

(١) راجع: تفسير الطبري (١٠/١٧٥).

وقول النبي ﷺ<sup>(١)</sup>: «إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة». والآية تتناول ما ذكره السلف كله: فإنه سبحانه قال: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾، فبتلك القوة التي كانت فيهم، كانوا يستطيعون أن يعملوا للدنيا والآخرة، وكذلك الأموال والأولاد، وتلك القوة والأموال والأولاد: هي الخلاق، فاستمتعوا بقوتهم وأموالهم وأولادهم في الدنيا، ونفس الأعمال التي عملوها بهذه القوة من الخلاق الذي استمتعوا به، ولو أرادوا بذلك الله والدار الآخرة لكان لهم خلاق في الآخرة، فتمتعهم بها أخذ حظوظهم العاجلة، وهذا حال من لم يعمل إلا لدنياء سواء كان عمله من جنس العبادات أو غيرها.

ثم ذكر سبحانه حال الفروع فقال: ﴿فَأَسْتَمَعْتُمْ يَخْلَقُكُمْ كَمَا أَسْتَمَعُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ يَخْلُقُهُمْ﴾، فدل هذا على أن حكمكم حكمهم، وأنه ينالكم ما نالهم؛ لأن حكم النظير حكم نظيره، ثم قال: ﴿وَحُضِّنُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ ف قيل: «الذي» صفة لمصدر محذوف، أي: كالخوض الذي خاضوا. وقيل: لموصوف محذوف، أي: تخوض الذي خاضوا، وهو فاعل الخوض. وقيل: الذي مصدرية كما، أي: كخوضهم. وقيل: هي موضع الذين.

والمقصود: أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق، وبين الخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به؛ وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب؛ وهو الاستمتاع بالخلاق.

فالأول: البدع.

والثاني: اتباع الهوى.

وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كذبت الرسل وعصي الرب، ودخلت النار وحلت العقوبات.

فالأول: من جهة الشبهات.

والثاني: من جهة الشهوات. ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبه دنياه. وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون. فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

وفي صفة الإمام أحمد رحمته الله<sup>(١)</sup>: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أته البدع فنفاها، والدنيا فأباها. وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فبالصبر تترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وفي بعض المراسيل: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات». فقوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِظْمْ بِخَلْقِكُمْ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات، وهو داء العصاة، وقوله: ﴿وَحُضِّنْمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ إشارة إلى الشبهات، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيراً ما يجتمعان، فقل من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله.

والمقصود: أن الله أخبر أن في هذه الأمة من يستمتع بخلاقه، كما استمتع الذين من قبله بخلافهم، ويخوض كخوضهم، وأنهم لهم من الذم والوعيد كما للذين من قبلهم، ثم حضهم على القياس، والاعتبار بمن قبلهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

فتأمل صحة هذا القياس وإفادته لمن علق عليه من الحكم، وأن الأصل والفرع قد تساويا في المعنى الذي علق به العقاب، وأكده كما تقدم بضرب من الأولى، وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد، فإذا لم يتعذر على الله عقاب الأقوى منهم بذنبه، فكيف يتعذر عليه عقاب من هو دونه<sup>(٢)؟</sup>!

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

تأمل كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكرأ مخبراً عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به،

(١) قائل ذلك: «أبو عمير بن النحاس الرملي»، كما في سير أعلام النبلاء (١١/١٩٨)، وإنني - والله - لأتقرب إلى الله بحب الإمام أحمد رحمته الله.

(٢) إعلام الموقعين (١/١٨٢ - ١٨٥).

فأيسر شيء من رضوانه أكبر من الجنات، وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته، ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم<sup>(١)</sup> أي شيء يريدون، «فيقولون: ربنا أي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا؟ فيقول تبارك وتعالى: إن لكم عندي أفضل من ذلك، أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

فجهد المنافقين أصعب من جهد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلين عدداً، فهم الأعظمون عند الله قدراً<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

فهو نذر مؤكد بيمين وإن لم يقل فيه: «فعلي»، إذ ليس ذلك من شرط النذر، بل إذا قال: إن سلمني الله تصدقت، أو لاتصدقن، فهو وعد وعده الله فعلية أن يفي به، وإلا دخل في قوله: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

فوعد العبد ربه نذر، يجب عليه أن يفي له به، فإنه جعله جزاء وشكراً له على نعمته عليه، فجرى مجرى عقود المعاوضات، لا عقود التبرعات، وهو أولى باللزوم من أن يقول ابتداء: «الله علي كذا»، فإن هذا التزام منه لنفسه أن يفعل ذلك، والأول تعليق بشرط وقد وجد، فيجب فعل المشروط عنده، لالتزامه له بوعده.

فإن الله سبحانه ذم من خالف ما التزمه له بالوعد، وعاقبه بالنفاق في قلبه، ومدح من وفى له بما نذره له<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩). (٢) بدائع الفوائد (١٦٦/٢، ١٦٧).

(٣) زاد المعاد (٥/٣).

(٤) إعلام الموقعين (١١٢/٢).

قوله تعالى: ﴿وَالسَّيْقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضا الله عنهم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة. ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط، وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفياً لتمييزوا به عن بعدهم، فقيل: التابعون مطلقاً لذلك القرن فقط. وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين بإحسان، وهو ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه. وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة، فتحصل بمجرد النية والاتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان. وأن الباء هاهنا للمصاحبة، والإحسان والمتابعة شرط في حصول رضا الله عنهم وجناته<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. أصل هذه اللفظة [الصلاة] في اللغة يرجع إلى معنيين<sup>(٢)</sup>: أحدهما: الدعاء والتبريك.

والثاني: العبادة.

فمن القول الأول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]. وقول النبي ﷺ<sup>(٣)</sup>: «إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب، فإن كان صائماً فليصل»، فُسِّرَ بهما. قيل: فليدع لهم بالبركة. وقيل: يصلي عندهم بدل أكله.

وقيل: إن الصلاة في اللغة معناها: الدعاء.

فعلى هذا تكون الصلاة باقية على مسمائها في اللغة، وهو الدعاء. والدعاء: دعاء

(١) الرسالة التبوكية (٦٢).

(٢) راجع ما كتبه الإمام النووي رحمه الله تعالى في معنى الصلاة، واشتقاقها في كتابه: «المجموع» (٢/٣).

(٣) رواه مسلم (١٤٣١، ١٤٣٢).

عبادة ودعاء مسألة. والمصلي من حين تكبيره إلى سلامه بين دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهو في صلاة حقيقة لا مجازاً، ولا منقولة، ولكن خص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ التي يخصها أهل اللغة والعرف ببعض مسمائها كالدابة والرأس ونحوها. فهذا غاية تخصيص اللفظ، وقصره على بعض موضوعه، ولهذا لا يوجب نقلاً، ولا خروجاً عن موضوعه الأصلي، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِن اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَن أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَذَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه، وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه.

فالأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد. فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرتفع في البناء عن غير أساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط.

فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية، حملت البدن، ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة، ضعف حملها للبدن، وكانت الآفات إليه أسرع شيء.

فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه، كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس، وهذا الأساس أمران:

الأول: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد لله ولرسوله دون ما سواه.

فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء، فأحكم الأساس واحفظ القوة ودم على الحمية. . وقد بلغت المراد.

فإذا كمل البناء فيبضه بحسن الخلق، والإحسان إلى الناس، ثم حظه بسور من الحذر لا يقتحمه عدو، ولا تبدو منه العورة، ثم أرخ الستور على أبوابه ثم أقفل

الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم رُكِبَ له مفتاحاً من ذكر الله، به  
تفتحه وتغلقه، فإن فتحت فتحت بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقته به.  
فتكون حينئذٍ قد بنيت حصناً تحصّنت فيه من أعدائك. (١).

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ  
يُقِيمُونَ فِي سَكِينٍ مِّنَ اللَّهِ فَيَمْشُونَ وَيُقِيمُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ  
وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعَكُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ  
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝﴾ [التوبة: ١١١، ١١٢].

فجعل سبحانه ها هنا الجنة ثمناً لنفوس المؤمنين وأموالهم، بحيث إذا بذلوا فيها  
استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد، وأكدته بأنواع من التأكيد:  
أحدها: إخباره ﷺ بصيغة الخبر المؤكد بأداة «إن».

الثاني: الإخبار بذلك بصيغة الماضي، الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه، وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعداً لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة «على» التي للوجوب؛ إعلاماً لعباده بأن ذلك حق  
عليه، أحقه هو على نفسه.

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقاً عليه.

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه أفضل كتبه المنزل من السماء،  
وهي التوراة والإنجيل والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار، وأنه لا أحد أوفى بعهده منه  
سبحانه.

التاسع: أنه ﷺ أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد، ويبشروا به بعضهم بعضاً بشارة  
من قد تم له العقد ولزم، بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه.

العاشر: أنه أخبرهم إخباراً مؤكداً، بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز  
العظيم، والبيع هاهنا بمعنى: المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة، وقوله:  
﴿بَايَعْتُمْ بِهِ﴾، أي: عاوضتم وثامتم به.

ثم ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذي وقع العقد، وتم لهم دون غيرهم، وهم التائبون مما يكره، العابدون له بما يحب، الحامدون له على ما يحبون وما يكرهون، السائحون، وفُسِّرَت السياحة بالصيام، وفُسِّرَت بالسفر في طلب العلم، وفُسِّرَت بالجهاد، وفُسِّرَت بدوام الطاعة.

والتحقيق<sup>(١)</sup> فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال؛ ولذلك وصف الله سبحانه<sup>(٢)</sup> نساء النبي ﷺ اللاتي لو طلق أزواجه بدَّله بهن بأنهن سائحات، وليست سياحتهن جهاداً ولا سفراً في طلب علم، ولا إدامة صيام، وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى، وخشيته والإنابة إليه وذكره.

وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين: هذه ترك ما يكره، وهذه فعل ما يحب. والحمد والسياحة قرينتين: هذا الثناء عليه بأوصاف كماله، وسياحة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله. كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينتين في صفة الأزواج: فهذه عبادة البدن، وهذه عبادة القلب<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ بُيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بيّن لهم، فلم يقبلوا ما بيّنه لهم، ولم يعملوا به. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

هذا من أعظم ما يُعرّف العبد قدر التوبة وفضلها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن، فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات<sup>(٥)</sup>، بعد أن قضوا

(١) راجع: تفسير الطبري (٣٦/١١).

(٢) يقصد قوله تعالى من سورة التحريم: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ...﴾ الآية ٥.

(٣) حادي الأرواح (٧٥، ٧٦). (٤) مدارج السالكين (٤٢/١).

(٥) أي: غزوة تبوك كما سبق.

نحبهم، وبذلوا نفوسهم وأموالهم وديارهم لله، وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي ﷺ<sup>(١)</sup> يوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا من عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبوديته، وعرف نفسه وصفاتها وأفعالها، وأن الذي قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه كقطرة في بحر، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة. فسبحان من لا يسع عباده غير عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا ذلك أو الهلاك، فإن وضع عليهم عدله، فعذب أهل سماواته وأرضه عذبهم، وهو غير ظالم لهم، وإن رحمهم فرحمته خير لهم من أعمالهم، ولا ينجي أحداً منهم عمله.

وتأمل تكريره سبحانه توبته عليهم مرتين في أول الآية وآخرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لفعالها، وتفضل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه وله وفي يديه، يعطيه من يشاء إحساناً وفضلاً، ويحرمه من يشاء حكمةً وعدلاً.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ [التوبة: ١١٨].

قد فسرّها كعب بالصواب، وهو أنهم خلفوا من بين من حلف لرسول الله ﷺ، واعتذر من المتخلفين، فخلف هؤلاء الثلاثة عنهم، وأرجأ أمرهم دونهم، وليس ذلك تخلفهم عن الغزو؛ لأنه لو أراد ذلك، لقال: تخلّفوا، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وذلك لأنهم تخلّفوا بأنفسهم بخلاف تخليفهم عن أمر المتخلفين سواهم، فإن الله سبحانه هو الذي خلفهم عنهم، ولم يتخلّفوا عنه بأنفسهم، والله أعلم<sup>(٢)</sup>.

فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم. فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم؛ والحكم ينتفي لانتهاء علته<sup>(٣)</sup>.

(١) قال ﷺ لكعب عند نزول توبته: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك». رواه الإمام أحمد رحمته الله (٤٥٦/٣)، والبخاري (٧١٧/٦) في المغازي، باب: حديث كعب بن مالك، ومسلم (٦١٤/٥) في التوبة، باب: توبة كعب بن مالك رحمته الله.

(٢) زاد المعاد (٥٩١/٣، ٥٩٢). (٣) مدارج السالكين (٣١٣/١).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].  
قال غير واحد من السلف<sup>(١)</sup>: هم أصحاب محمد ﷺ ولا ريب أنهم أئمة  
الصادقين، وكل صادق بعدهم فبهم يأتى في صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم  
وكونه معهم، ومعلوم أن من خالفهم في شيء - وإن وافقهم في غيره - لم يكن  
معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذ فيصدق عليه أنه ليس معهم، فتنتفي عنه المعية  
المطلقة، وإن ثبت له قسط من المعية فيما وافقهم فيه، فلا يصدق عليه أنه معهم  
بهذا القسط.

وهذا كما نفى الله ورسوله الإيمان المطلق عن الزاني والشارب والسارق  
والمنتهب، بحيث لا يستحق اسم المؤمن - وإن لم ينتف عنه مطلق الاسم - الذي  
يستحق لأجله أن يقال: معه شيء من الإيمان.

وهذا كما أن اسم الفقيه والعالم عند الإطلاق لا يقال لمن معه مسألة أو  
مسألان من فقه وعلم، وإن قيل: معه شيء من العلم<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَصَةٌ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ  
لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٢٠] وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً  
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا  
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

فأخبر سبحانه في الآية الأولى: أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به  
عمل صالح.

وأخبر في الثانية: أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسهم. والفرق  
بينهما: أن الأول ليس من فعلهم، وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح،  
والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم<sup>(٣)</sup>.

فإن الظماً والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم، فلا يكتب لهم نفسه، ولكن  
لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح.

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ١٦٥، ١٦٦).

(١) تفسير الطبري (١١/ ٦٢).

(٣) الداء والدواء (٣٠٨).

وأما القسم الآخر وهو الأفعال المقدورة نفسها؛ كالإنفاق وقطع الوادي، فهو عمل صالح فيكتب لهم نفسه إذ هو مقدور لهم، حاصل بإرادتهم وقدرتهم، فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها، وبالله التوفيق<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين، وهو تعلمه وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم. وقد اختلف<sup>(٢)</sup> في الآية.

ف قيل المعنى: أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم، بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة، تتفقه تلك الطائفة، ثم ترجع تعلم القاعدين، فيكون التنفير على هذا نفير تعلم، والطائفة تقال على الواحد فما زاد. قالوا: فهو دليل على قبول خبر الواحد. وعلى هذا حملها الشافعي وجماعة.

وقالت طائفة أخرى: المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم، بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد، وفرقة تقعد تتفقه في الدين، فإذا جاءت الطائفة التي نفرت ففقهتها القاعدة، وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام.

وعلى هذا فيكون قوله: ليتفقهوا ولينذروا، للفرقة التي نفرت منها طائفة. وهذا قول الأكثرين، وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله، فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد.

قال الله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١]. وقال النبي ﷺ<sup>(٣)</sup>: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا». وهذا هو المعروف من هذه اللفظة.

(١) مفتاح دار السعادة (١٩١). (٢) راجع: تفسير الطبري (١١/٦٦).

(٣) رواه البخاري في مواضع منها: (٦/٢١٩) في الجهاد والسير، باب: «لا هجرة بعد الفتح»، ومسلم (٤/٥٢٨) في الإمارة، باب: «المبايعة بعد فتح مكة...».

وعلى القولين فهو ترغب في التفقه في الدين، وتعلمه وتعليمه، فإن ذلك يعدل الجهاد، بل ربما يكون أفضل منه<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾.

[قال القائلون: بالتقليد]: فأوجب قبول نذارتهم، وذلك تقليد لهم، جوابه من

وجوه:

أحدها: أن الله سبحانه إنما أوجب عليهم قبول ما أنذروهم به من الوحي الذي ينزل في غيبته عن النبي ﷺ في الجهاد، فأين في هذا حجة لفرقة التقليد على تقديم آراء الرجال على الوحي.

الثاني: أن الآية حجة عليهم ظاهرة، فإنه سبحانه نوح عبوديتهم وقيامهم بأمره إلى نوعين.

أحدهما: نفير الجهاد.

والثاني: التفقه في الدين، وجعل قيام الدين بهذين الفريقين، وهم الأمراء والعلماء أهل الجهاد وأهل العلم، فالنافرون يجاهدون عن القاعدين، والقاعدون يحفظون العلم للنافرين، فإذا رجعوا من نفيرهم استدرکوا ما فاتهم من العلم بإخبار من سمعه من رسول الله ﷺ.

فإن سميت ذلك تقليداً فليس الشأن في الأسماء، ونحن لا ننكر التقليد بهذا المعنى، فسموه ما شئتم، وإنما ننكر نصب رجل معين يجعل قوله عياراً على القرآن والسنن، فما وافق قوله منها قبل، وما خالفه لم يقبل، ويقبل قوله بغير حجة، ويرد قول نظيره أو أعلم منه والحجة معه، فهذا الذي أنكرناه، وكل عالم على وجه الأرض يعلن بإنكاره وذمه وأهله<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَا مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ آلِهَةٍ قُلُوبِهِمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

فأخبر سبحانه عن فعلهم: وهو الانصراف، وعن فعله فيهم: وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره؛ لأنهم ليسوا أهلاً لها، فالمحل غير صالح ولا قابل.

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(١) مفتاح دار السعادة (٦٠، ٦١).

فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد. وهؤلاء قلوبهم لا تفقه، وقصودهم سيئة، وقد صرح سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]. فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل الإيمان بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعاً تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، وهو الكبر والتولي والإعراض.

فالأول: مانع من الفهم.

والثاني: مانع من الانقياد والإذعان.

فأفهامهم سيئة، وقصودهم رديئة، وهذه سمة الضلال وعلم الشقاء. كما أن سمة الهدى وعلم السعادة فهم صحيح، وقصد صالح، والله المستعان.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾، كيف جعل هذه الجملة الثانية - سواء كانت خبراً أو إعادة - عقوبة لانصرافهم فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول.

فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لإقبالهم؛ لأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم ينلهم الإقبال والإذعان؛ فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن. فجازاهم على ذلك صرفاً آخر غير الصرف الأول، كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول، كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه، فلا يمكنه من الإقبال عليه، ولتكن قصة إبليس منك على ذكر تنتفع بها أتم انتفاع. فإنه لما عصى ربه تعالى، ولم ينقد لأمره، وأصر على ذلك؛ عاقبه بأن جعله داعياً إلى كل معصية. فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعياً إلى كل معصية وفروعها، صغيرها وكبيرها. وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق. فمن عقاب السيئة السيئة بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

فإن قيل: فكيف يلتزم إنكاره سبحانه عليهم الانصراف، والإعراض عنه، وقد قال تعالى: ﴿أَنِّي يُصْرِفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]، و﴿أَنِّي يُؤْفِكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال:

﴿فَمَا لَكُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المذثر: ٤٩]، فإذا كان هو الذي صرفهم وجعلهم معرضين ومأفوكين، فكيف يعني ذلك عليهم؟  
 قيل: هم دائرون بين عدله وحجته عليهم.

فممكنهم وفتح لهم الباب، ونهج لهم الطريق، وهياً لهم الأسباب. فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ودعاهم على السنة رسله، وجعل لهم عقولاً تميز بين الخير والشر، والنافع والضار، وأسباب الردى وأسباب الفلاح. وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً، فأثروا الهوى على التقوى، واستحبوا العمى على الهدى، وقالوا: معصيتك آثر عندنا من طاعتك، والشرك أحب إلينا من توحيدك، وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك. فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبه.

فهذا عدله فيهم، وتلك حجته عليهم.

فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً، فسده عليهم اضطراباً، فخلّاهم وما اختاروا لأنفسهم، وولاهم ما تولوه، ومكنهم فيما ارتضوه، وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه، وهم معرضون. فلا أقبح من فعلهم، ولا أحسن من فعله. ولو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة، ولأنشأهم على غير هذه النشأة، ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل، والنور والظلمة، والنافع والضار، والطيب والخبيث، والملائكة والشياطين، والشاء والذباب، ومعطيها آلاتها وصفاتها وقواها وأفعالها ومستعملها فيما خلقت له. فبعضها بطباعها، وبعضها بإرادتها ومشيتها، وكل ذلك جار على وفق حكمته، وهو موجب حمده، ومقتضى كماله المقدس، وملكه التام، ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ما خفي عليهم بوجه ما، إن هو إلا كنقرة عصفور من البحر<sup>(١)</sup>.



## سُورَةُ يُونُسَ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢٧].

قال ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول. وهذا لا يخالف قول من قال: إنه الأعمال الصالحة التي قدموها. ولا قول من قال: إنه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم. فإنه سبق لهم من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد ﷺ، فهو خير تقدم لهم من الله، ثم قدمه لهم على يد رسوله، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ﴾ [يونس: ١١].

قال السلف<sup>(٢)</sup>: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله في حال الغضب، ولو استجاب الله تعالى لأهلكه وأهلك من يدعو عليه، ولكنه لا يستجيبه؛ لعلمه بأن الداعي لم يقصده<sup>(٣)</sup>.

وقد قال جماعة من الأئمة: الإغلاق الذي منع<sup>(٤)</sup> النبي ﷺ من وقوع الطلاق والعناق فيه هو: الغضب. هذا كما قالوه، فإن للغضب سكرًا كسكر الخمر أو أشد<sup>(٥)</sup>.

(١) شفاء العليل (٢٨).

(٢) تفسير الطبري (٩٢/١١).

(٣) إعلام الموقعين (٧٠/٣).

(٤) يشير إلى الحديث الذي ورد بلفظ: «لا طلاق ولا عناق في إغلاق».

رواه الإمام أحمد ﷺ (٢٧٦/٦)، وابن ماجه (٣٤٨/١) صحيح ابن ماجه، وأبو داود (٢٦١/٦) في الطلاق، باب: في الطلاق على غلط (على غضب)، ورواه الحاكم (٢/١٩٨)، وقال: صحيح على شرط مسلم. وتعقبه الذهبي بقوله: (محمد بن عبيد لم يحتج به مسلم، وقال أبو حاتم: ضعيف). ورواه الدارقطني في سننه (٣٦/٤)، والبيهقي (٧/٣٥٧). وحسنه الشيخ الألباني كما في الإرواء (١١٣/٧)، والله أعلم.

(٥) إعلام الموقعين (١٤٢/٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

فتأمل هاتين الحجتين القاطعتين تحت هذا اللفظ الوجيز:

إحداهما: أن هذا من الله لا من قبلي ولا هو مقدور لي، ولا من جنس مقدور البشر، وأن الله ﷻ لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني، وأسماعكم وأفهامكم فلم أتمكن من تلاوته عليكم، ولم تتمكنوا من درايته وفهمه.

الحجة الثانية: أنني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به، وأنتم تشاهدوني وتعرفون حالي وتصحبوني حضراً وسفراً، وتعرفون دقيق أمري وجليله، وتحققون سيرتي: هل كانت سيرة من هو من أكذب الخلق، وأفجرهم وأظلمهم؟ فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح سيرة ممن جاهر ربه، وخالفه بالكذب والفرية عليه وطلب إفساد العالم، وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق.

هذا وأنتم تعلمون أنني لم أكن أقرأ كتاباً ولا أخطه يميني، ولا صاحبت من أتعلم منه، بل صحبتكم أنتم في أسفاركم لمن تتعلمون منه، وتسالونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها ما لم أشارككم فيه بوجه. ثم جئتم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان و[ما] سيكون على التفصيل، فأبي برهان أوضح من هذا؟ وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له<sup>(١)</sup>؟.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُحِبُّونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم، وإنما تحصل بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وسر الفرق بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق، وسؤاله للمشفوع عنده، لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده، لا خلقاً ولا أمراً ولا إذناً، بل هو سبب محرك له من خارج؛ كسائر الأسباب التي تحرك الأسباب، وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما يوافقه، كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه،

وقد يكون عنده ما يخالفه، كمن يشفع إليه في أمر يكرهه، ثم قد يكون سؤاله وشفاعته أقوى من المعارض فيقبل شفاعته الشافع، وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعته الشافع فيردها ولا يقبلها، وقد يتعارض عنده الأمران فيبقى متردداً بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد، وبين الشفاعته التي تقتضي القبول، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح.

فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله، هي سعي في سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به، ولو على كره منه، فمنزلة الشفاعته عنده منزلة من يأمر غيره أو يكرهه على الفعل، إما بقوة وسلطان، وإما بما يرغبه، فلا بد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع: إما رغبة ينتفع بها، وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته.

وهذا بخلاف الشفاعته عند الرب سبحانه؛ فإنه ما لم يخلق شفاعته الشافع، ويأذن له فيها، ويحبها منه، ويرضى عن الشافع، لم يكن أن توجد، والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه، ولا لرهبته منه، ولا لرغبته فيما لديه، وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له. فهو مأمور بالشفاعة، مطيع بامتثال الأمر، فإن أحداً من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة الله تعالى، وخلقته. فالرب ﷻ هو الذي يحرك الشافع حتى يشفع.

والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل، والشافع عند المخلوق مستغن عنه في أكثر أموره، وهو في الحقيقة شريكه ولو كان مملوكه وعبد، فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك، كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه: من رزق أو نصر أو غيره، فكل منهما محتاج إلى الآخر.

ومن وفقه الله تعالى لفهم هذا الموضع ومعرفته؛ تبين له حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين ما أثبتته الله تعالى من الشفاعته، وبين ما نفاه وأبطله، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ؟﴾.

فهذا نفي لما ادعوه من الشفعاء بنفي علم الرب تعالى بهم المستلزم لنفي

(١) إغاثة اللهفان (١/٢٢٢، ٢٢٣).

المعلوم، ولا يمكن أعداء الله المكابرة، وأن يقولوا: قد علم الله وجود ذلك، لأنه تعالى إنما يعلم وجود ما أوجده وكونه، ويعلم أنه سيوجد ما يريد إيجاده، فهو يعلم نفسه وصفاته، ويعلم مخلوقاته التي دخلت في الوجود وانقطعت، والتي دخلت في الوجود وبقيت، والتي لم توجد بعد.

وأما شيء آخر غير مخلوق له ولا مربوب، فالرب تعالى لا يعلمه؛ لأنه مستحيل في نفسه، فهو يعلمه مستحيلاً لا يعلمه واقعاً؛ إذ لو علمه واقعاً لكان العلم به عين الجهل، وذلك من أعظم المحال. فهذه حجج الرب تبارك وتعالى على بطلان ما نسبته إليه أعداؤه المفترون عليه، فوازن بينها وبين حجج المتكلمين الطويلة العريضة، التي هي كالضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، فإذا وازنت بينهما ظهرت لك المفاضلة إن كنت بصيراً، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، فالحمد لله الذي أغنى عباده المؤمنين بكتابه، وما أودعه من حججه وبياناته<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطَرَى أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَزْمِنُوا لِيَأْخُذُوا بِهَا قَدْ جَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْثُ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥].

شبه الله سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه، فيميل إليها ويهواها اغتراراً منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبها بالأرض التي ينزل الغيث عليها، فتعشب ويحسن نباتها، ويروق منظرها للناظر فيغتر بها، ويظن أنه قادر عليها مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة؛ فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه منها صفراً. فهكذا حال الدنيا والواقع بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس.

ولما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات، والجنة سليمة منها، قال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]. فسمها هنا دار السلام، لسلامتها من هذه الآفات التي

(١) بدائع الفوائد (٤/١٥٥).

ذكرها في الدنيا، فعم بالدعوة إليها وخص بالهداية لها من يشاء. فذاك عدله، وهذا فضله<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

فالحسنى: الجنة. والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم. كذلك فسرهما رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، فالصحابه من بعده، كما روى مسلم في صحيحه من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال<sup>(٢)</sup>: «قال رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٌ﴾»، قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إلى الله فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة».

ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة دل على أنها أمر آخر وراء الجنة، وقدر زائد عليها، ومن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان فهو من لوازم رؤية الرب تبارك وتعالى<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ﴾ [يونس: ٣١].

فإن قيل: فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس وبين قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]؟

قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها، وألطفها فرقاً:

فإن الآيات التي في يونس سبقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ولم يمكنهم إنكاره، من كون الرب تعالى هو رازقهم، ومالك أسماعهم وأبصارهم، ومدبر أمورهم وغيرها. ومخرج الحي من الميت، والميت من الحي.

(١) إعلام الموقعين (١/٢٠٣).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله (١٥/٦)، رواه مسلم (١٨١).

(٣) حادي الأرواح (٢٣١ - ٢٣٤).

فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم: أن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئاً من هذا، ولا يستطيعون فعل شيء منه؟ ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، أي: لا بد أنهم يقرون بذلك، ولا يجحدونه. فلا بد أن يكون المذكور مما يقرون به.

والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية، إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا. فأفردت لفظ السماء هنا، فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها، لا سيما والرزق هاهنا إن كان هو المطر فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمى سماء لعلوه. وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨]. والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو، لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس، فلا يلتفت إلى غيره.

فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم؛ لم يصلح فيه إلا أفراد السماء، لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح. ولا بد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية، وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطف والمواد الربانية، والتنزلات الإلهية، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق. ولكن القوم لم يكونوا مقرين به، فخطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم، بحيث لا يمكنهم إنكاره.

أما الآية التي في سبأ: فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها، ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]، ولم يقل: سيقولون: الله. فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يجيب: بأن ذلك هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع. وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين، إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر، وبر وفاجر<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

(١) بدائع الفوائد (١/ ١١٧، ١١٨).

فَالْآيَةُ إِنَّمَا سِيقَتْ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ، وَيُشْرِكُ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْمَلِكُ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

[فمن] عبد غير الله فما عبد إلا الضلال المحض، والباطل البحت، وأما من عبد الله بأمره وكان في مقام التمييز بين محابته ومساخطه؛ مفرقاً بينهما يحب هذا ويبغض هذا، ناظراً بقلبه إلى ربه، عاكفاً بهمته عليه، منفذاً لأوامره، فهو مع الحق المحض، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

فأخبر أن من قبل المكذبين أصل يعتبر به، والفرع نفوسهم، فإذا ساووهم في المعنى، ساووهم في العاقبة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغي، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى، والغي مرض شفاؤه الرشد؛ وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين، فقال: ﴿وَالنَّجْوَى إِذَا هُوَ ﴿١﴾ مَا مَلََّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ١، ٢].

ووصف رسوله ﷺ خلفاء بضدهما، فقال<sup>(٣)</sup>: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي».

وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاء تاماً لما في الصدور، فمن استشفى به صح وبرئ من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل:

إِذَا بَلَ مِنْ دَاءٍ بِهِ ظَنَّ أَنَّهُ نَجَا بِهِ الدَّاءُ الَّذِي هُوَ قَاتِلُهُ<sup>(٤)</sup>

(١) طريق الهجرتين (٣٢٤).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٥، ١٨٦).

(٣) حديث صحيح - نفعنا الله به -.

رواه الإمام أحمد رحمه الله (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١٥، ١٦).

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال أبو سعيد الخدري: «فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله». وقال هلال بن يساف: «بالإسلام الذي هداكم إليه، وبالقرآن الذي علمكم إياه، هو خير مما تجمعون: من الذهب والفضة».

وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة: «فضله الإسلام، ورحمته القرآن». وقالت طائفة من السلف: «فضله القرآن ورحمته الإسلام»<sup>(١)</sup>.

والتحقيق: أن كلا منهما [الإسلام والقرآن] فيه الوصفان، الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان، ووضع من وضع بعدمهما. فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفاً في القرآن كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

قيل: نعم إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفاً قط، بل سماها روحاً ونوراً، وشفاء وهدى ورحمة وحياة وعهداً ووصية ونحو ذلك<sup>(٢)</sup>.

ففضله: الإسلام والإيمان، ورحمته: العلم والقرآن، وهو يحب من عبده: أن يفرح بذلك ويسر به، بل يحب من عبده: أن يفرح بالحسنة إذا عملها، وأن يسر بها، وهو في الحقيقة فرح بفضل الله، حيث وفقه الله لها، وأعانه عليها، ويسرها له، ففي الحقيقة: إنما يفرح العبد بفضل الله وبرحمته<sup>(٣)</sup>.

و«الفرح» لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتى، فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور، كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب، فإذا فقده: تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم، وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته

(١) راجع: تفسير الطبري (١٢٤/١١). والدر المنثور (٤/٣٦٦).

وانظر: رقم (١٧٧) من تخريج الحافظ ابن حجر على الكشاف (٤/٨٤).

(٢) إغاثة اللهفان (١/٣١، ٣٢).

(٣) مدارج السالكين (٣/١٠٦)، واجتماع الجيوش (٣)، والفوائد (١٣١)، راجع: مفتاح دار السعادة (٥٦).

عقيب قوله: ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة، وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة.

فأخبر سبحانه: أن ما أتى عباده من الموعظة: التي هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب. وشفاء الصدور: المتضمن لعافيتها من داء الجهل والظلمة والغى والسفه، وهو أشد ألماً لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها، وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا، فهناك يحضرها كل مؤلم محزن. وما آتاها من ربها الهدى: الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به والرحمة: التي تجلب لها كل خير ولذة، وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها، أي: هذا هو الذي ينبغي أن يُفرح به، ومن فرح به فقد فرح بأجلّ مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها، فإنه ليس بموضع للفرح؛ لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة، وهو طيف خيال زار الصب في المنام، ثم انقضى المنام وولى الطيف، وأعقب مزاره الهجران.

□ □ □

وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مطلق، ومقيد. فالمطلق: جاء في الذم كقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

والمقيد نوعان أيضاً: مقيد بالدنيا، ينسي صاحبه فضل الله ومنته؛ فهو مذموم، كقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضاً؛ فضل ورحمة بالسبب، وفضل ورحمة بالمسبب.

فالأول: كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾. والثاني: كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فالفرح بالله ورسوله وبالإيمان والسنة، وبالعلم والقرآن: من أعلى مقامات العارفين. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ

﴿أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]. فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبته له، وإشارته له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله على قدر محبته له، ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله، ولا يحزنه فواته. فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

فالفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحسوب بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَتَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال، ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته، التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقدته لها واليأس من حصولها.

والمقصود: أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته، والفرح والسرور نعيمه، والهم والحزن عذابه.

والفرح بالشيء فوق الرضى به، فإن الرضى طمأنينة، وسكونه انشراح، والفرح لذته بهجة وسرور، فكل فرح راضٍ، وليس كل راضٍ فرحاً. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط، والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[يونس: ٦٢].

إن أولياء الرحمن، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هم الذين آمنوا وكانوا يتقون.

وهم المذكورون في أول سورة البقرة إلى قوله: ﴿هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وفي وسطها في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي أول الأنفال، إلى قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

[الأنفال: ١ - ٤].

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٥٦ - ١٥٩).

وفي أول سورة المؤمنون إلى قوله: ﴿هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].  
وفي آخر سورة الفرقان: [الفرقان: ٦٣ - ٧٧].  
وفي قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخر الآية... [الأحزاب: ٣٥].  
فأولياء الرحمن: هم المخلصون لربهم، المحكمون لرسوله في الحرم والحل،  
الذين يخالفون غيره لسنته، ولا يخالفون سنته لغيرها، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى  
بدعة، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهواً ولعباً.  
فأولياء الرحمن المتلبسون بما يحبه وليهم، الداعون إليه، المحاربون لمن خرج  
عنه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتًا وَاجْعَلُوا  
يُثُوتَكُم مِّثْلَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].  
هو من أحسن النظم وأبدعه، فإنه ثنى أولاً، إذ كان موسى وهارون هما  
الرسولان المطاعان، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء، وإذا  
تبوأ البيوت لقومهما فهم تبع لهما، ثم جمع الضمير فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ لأن  
إقامتها فرض على الجميع، ثم وحده في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن موسى هو  
الأصل في الرسالة وأخوه ردؤه ووزيره، وكما كان الأصل في الرسالة فهو الأصل  
في البشارة، وأيضاً فإن موسى وأخاه لما أرسلوا برسالة واحدة كانا رسولاً واحداً،  
كقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]. فهذا الرسول هو الذي  
قيل له: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ  
مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].  
وقد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على  
المسلمين فيها إيراداً، وقالوا: كان في شك فأمر أن يسألنا.  
وليس فيها بحمد الله إشكال، وإنما أتى أشباه الأنعام من سوء قصدهم وقلة  
فهمهم.

وإلا فالآية من أعلام نبوته ﷺ، وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلاً، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط بل ولا على إمكانه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَيَّ نَفْسَ النَّبِيِّ سِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَكَ لِيَحْبِطَنَّ عَنْكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ونظائره.

فرسول الله ﷺ لم يشك ولم يسأل<sup>(١)</sup>، وفي تفسير سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال<sup>(٢)</sup>: «لا أشك ولا أسأل».

وقد ذكر ابن جرير<sup>(٣)</sup> عن ابن عباس ؓ قال: فإن كنت في شك أنك مكتوب عندهم فاسألهم.

وهذا اختيار ابن جرير قال: يقول تعالى لنبيه: فإن كنت، يا محمد، في شك من حقيقة ما أخبرناك وأنزلنا إليك، من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن أبعثك رسولاً إلى خلقي؛ لأنهم يجدونك مكتوباً عندهم، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتبهم، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، كعبد الله بن سلام ونحوه، من أهل الصدق والإيمان بك منهم، دون أهل الكذب والكفر بك.

وكذلك قال ابن زيد: قال: هو عبد الله بن سلام. وقال الضحاك: سل أهل التقوى والإيمان من مؤمني أهل الكتاب<sup>(٤)</sup>.

ولم يقع هؤلاء ولا هؤلاء على معنى الآية ومقصودها، وأين كان عبد الله بن سلام وقت نزول هذه الآية، فإن السورة مكية<sup>(٥)</sup>، وابن سلام إذ ذاك على دين قومه؟!

(١) قال السيوطي في الدر المنثور: أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة، عن ابن عباس ؓ قال: لم يشك رسول الله ﷺ، ولم يسأل (٣٨٩/٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٢٥/٦، ١٢٦)، عن قتادة مرسلاً. وكذا ابن جرير (١٦٨/١١). وهذا ضعيف للإرسال.

(٣) تفسير الطبري (١٦٨/١١). (٤) تفسير ابن جرير الطبري (١٦٧/١١).

(٥) هذا مما اختلف فيه. فقال القرطبي: «مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر». وقال ابن عباس: إلا ثلاث آيات في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ نزلت بالمدينة. وقال الكلبي: مكية إلا قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ [يونس: ٤٠]، نزلت بالمدينة في اليهود. وقالت فرقة: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة» (٣١٤٣/٤) تفسيره. ونقل ذلك عنه الشوكاني (٤٢١/٢) فتح القدير.

وكيف يؤمر رسول الله ﷺ أن يستشهد على منكري نبوته بأتباعه<sup>(١)</sup>؟

وقال كثير من المفسرين<sup>(٢)</sup>: هذا الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره، لأن القرآن نزل عليه بلغة العرب، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره، كما يقول متمثلهم: إياك أعني واسمعي يا جارة. وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، والمراد أتباعه بهذا الخطاب.

قال أبو إسحاق<sup>(٣)</sup>: إن الله تعالى يخاطب النبي ﷺ والخطاب شامل للخلق؛ والمعنى: وإن كنتم في شك. والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَغْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤].

وقال ابن قتيبة<sup>(٤)</sup>: كان الناس في عصر النبي ﷺ أصنافاً، منهم كافر به مكذب، ومؤمن به مصدق، وآخر شاك في الأمر لا يدري كيف هو، فهو يقدم رجلاً ويؤخر رجلاً؛ فخاطب الله تعالى هذا الصنف من الناس، وقال: فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد؛ فسل. قال: ووجد وهو يريد الجمع كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكِبْرُ﴾ [الانفطار: ٦]، و﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ

= وانظر: الكشف للزمخشري (١٨٠/٢)، وكذا تفسير الخازن (١٧٢/٣)، وتفسير الألوسي (٥٨/١١)، وتفسير الجلالين للسيوطي (٢٥٢/١)، والدر المنثور (٣٣٩/٤).

وقال السيوطي في الإتقان: «فصل في تحرير السور المختلف فيها..» «سورة يونس» المشهور أنها مكية، وعن ابن عباس روايتان. فتقدم في الآثار السابقة عنها أنها مكية، وأخرجه ابن مردويه من طريق العوفي عنه، ومن طريق ابن جريج عن عطاء عنه، ومن طريق خصيف عن مجاهد عن ابن الزبير...» (١٢/١) مختصراً.

وذهب إلى أنها مكية: ابن كثير (٤٣٤/٢)، وابن قتيبة في «غريب القرآن» (١٩٤). أما إسلام «عبد الله بن سلام» ﷺ فكان إسلامه بالمدينة في أول دخول النبي ﷺ، وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين». كما في فتح الباري (١٦١/٧) في مناقبه من كتاب مناقب الأنصار.

- (١) إذا صح الدليل لا يورد عليه بكيف، وإنما يبحث في معناه ومفهومه، والله أعلم.
- (٢) راجع: تفسير القرطبي (٣٢٢١/٤)، والزمخشري (٢٠٣/٢)، وتفسير الخازن (٢١٠/٣)، والبلغوي (٢١٠/٣) بهامش الخازن، وتفسير الألوسي (١٨٩/١١).
- (٣) أبو إسحاق، الإمام، نحوي زمانه، إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي، انظر: ترجمته ومصادرها في سير أعلام النبلاء (٣٦٠/١٤).

وانظر: مبحثه النفيس حول الآية في كتابه «معاني القرآن وإعراجه» (٣٢/٣)، طبعة عالم الكتب.

- (٤) انظر قول ابن قتيبة في: «تأويل مشكل القرآن» (٨١، ٢٦٩). و«تفسير غريب القرآن» (١٩٩). فلعل ابن القيم نقله بالمعنى.

إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقِهِ ﴿[الانشقاق: ٦]﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴿[الزمر: ٨]﴾.

وهذا - وإن كان له وجه - فسياق الكلام يأباه، فتأمل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمْعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وهذا كله خطاب واحد متصل ببعضه ببعض، ولما عرف أرباب هذا القول أن الخطاب لا يتوجه إلا على النبي ﷺ، قالوا: الخطاب له والمراد به هذا الصنف الشاك. وكل هذا فرار من توهم ما ليس بموهوم: وهو وقوع الشك منه والسؤال؛ وقد بينا أنه لا يلزم إمكان ذلك فضلاً عن وقوعه.

فإن قيل: فإذا لم يكن واقعاً ولا ممكناً فما مقصود الخطاب، والمراد به؟ قيل: المقصود به إقامة الحجة على منكري النبوات والتوحيد، وأنهم مقرون بذلك لا يجحدونه ولا ينكرونها، وأن الله سبحانه أرسل إليهم رسلاً، وأنزل عليهم كتبه بذلك، وأرسل ملائكته إلى أنبيائه بوحيه وكلامه؛ فمن شك في ذلك فليسأل أهل الكتاب، فأخرج هذا المعنى في أوجز عبارة وأدلها على المقصود، بأن جعل الخطاب لرسوله الذي لم يشك قط، ولم يسأل قط، ولا عرض له ما يقتضي ذلك. وأنت إذا تأملت هذا الخطاب بدا لك على صفحاته<sup>(١)</sup>: من شك فليسأل، فرسولي لم يشك ولم يسأل<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠].

و«إذنه» هاهنا قضاءؤه وقدره، لا مجرد أمره وشرعه. كذلك قال السلف في تفسير هذه الآية.

قال ابن المبارك<sup>(٣)</sup> عن الثوري: بقضاء الله.

وقال محمد بن جرير<sup>(٤)</sup>: يقول جلّ ذكره لنيبه: وما لنفس خلقها من سبيل إلا أن

(١) وهذا قريب من قول من قال: «إن الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد لغيره، فتأمل»، والله أعلم.

(٢) أحكام أهل الذمة (١٢/١ - ١٥). (٣) رواه الطبري (١١/١٧٤).

(٤) تفسير ابن جرير (١١/١٧٤، ١٧٥)، مع بعض اختلاف يسير في العبارة.

تصدقك إلا أن يأذن لها في ذلك، فلا تجهدن نفسك في طلب هداها، وبلغها وعيد الله ثم خلها، فإن هداها بيد خالقها.

وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمَرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿يونس: ٩٩، ١٠٠﴾ أي: لا تكفي دعوتك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوته أن يؤمن، ثم قال: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: يقول تعالى: يا محمد، قل لهؤلاء السائلين الآيات على صحة ما تدعو إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: (انظروا) أيها القوم ﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله؛ من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها، وفي الأرض من جبالها، وتصدها بنباتها وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم عظة ومعتبراً، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على حفظه وتدبيره ظهير يغنيكم عما سواها من الآيات، وما يغني عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى عليهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار! فهم لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدقون به، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم<sup>(١)</sup>.



## سورة هود

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنَعَكُمْ مَنَّا حَسَنًا إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

فاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين.

فإن طيب النفس، وسرور القلب وفرحه، ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه، ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة، والشبهات الباطلة، هو التعميم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

وقال الآخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ»<sup>(١)(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي، وقدر أجل الخلق وخلق ما على

الأرض للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو: ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر، والسراء والضراء، فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والمقدرة، وتأتي الأسباب، أعظم الابتلاءين، والصبر على طاعة الله أشق الصبرين، كما قال الصحابة رضي الله عنهم: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر. والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها، وأذى الخلق قد يكون أعظم النعمتين، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضعافها<sup>(١)</sup>.  
فأخبر في هذه الآية أنه خلق السموات والأرض لibtلي عباده بأمره ونهيه، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١].

وهؤلاء ثنية<sup>(٣)</sup> الله من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة، والفرح والفخر عند النعمة، ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح، كما لا تنال المغفرة والأجر الكبير إلا بهما.  
فرتب - سبحانه - المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا نَوِيًّا إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ ١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس، حيث فهموا منها أن من كانت له إرادة في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد.

ثم اختلفوا في معناها، فقالت طائفة منهم ابن عباس<sup>(٥)</sup>: من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب. قالوا: والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس. وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبه جازاه الله في الدنيا بحسناته، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، وأما المؤمن

(٢) شفاء العليل (٣٥).

(١) عدة الصابرين (١٥١، ١٥٢).

(٤) عدة الصابرين (٧٣، ٧٤).

(٣) أي: من استثناهم الله تعالى.

(٥) راجع: تفسير الطبري (١١/١٢). والدر المنثور (٤/٤٠٦).

فيجزى في الدنيا بحسناته ويثاب عليها في الآخرة.

قال هؤلاء: فالآية في الكفار بدليل قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، قالوا: المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن.  
وقال ابن عباس رضي الله عنه في رواية أبي صالح عنه: نزلت في أهل القبلة.  
قال مجاهد: هم أهل الرياء.

وقال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى؛ عجل له ثواب عمله في الدنيا.

واختار الفراء هذا القول، وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثواب، ولم يبخس. وهذا القول أرجح.

ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها. وهذا لا يكون مؤمناً فإن العاصي والفاسق، ولو بالغاً في المعصية والفسق، فإيمانها يحملهما على أن يعمل أعمال البر لله، فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملاً بمعصيته.

فأما من لم يرد بعمله وجه الله وإنما أراد به الدنيا وزينتها، فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان، وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية، واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه<sup>(١)</sup>: «في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارئ الذي قرأ القرآن ليقال: فلان قارئ، والمتصدق

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) في الإمارة، باب: من قاتل للرياء والسمعة.. وأما قصة استشهاد «معاوية»

رضي الله عنه بالآية في فهم الحديث فرواها الترمذي (٢٨٢/٢)، صحيح الترمذي، في الزهد، باب: ما جاء في الرياء، والطبري في تفسيره (١٣/١٢)، وابن خزيمة (٤/١١٥)، وصححه الألباني.

وهي «أن شُفي بن ماتع الأصبحي، حدثه أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس.. ثم ذكر الحديث بطوله.. ثم قال الوليد بن أبي الوليد، أبو عثمان المدائني: فأخبرني عقبة: أن شُفياً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا.

قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم: أنه كان سَيَّافاً لمعاوية، قال: فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية - وعند الطبري فقال أبو هريرة -: قد فُعلَ بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقي من الناس، ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هالك. وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية. ورواه الحاكم دون القصة (٤١٨/١). وصححه ووافقه الذهبي.

الذي أنفق أمواله ليقال: فلان جواد، والغازي الذي قتل في الجهاد ليقال: هو جريء».

وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم، فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مرء، كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن إدريس، قال: أخبرني عبد الحميد بن صالح، حدثنا قطري الخشاب عن عبد الوارث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله ﷻ للدينا، وفرقة يعبدونه رياء وسمعة، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره، فيقول للذين كانوا يعبدونه للدينا: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك: الدينا. فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك: رياء وسمعة. فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك: وجهك ودارك، فيقول: صدقتم، اذهبوا بهم إلى الجنة».

هذا حديث غني عن الإسناد، فالقرآن والسنة شاهدان بصدقه، ويدل على صحة هذا القول في الآية قوله تعالى: ﴿تَوَفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾، وذلك على أنها في قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله، وإنما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا، فوقاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس، وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة، إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعاً عارضاً يتوب منه ويراجع التوحيد.

وقال ابن الأنباري: «فعلى هذا القول: المعنى في قوم من أهل الإسلام يعملون العمل الحسن لتستقيم به دنياهم غير متفكرين في الآخرة، كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه الله، ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره».

ثم أورد أصحاب هذا القول على أنفسهم سؤالاً قالوا: فإن قيل: الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا في النار؟ وأجابوا عنه: بأن ظاهر الآية يدل على أن من رأى بعمله، ولم يلتمس به ثواب الآخرة، بل كانت نيته الدنيا؛ فإن الله يبطل إيمانه عند الموافاة، فلا يوافي ربه بالإيمان.

قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه.

وأجابت فرقة أخرى: بأن الآية لا تقتضي الخلود الأبدي في النار، وإنما تقتضي أن الذي يستحقونه في الآخرة النار، وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد، فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين، وهذا هو جواب ابن الأنباري، وغيره.

□ □ □

والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها، بل أراد الله به والدار الآخرة لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود في النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة.

والإيمان إيمانان: إيمان يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغي بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود في النار، وإن كان مع المرائي شيء منه وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد، والله الموفق.

□ □ □

وذلك قوله: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤَتْ بِهِ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. ومنها قوله: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَمْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَمْ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا﴾ [١٨] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا [الإسراء: ١٨، ١٩]. فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضاً، ويصدق بعضها بعضاً، وتجتمع على معنى واحد، وهو أن من كانت الدنيا مراده، ولها يعمل في غاية سعيه لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل، وهي غاية سعيه فهي له.

□ □ □

بقي أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة، فإنه داخل تحت حكم الإرادتين، فبأيهما يلحق؟

قيل: من هاهنا نشأ الإشكال، وظن من ظن من المفسرين أن الآية في حق الكافر، فإنه هو الذي يريد الدنيا دون الآخرة، وهذا غير لازم طرداً ولا عكساً، فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا، فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور، والطاعة والمعصية، والإيمان والشرك في العبد، وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وهذا خطاب للذين شهدوا معه الواقعة، ولم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية»<sup>(١)</sup>.

والذين أريدوا في هذه الآية هم الذين أدخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز، والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون.

وهاهنا أمر يجب التنبيه له، وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر، دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبداً، فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله، فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبداً، وإن جامع الإقرار والعلم بالإيمان وراء ذلك، والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة؛ كفرعون وثمود، واليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ، وعرفوه كما عرفوا أبناءهم وهم من أكفر الخلق، فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال قد تجامع هذه المعرفة والعلم، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك لا بد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة، والله المستعان<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ

(١) راجع تفسيرها في سورة آل عمران. (٢) عدة الصابرين (١٦٣ - ١٦٧).

الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ [هود: ١٨، ١٩].

وهؤلاء المعارضون للوحي بقولهم جمعوا بين الأمور الثلاثة، الكذب على الله، والصد عن سبيل الله، وبغيها عوجاً.

أما الكذب على الله: فإنهم نفوا عنه ما أثبتته لنفسه من صفات الكمال، ووصفوه بما لم يصف به نفسه.

وأما صدهم عن سبيله وبغيها عوجاً: فإنهم أفهموا الناس، بل صرحوا لهم بأن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد علماً ولا يقيناً، وأن العقول عارضتها فيجب تقديم العقول عليها. وأي عوج أعظم من عوج مخالفة العقل الصريح، وقد وصف الله كتابه بأنه غير ذي عوج<sup>(١)</sup>، ولا ريب أن الله هو الصادق في ذلك، وأنهم هم الكاذبون. فإن قلت: يبغونها متعدياً إلى مفعول واحد، فما وجه انتصاب عوجاً؟ قيل: فيه وجوه: أحدهما: أنه نصب على الحال. أي: يطلبونها ذات عوج، لا يطلبونها مستقيمة، والمعنى: يطلبون لها العوج.

الثاني: أن عوجاً مفعول به يبغونها على تقدير حذف اللام، أي: يطلبون لها عوجاً يرمونها به، ويصفونها به.

وأحسن منهما أن تضمن يبغونها: إما معنى يعوجونها، فيكون عوجاً منصوباً على المصدر، ودل فعل البغي على طلب ذلك وابتغائه. وإما معنى يسومونها ويؤولونها. وعلى كل تقدير فسيل الله هداه وكتابه الهادي للطريق الأقوم، والسبيل الأqvص، فمن زعم أن في العقل ما يعارضه؛ فقد بغاه عوجاً، ودعا إلى الصد عنه، ومن له خبرة بالمعقول الصحيح، يعلم أن العوج في كلام هؤلاء المعوجين، الذين هم عن الصراط ناكبون، وعن سبيل الرشd حائدون، وعن آيات الله بعيدون، وبالباطل والقضايا الكاذبة يصدقون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي ريبهم يترددون، وهم للعقل الصريح والسمع الصحيح مخالفون<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) في قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿لَتَمُدَّ لِيهِ أَلْفَ بَاسٍ لَّنَّآ أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

(٢) الصواعق المرسله (٣/ ١١٤٢ - ١١٤٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود: ٢٣].

والخَبْتُ في أصل اللغة<sup>(١)</sup>: المكان المنخفض من الأرض. وبه فسر ابن عباس رضي الله عنه، وقتادة لفظ «المخبتين»، وقالوا: هم المتواضعون. وقال مجاهد: المخبت المطمئن إلى الله تعالى. قال: والخبت: المكان المطمئن من الأرض.

وقال الأخفش: الخاشعون.

وقال إبراهيم النخعي: المصلون المخلصون.

وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم.

وقال عمرو بن أوس: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون إلى الله تعالى، ولذلك عُدِّي بـإلى، تضميناً لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

فإنه سبحانه ذكر الكفار، ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع، وما كانوا يبصرون، ثم ذكر المؤمنين ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم، فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم؛ من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه، فَشَبَّهَهُ بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء، وسمعه أصم عن سماع الأصوات، والفريق الآخر: بصير القلب كبصير العين وسميع الأذن.

فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

فاعتبروا صورة مجرد الآدمية، وشبه المجانسة فيها، واستدلوا بذلك على أن

(١) راجع: تفسير الطبري (٢٤/١٢). وأساس البلاغة للزمخشري (١٠٢).

(٢) مدارج السالكين (٣/٢). (٣) إعلام الموقعين (١/٢٠٣، ٢٠٤).

حكم أحد الشبهين حكم الآخر، فكما لا نكون نحن رسلاً، فكذلك أنتم، فإذا تساوينا في هذا الشبه؛ فأنتم مثلنا لا مزية لكم علينا، وهذا من أبطل القياس، فإن الواقع من التخصيص والتفضيل، وجعل بعض هذا النوع شريفاً، وبعضه دنياً، وبعضه مرؤوساً، وبعضه رئيساً، وبعضه ملكاً، وبعضه سوقه؛ يبطل هذا القياس<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

إن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم: قد أودع الله قلوبهم سرّاً من أسرار معرفته ومحبته، والإيمان به، خفي على أعداء الرسل، فنظروا إلى ظواهرهم، وعموا عن بواطنهم؛ فازدروهم واحتقروهم. وقالوا للرسول: (اطرد هؤلاء عنك حتى نأتيك ونسمع منك)، وقالوا: ﴿أَهْؤُلَاءِ مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]. [فكانت الآية جواب] نوح ﷺ لقومه.

قال الزجاج: المعنى: إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره، فليس علي أن أطلع على ما في أنفسهم، فإذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله. وهذا معنى حسن. والذي يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم، إذ أهلهم لقبول دينه، وتوحيده، وتصديق رسله. والله ﷻ عليم حكيم، يضع العطاء في مواضعه.

وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهلهم للهدى والحق، وحرّمه رؤساء الكفار، وأهل العزة والثروة منهم، كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة.

فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده، من معرفة قدر النعمة ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها، وليس كل أحد عنده هذا السر، فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٧٠، ١٧١).

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٩٨).

قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

[الاستثناء منقطع] على أصح الوجوه في الآية، فإنه تعالى لما ذكر العاصم استدعى معصوماً مفهوماً من السياق، فكأنه قيل: لا معصوم اليوم من أمره إلا من رحمه، فإنه لما قال: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ بقي الذهن طالباً للمعصوم! فكأنه قيل: فمن الذي يعصم؟

فأجيب: بأنه لا يعصم إلا من رحمه الله، ودل هذا اللفظ، باختصاره وجلالته وفصاحته، على نفي كل عاصم سواه، وعلى نفي كل معصوم سوى من رحمه الله.

فدل الاستثناء على أمرين: على المعصوم من هو، وعلى العاصم، وهو ذو الرحمة. وهذا من أبلغ الكلام وأفصحه وأوجزه، ولا يلتفت إلى ما قيل في الآية بعد ذلك.

وقد قالوا فيها ثلاثة أقوال آخر<sup>(١)</sup>:

أحدها: إن عاصماً بمعنى: معصوم؛ كماء دافق، وعيشة راضية، والمعنى: لا معصوم إلا من رحمه الله.

وهذا فاسد، لأن كل واحد من اسم الفاعل واسم المفعول موضوع لمعناه الخاص به، فلا يشاركه فيه الآخر، وليس الماء الدافق بمعنى المدفوق، بل هو فاعل على باب، كما يقال: ماء جار. فدافق كجار، فما الموجب للتكلف البارد؟ وأما عيشة راضية فهي عند سيبويه على النسب «كتامر» و«لابن»، أي: ذات رضى، وعند غيره «كنهار صائم» و«ليل قائم» على المبالغة.

والقول الثاني: إن (من رحم) فاعل لا مفعول، والمعنى: لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم، فهو استثناء فاعل من فاعل. وهذا وإن كان أقل تكلفاً، فهو أيضاً ضعيف جداً، وجزالة الكلام وبلاغته تأباه بأول نظر.

والقول الثالث: إن في الكلام مضافاً محذوفاً قام المضاف إليه مقامه، والتقدير:

(١) انظر هذه الأقوال في: «الكشاف» للزمخشري (٢/٢١٧).

وراجع: تفسير القرطبي (٤/٣٢٦٧)، وتفسير البغوي (٣/٢٣٣، ٢٣٤).

لا معصوم عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله . وهذا من أنكر الأقوال وأشدّها منافاة للفصاحة والبلاغة<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ، فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [هود: ٥٤ - ٥٦] .

أخبر نبي الله هود عليه السلام عن عموم قدرة الله تعالى وقهره لكل ما سواه، وذل كل شيء لعظمته، فقال: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ، فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قهره وقبضته، وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا إلا من أجهل الجهل، وأقبح الظلم؟

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم، في كل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه، فلا أخاف ما دونه، فإن ناصيته بيده، ولا أخاف جوره وظلمه، فإنه على صراط مستقيم، فهو سبحانه ماضٍ في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك وله الحمد، لا يخرج في تصرفه في عبادته عن العدل والفضل، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق بفضله ورحمته، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعده وحكمته، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا<sup>(٢)</sup> .

قال ابن الأنباري: لما قال: ﴿هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ، كان في معنى: لا يخرج من قبضته وأنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابة، فأتبع قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ، قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا بحسن السيرة والعدل والإنصاف قالوا: فلان على طريقة حسنة . وليس ثم طريق .

ثم ذكر وجهاً آخر فقال: لما ذكر أن سلطانه قد قهر كل دابة أتبع هذا قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ، أي: لا تخفى عليه مشيئته ولا يعدل عنه هارب، فذكر الصراط المستقيم وهو يعني به: الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] .

(٢) الجواب الكافي (٣١١، ٣١٢) .

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٧، ٦٨) .

قلت: فعلى هذا القول الأول يكون المراد أنه في تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل ومجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولا يظلم مثقال ذرة، ولا يعاقب أحداً بما لم يجنه، ولا يهضمه ثواب ما عمله، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يأخذ أحداً بجريرة أحد، ولا يكلف نفساً ما لا تطيقه، فيكون من باب: «له الملك وله الحمد»، ومن باب: «ماض في حكمك، عدل في قضاؤك»، ومن باب: «الحمد لله رب العالمين»، أي: كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته ومشيتته، فهو المحمود على هذا التصرف، وله الحمد على جميعه.

وعلى القول الثاني المراد به التهديد والوعيد، وأن مصير العباد إليه وطريقهم عليه لا يفوته منهم أحد. كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، قال الفراء يقول: مرجعهم إليّ فأجازيهم، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، قال: وهذا كما تقول في الكلام «طريقك عليّ وأنا على طريقك» لمن أوعدته، وكذلك قال الكلبي والكسائي. ومثل قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] على إحدى القولين في الآية، وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه. ومنها - أي: ومن السبيل - ما هو جائز عن الحق ولو شاء لهداكم أجمعين، فأخبر عن عموم مشيئته وأن طريق الحق عليه موصلة إليه فمن سلكها فإليه يصل، ومن عدل عنها فإنه يضل عنه.

والمقصود: أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده، والله يتصرف في خلقه بملكه وحمده وعدله وإحسانه، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه، يقول الحق، ويفعل العدل: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. فهذا العدل والتوحيد اللذان دل عليهما القرآن لا يتناقضان<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَبِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ

(١) شفاء العليل (١، ٢، ٨٧)، وروضة المحبين (٧٠).

وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُولىَ أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ [هود: ٦٩ - ٧٢].

[إذا قيل]: ما السر في نصب «السلام» في تسليم الملائكة، ورفع في تسليم إبراهيم؟

[الجواب]: أنك قد عرفت قول النحاة فيه: إن سلام الملائكة تضمن جملة فعلية، لأن نصب السلام يدل على: سلمنا عليك سلاماً. وسلام إبراهيم تضمن جملة اسمية، لأن رفعه يدل على أن المعنى: سلامٌ عليكم. والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر، والفعلية تدل على الحدوث والتجدد، فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه، وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه ﷺ، وهو مقام الفضل إذ حيّاهم بأحسن من تحيتهم. هذا تقرير ما قالوه.

وعندي فيه جواب أحسن من هذا: وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة، فنصب قوله: «سلاماً»، انتصاب مفعول القول المفرد، كأنه قيل: قالوا: سلاماً، وقالوا: سداداً وصواباً ونحو ذلك، فإن القول إنما تحكى به الجمل، وأما المفرد فلا يكون محكياً به، بل منصوب به انتصاب المفعول به، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ليس المراد أنهم قالوا هذا اللفظ المفرد المنصوب، وإنما معناه: قالوا: قولاً سلاماً. مثل: سداداً وصواباً، وسمى القول سلاماً: لأنه يؤدي معنى السلام ويتضمنه من رفع الوحشة، وحصول الاستيناس.

وحكى عن إبراهيم لفظ سلامه، فأتى به على لفظه، مرفوعاً بالابتداء محكياً بالقول، ولولا قصد الحكاية لقال: سلاماً بالنصب؛ لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعاً فعلى الحكاية ليس إلا.

فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفع ونصب ذلك إشارة إلى معنى لطيف جداً: وهو أن قوله: سلام عليكم من دين الإسلام المتلقى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء، وأنه من ملة إبراهيم التي أمر الله بها واتباعها، فحكى لنا قوله ليحصل الاقتداء به والاتباع له، ولم يحك قول أضيافه، وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل، والله أعلم، وبالله التوفيق<sup>(١)</sup>.

وتأمل سياق هذه البشارة وتلك تجدهما بشارتين متفاوتتين، مخرج إحداهما غير مخرج الأخرى، والبشارة الأولى كانت له، والثانية كانت لها، والبشارة الأولى هي التي أمر بذبح من بشر به فيها دون الثانية<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَجَاءُ قَوْمُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُنُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ [هود: ٧٨ - ٨٣].

تأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله، حيث جاؤوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرده أضياف، هم من أحسن البشر صوراً، فأقبل اللوطية إليه يهرولون، فلما رآهم قال لهم: ﴿يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، ففدى أضيافه ببنياته يزوجهن بهن؛ خوفاً على نفسه وأضيافه من العار الشديد، فقال: ﴿قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُنُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ فـردوا عليه، ولكن رد جبار عنيد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَلِئِكَ لِنَعْلَمَ مَا تَرِيدُ﴾. فنفت نبي الله منه نفثة مصدور خرجت من قلب مكروب، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى زُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

فنفس له رسل الله، وكشفوا له عن حقيقة الحال، وأعلموه أنهم ممن ليسوا يوصل إليهم، ولا إليه بسببهم، فلا تخف منهم، ولا تعباً بهم وهون عليك. فقالوا: ﴿يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾. وبشروه بما جاؤوا به من الوعد له، ولقومه من الوعيد المصيب، فقالوا: ﴿فَأَنذِرْ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْغَتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

فاستبطأ نبي الله موعد هلاكهم، وقال: أريد أعجل من هذا. فقالت الملائكة: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله، ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصلها، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير، فبرز المرسوم الذي لا يرد عن الرب الجليل

إلى عبده ورسوله جبرائيل، بأن قلبها عليهم كما أخبر به محكم التنزيل، فقال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ﴾.

فجعلهم آية للعالمين، وموعظة للمتقين، ونكالا وسلفاً لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، وجعل ديارهم بطريق السالكين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٧٥) وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٧]. أخذهم على غرة وهم نائمون وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فقلبت تلك اللذات آلاماً فأصبحوا بها يعذبون.

مآرب كانت في الحياة لأهلها عذاباً فصارت في الممات عذاباً ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، وأورثت الشقوات، وتمتعوا قليلاً، وعذبوا طويلاً، رتعوا مرتعاً وخيموا فأعقبهم عذاباً أليماً، وأسكرتهم خمرة تلك الشهوات، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين؛ فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم، وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون: ذوقوا ما كنتم تكسبون: ﴿أَصْلَوْهَا فَأَصْبَرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وقد قرَّب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوفاً لهم أن يقع الوعيد: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وقوله: ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾.

[الاستثناء منقطع] - في قراءة الرفع<sup>(٢)</sup>، ويكون امرأتك مبتدأ، وخبره ما بعده. وهذا التوجيه أولى من أن يجعل الاستثناء في قراءة من نصب من قوله: ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، وفي قراءة من رفع من قوله: ﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾، ويكون الاستثناء على هذا من ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ رفعا ونصباً.

(١) الجواب الكافي (٢٦٠ - ٢٦٢).

(٢) انظر: «كتاب السبعة في القراءات»، ص (٣٣٨) لابن مجاهد. وتفسير القرطبي (٤/٣٣٠٨).

وإنما قلنا إنه أولى لأن المعنى عليه، فإن الله تعالى أمره أن يسري بأهله إلا امرأته، ولو كان الاستثناء من الالتفات لكان قد نهى المسري بهم عن الالتفات وأذن فيه لامرأته، وهذا ممتنع لوجهين:  
أحدهما: أنه لم يأمره بأن يسري بامرأته، ولا دخلت في أهله الذين وعد بنجاتهم.

والثاني: أنه لم يكلفهم بعدم الالتفات، ويأذن فيه للمرأة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَقِرْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفَاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

سأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أصبت من امرأة قبله! فنزلت هذه الآية، فقال الرجل: ألي هذه؟ فقال: «بل لمن عمل بها من أمتي»<sup>(٢)(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

إن الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله<sup>(٤)</sup>: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء». قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس<sup>(٥)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

في الآية قولان:

أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم.

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٧)، ومسلم (٢٧٦٣).

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٥، ٦٦).

(٣) إعلام الموقعين (٤/ ٣٧٠).

(٤) حديث صحيح رواه الإمام أحمد (٥/ ٢٩٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر «إسناده صحيح».

ورواه الترمذي (٢٦٢٩).

(٥) مدارج السالكين (٣/ ١٩٤).

الثاني: ما كان ليهلكها بظلم منه.

والمعنى على القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم، وهم مصلحون الآن. أي: إنهم بعد أن أصلحوا، وتابوا، لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

وعلى القول الثاني: إنه لم يكن ظالماً لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون؛ وإنما أهلكتهم وهم ظالمون. فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم<sup>(١)</sup>.



## سورة يوسف

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ [يوسف: ١٩].

قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلى دلوه: إذا أرسلها في البئر، ودلاها - بالتخفيف - إذا نزعها من البئر، فأدلى دلوه يدليه إدلاء إذا أرسلها، ودلاها يدلوها دلواً إذا نزعها وأخرجها.

ومنه الإدلاء: وهو التوصل إلى الرجل برحم منه.

ومنه الدل: وهو ما يدل على العبد من أفعاله، وكان عبد الله بن مسعود يُشَبِّه برسول الله ﷺ في هديه ودله وسمته، فالهدي الطريقة التي عليها العبد من أخلاقه وأعماله، والدل: ما يدل من ظاهره على باطنه، والسمت هيأته ووقاره ورزاقته<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ الآية [يوسف: ٢٤ - ٥٣].

وقد ذكر الله ﷻ عن يوسف الصديق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون، فإن قيل: فقد همَّ بها؟

قيل: عنه جوابان:

أحدهما: أنه لم يهم بها، بل لولا أن رأى برهان ربه لهم. هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثاني: وهو الصواب، أن همَّه كان همَّ خطرات فتركه الله فأثابه الله عليه، وهمَّها كان همَّ إصرار بذلت معه جهدها فلم تصل إليه، فلم يستو الهمَّان.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: الهمُّ همَّان: همَّ خطرات، وهمَّ إصرار، فهَمَّ الخطرات لا يؤاخذ به، وهمَّ الإصرار يؤاخذ به.

فإن قيل: فكيف قال وقت ظهور براءته: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾. قيل: هذا قد قاله جماعة من المفسرين، وخالفهم في ذلك آخرون أجل منهم، وقالوا: إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف عليه السلام والصواب معهم لوجه:

أحدها: أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها: ﴿أَلْقَنَ خَصَخَصَ الْحَقِّ أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥١ - ٥٣]. ومن جعله من قوله، فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقول في مثل هذا لا يحذف لثلا يوقع في اللبس، فإن غايته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعاً.

الثاني: أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها: ﴿أَلْقَنَ خَصَخَصَ الْحَقِّ﴾، والسياق صريح في ذلك، فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَتَشْلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠].

فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته، ولم يمكنهن إلا قول الحق، فقال النسوة: ﴿حَسَنَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سَوَءٍ﴾. [يوسف: ٥١]

وقالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

□ □ □

فإن قيل: لكن قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]. الأحسن أن يكون من كلام يوسف عليه السلام، أي: إنما كان تأخيرني عن الحضور مع رسوله؛ ليعلم الملك أنني لم أخنه في امرأته في حال غيبته، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. ثم إنه عليه السلام قال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]. وهذا من تمام معرفته عليه السلام بربه ونفسه، فإنه لما ظهرت براءته ونزاهته مما قذف به؛ أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرئها فإنها أمارة بالسوء، لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه، فرد الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته.

قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفة، فالصواب أنه من تمام كلامها، فإن الضمائر

كلها في نسق واحد يدل عليه وهو: قول النسوة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾، وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا زَوَّجْتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، فهذه خمسة ضماير بين بارز ومستتر، ثم اتصل بها قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَفَى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، فهذا هو المذكور أولاً بعينه فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه، ويضمر فيه قول لا دليل عليه.

فإن قيل: فما معنى قولها: ﴿لِيَعْلَمَ أَفَى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾؟ قيل: هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت: ذلك - أي: قولي هذا وإقرارى ببراءته - ليعلم أنني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خُنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أنني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾... ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهي أن النفس أمانة بالسوء.

فتأمل ما أعجب هذه المرأة! أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر.

فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف ﷺ لفظاً ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك، فإن القوم كانوا يقولون بالرب ﷻ وبحقه وإن أشركوا معه غيره، ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال: ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْكَ إِنَّكَ كُنتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩] (١).

□ □ □

إن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله، فإن مواجهة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، وذلك من وجوه:

أحدها: ما رغبه الله سبحانه في الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر على النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً.

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شاباً، وشهوة الشاب وحَدَّثته أقوى.

الثالث: أنه كان عزباً ليس له زوجة ولا سرية تكسر قوة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى الغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية؛ فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته إباؤها وامتناعها، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحباً، كما قال الشاعر:

وزادني كلفاً في الحب أن منعت أحب شيء إلى الإنسان ما منعا  
فطباع النفس مختلفة؛ فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها،  
ويضمحل عند إباؤها وامتناعها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت، وبذلت الجهد؛ فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرغبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي، ولا أحد من جهتها؛ فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكاً لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج، ويحضر معها ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقاً على الطلب وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة شريفة من أشرف العرب: ما حملك على الزنى؟ قالت: قرب الوساد وطوال السواد، تعني: قرب وساد الرجل من وسادتي، وطوال السواد بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتياال، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه، واستعان هو بالله عليهن، فقال: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثاني عشر: أنها توعده بالسجن والصغار وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة، وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما؛ ويبعد كلاً منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به: أنه قال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾، وللمرأة: ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لَذُنُوبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهذا لم يظهر منه غيرة، ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾. وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين.

وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه. وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة، لعلنا، إن وفق الله، أن نفردها في مصنف مستقل<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

دل أن الإخلاص سبب لدفع العشق، وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصرف المسبب صرف لسببه<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

وقد حكى الله سبحانه في كتابه عن الشاهد الذي شهد من أهل امرأة العزيز، وحكم بالقرائن الظاهرة على براءة يوسف عليه السلام، وكذب المرأة، بقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيِّدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٦ - ٢٨].

وسمى الله سبحانه ذلك آية، وهي أبلغ من البينة، فقال: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥].

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣١٩).

(١) الجواب الكافي (٣١٣ - ٣١٦).

وحكى سبحانه ذلك مقررأ له غير منكر، وذلك يدل على رضاه به<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وقد جمع الله ﷻ ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين [الصبر على عاجل العقوبة عن لذة الوصال الحرام]، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن، على ارتكاب الحرام، فقالت المرأة:

﴿وَلَيْنَ لَّمْ يَفْعَلْ مَآءِمْرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿يوسف: ٣٢، ٣٣﴾.

فاختار السجن على الفاحشة ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه، فقال: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصبته الله، وأحاط به الخذلان<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهن إياه ليعذرنها في محبته: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، أي: هذا هو الذي فتننت به، وشغفت بحبه، فمن يلومني على محبته، وهذا حسن منظره، ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾، أي: فمع هذا الجمال، فباطنه أحسن من ظاهره، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا، والمحب وإن عيب محبوبه فلا يجري لسانه إلا بمحاسنه ومدحه<sup>(٣)</sup>.

□ □ □

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [يوسف: ٤٠]. إنما عبدوا المسميات، ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة، كاللآت والعزى، وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في الحقيقة، فإنهم سموها آلهة وعبدوها لا اعتقادهم حقيقة الإلهية لها، وليس لها من الإلهية إلا مجرد الأسماء لا حقيقة المسمى، فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها.

(٢) روضة المحبين (٤١٣).

(١) إغاثة اللهفان (٦٦/٢).

(٣) روضة المحبين (٢٢٤، ٢٢٥).

وهذا كمن سمي قشور البصل لحماً وأكلها، فيقال: ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه. وكمن سمي التراب خبزاً وأكله، يقال: ما أكلت إلا اسم الخبز. بل هذا النفي أبلغ في آلهتهم فإنه لا حقيقة لإلهيتها بوجه، وما الحكمة ثم إلا مجرد الاسم. فتأمل هذه الفائدة الشريفة في كلامه تعالى<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ شَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٦٢ - ٧٦].

وأما إخباره ﷺ عن يوسف ﷺ أنه جعل صواعه في رحل أخيه ليتوصل بذلك إلى أخذه وكيد إخوته، فنقول لأرباب الحيل:

أولاً: هل تجوزون أنتم مثل هذا حتى يكون حجة لكم؟ وإلا فكيف تحتجون بما لا تجوزون فعله؟! فإن قلتم: كان جائزاً في شريعته؟ قلنا: وما ينفعكم إذا لم يكن جائزاً في شرعنا؟

قال شيخنا<sup>(٢)</sup> رحمه الله: ومما قد يظن أنه من جنس الحيل التي بينا تحريمها وليس من جنسها قصة يوسف حيث كاد الله له في أخذ أخيه، كما قص ذلك تعالى في كتابه، فإن فيه ضرراً من الحيل الحسنة:

أحدها قوله لفتيانهِ: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢].

فإنه تسبب بذلك في رجوعهم، وقد ذكروا في ذلك معاني:

منها: أنه تخوف أن لا يكون عندهم ورق يرجعون بها.

ومنها: أنه خشي أن يضر أخذ الثمن بهم.

ومنها: أنه رأى لوماً إذا أخذ الثمن منهم.

ومنها: أنه أراهم كرمه في رد البضاعة؛ ليكون أدعى لهم إلى العود.

(١) بدائع الفوائد (١/١٩، ٢٠).

(٢) يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهذا الفصل منقول من كتابه «الفتاوى الكبرى» (٣/٢٠٩) وما بعدها، يكاد يكون حرفياً.

ومنها: أنه علم أن أمانتهم تحوجهم إلى العود ليردوها إليه.  
فهذا المحتال به عمل صالح، والمقصود رجوعهم، ومجيء أخيه، وذلك أمر فيه منفعة لهم ولأبيهم وله، وهو مقصود صالح.  
وإنما لم يعرفهم نفسه لأسباب آخر فيها أيضاً منفعة لهم وله ولأبيهم، وتمام لما أراد الله بهم من الخير في البلاد.

الضرب الثاني: أنه في المرة الثانية لما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، وهذا القدر تضمن إيهام أن أخاه سارق، وقد ذكروا أن هذا كان بمواطأة من أخيه، ورضا منه بذلك والحق له في ذلك، وقد دل على ذلك قوله تعالى:  
﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]. وفيه قولان:

أحدهما: إنه عرف أنه يوسف، ووطنه على عدم الابتئاس بالحيلة التي فعلها في أخذه منهم.

والثاني: أنه لم يصرح له أنه يوسف، وإنما أراد: إني مكان أخيك المفقود، فلا تبتئس بما يعاملك به إخوتك من الجفاء. ومن قال هذا قال: إنه وضع السقاية في رحل أخيه والأخ لا يشعر<sup>(١)</sup>، ولكن هذا خلاف المفهوم من القرآن، وخلاف ما عليه الأكثرون، وفيه ترويع لمن لم يستوجب الترويع.  
وأما على القول الأول فقد قال كعب وغيره: لما قال له: إني أنا أخوك.  
قال<sup>(٢)</sup>: فأنا لا أفارقك.

قال يوسف: فقد علمت اغتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع، وأنسبك إلى ما لا يحتمل.  
قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك فإنني لا أفارقك.  
قال: فإنني أدس صاعي هذا في رحلك، ثم أنادي عليك بالسرقة ليتها لي ردك بعد تسريحك.

قال: فافعل. وعلى هذا، فهذا التصرف إنما كان بإذن الأخ ورضاه.

الضرب الثالث: أنه أذن مؤذن:

(١) في تفسير الطبري (١٧/١٣).

(٢) في الطبري (١٧/١٣)، والفتاوى الكبرى (٣/٢١٠) تسمية أخيه «بنيامين».

﴿أَيَّتَهَا آلَعِيزُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٢) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿يوسف: ٧٠ - ٧٦﴾.

وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين:

أحدهما: أنه من باب المعارض، وأن يوسف نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه حيث غيبوه عنه بالحيلة التي احتالوا عليها، وخانوه فيه، والخائن يسمى سارقاً، وهو من الكلام المرموز، ولهذا يسمى خونة الدواوين: لصوصاً.

الثاني: أن المنادي هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف. قال القاضي أبو يعلى وغيره<sup>(١)</sup>: أمر يوسف بعض أصحابه أن يجعل الصواع في رَحْل أخيه، ثم قال بعض الموكلين، وقد فقدوه، ولم يدر من أخذه: ﴿أَيَّتَهَا آلَعِيزُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾، على ظن منهم أنهم كذلك، من غير أمر يوسف لهم بذلك. أو لعل يوسف قد قال للمنادي: هؤلاء سرقوا. وعنى: أنهم سرقوه من أبيه، والمنادي فهم سرقة الصواع، فصدق يوسف في قوله، وصدق المنادي.

وتأمل حذف المفعول في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾؛ ليصح أن يضمن سرقتهم فيتم التعريض<sup>(٢)</sup>، ويكون الكلام صدقاً، وذكر المفعول في قوله: ﴿نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾، وهو صادق في ذلك، فصدق في الجملتين معاً تعريضاً وتصريحاً، وتأمل قول يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾، ولم يقل: إلا من سرق - وهو أخصر لفظاً - تحريماً للصدق، فإن الأخ لم يكن سارقاً بوجه، وكان المتاع عنده حقاً، فالكلام من أحسن المعارض وأصدقها.

□ □ □

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/١٣).

(٢) راجع معنى التعريض وحكمه في: (٤٩/٥) زاد المعاد، و(٥٠٤/٢)، (٥٠٥) الصواعق المرسله، و(٣٦٦) مفتاح دار السعادة.

وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف، على أنه جائز للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير، بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا مَنْ عليه الحق.

قال شيخنا<sup>(١)</sup> رحمه الله: وهذه الحجة ضعيفة، فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه، ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف حتى يقال: إنه قد اقتصر منه. وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك، نعم تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذي أبيهم، والميثاق الذي أخذه عليهم، وقد استثنى في الميثاق بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦].

وقد أحيط بهم، ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته، فإنه كان أكرم من هذا، وكان في ذلك من الإيذاء لأبيه أعظم مما فيه من إيذاء إخوته، وإنما هو أمر أمره الله به، ليلبغ الكتاب أجله، ويتم البلاء الذي استحق به يعقوب ويوسف كمال الجزاء، وتبلغ حكمة الله التي قضاهما لهم نهايتها.

ولو كان يوسف قصد القصاص منهم بذلك فليس هذا موضع الخلاف بين العلماء، فإن الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به.

وإنما موضع الخلاف: هل يجوز له أن يسرق أو يخون مَنْ سرقه أو خانته، مثل ما سرق منه أو خانته إياه؟ وقصة يوسف لم تكن من هذا الضرب.

نعم، لو كان يوسف أخذ أخاه بغير أمره؛ لكان لهذا المحتج شبهة، مع أنه لا دلالة في ذلك على هذا التقدير أيضاً، فإن مثل هذا لا يجوز في شرعنا بالاتفاق، وهو أن يحبس رجل بريء ويعتقل للانتقام من غيره، من غير أن يكون له جرم.

ولو قدر أن ذلك وقع من يوسف، فلا بد أن يكون بوحي من الله ابتلاء منه لذلك المعتقل، كما ابتلي إبراهيم بذبح ابنه، فيكون المبيح له على هذا التقدير وحياً خاصاً، كالوحي الذي جاء إبراهيم بذبح ابنه، وتكون حكمته في حق المبتلى امتحانه وابتلاؤه؛ لينال درجة الصبر على حكم الله، والرضا بقضائه، وتكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب في احتباس يوسف عنه.

وهذا معلوم من فقه القصة وسياقها، ومن حال يوسف، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

فنسب الله تعالى هذا الكيد إلى نفسه، كما نسبته إلى نفسه في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

وفي قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠].

وفي قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد قيل: إن تسمية ذلك مكرًا وكيدًا واستهزاء وخداعاً من باب الاستعارة ومجاز المقابلة نحو: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. ونحو قوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقيل - وهو أصوب -: بل تسميته بذلك حقيقة على بابه، فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان: قبيح: وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه.

وحسن: وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له. فالأول مذموم، والثاني ممدوح. والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلاً منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب، لا كما يفعل الظلمة بعباده، وإنما السيئة فهي فيعلة مما يسوء، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها، فهي سيئة له حسنة من الحكم العدل.

□ □ □

وإذا عرفت ذلك فيوسف الصديق كان قد كيد غير مرة:

أولها: أن إخوته كادوا به كيداً، حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه.

ثم إن امرأة العزيز كادته بما أظهرت أنه راودها عن نفسها.

ثم أودع السجن.

ثم إن النسوة كدنه حتى استعاذ بالله من كيدهن فصرفه عنه.

وقال له يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].

وقال الشاهد لامرأة العزيز: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ كَاذِبِينَ إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

وقال تعالى في حق النسوة: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣٤].

وقال للرسول: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَنُلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي

يَكِيدُهُنَّ عَلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٥٠].

فكاد الله له أحسن كيد وأطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره، وكاد له عوض كيد

المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث شاء، وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبته وراودنه حتى شهدن ببراءته وعفته. وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه من الصادقين، فهذه عاقبة من صبر على كيد الكائد له بغياً وعدواناً<sup>(١)</sup>.

والمقصود: أن الله سبحانه كاد ليوسف ﷺ، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره. وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي، فقالوا:

﴿يَتَأْتِيَهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِضِغَعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

فهذا الذل والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الحب وبيعه بيع العبيد.

وكاد له بأن هيا له الأسباب التي سجدوا له، هم وأبوه وخالته، في مقابلة كيدهم له حذراً من وقوع ذلك، فإن الذي حملهم على إلقائه في الحب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له كلهم، فكادوه خشية ذلك، فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك، كما رآه في منامه.

□ □ □

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].

وكيد الله سبحانه لا يخرج عن نوعين:

أحدهما: أن يفعل سبحانه فعلاً خارجاً عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الكيد قدراً محضاً ليس من باب الشرع، كما كاد الذين كفروا، بأن انتقم منهم بأنواع العقوبات.

وكذلك كانت قصة يوسف ﷺ، فإن يوسف أكثر ما قدر عليه أن ألقى الصُّوع في رحل أخيه، وأرسل مؤذناً يؤذن: ﴿أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ﴾، فلما أنكروا قال: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ، أي: جزاؤه استعباد المسروق ماله للشارق، إما مطلقاً، وإما إلى مدة، وهذه كانت شريعة آل يعقوب ﷺ.

وكان إلهام الله تعالى لإخوة يوسف ﷺ قولهم: ﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُ﴾ كيداً من الله تعالى ليوسف ﷺ، أجراه على ألسن إخوته، وذلك خارج عن قدرته، وكان يمكنهم أن يتخلصوا من ذلك، بأن يقولوا: لا جزاء عليه، حتى يثبت أنه هو الذي سرق، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب أن يكون سارقاً.

وقد كان يوسف ﷺ عادلاً لا يأخذهم بغير حجة، وكان يمكنهم التخلص أيضاً بأن يقولوا: جزاؤه أن يفعل به ما تفعلونه بالسارق في دينكم. وقد كان من دين ملك مصر - فيما ذكر - أن السارق يضرب ويغرم قيمة المسروق مرتين، فلو قالوا له ذلك، لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلزم به غيرهم، فلذلك قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ ملك مصر، لأنه لم يكن في دينه طريق إلى أخذه، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن إن شاء الله، أخذه بطريق آخر، ويجوز أن يكون متصلاً، والمعنى: إلا أن يهيئ الله سبباً آخر يؤخذ به في دين الملك غير السرقة.

النوع الثاني: أن يلهمه أمراً مباحاً، أو مستحباً، أو واجباً يوصله إلى المقصود الحسن.

فيكون على هذا: إلهامه يوسف ﷺ - أن يفعل ما فعل، هو من كيده سبحانه أيضاً. فيكون قد كاد له نوعي الكيد. ولهذا قال تعالى: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ شَأْنٍ﴾. وفي ذلك تنبيه على أن العلم الدقيق بلطف الحيل الموصلة إلى المقصود الشرعي الذي يحبه الله تعالى ورسوله.. صفة مدح يرفع الله تعالى بها درجة العبد<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

أخبر عن إخوة يوسف أنهم قالوا لما وجدوا الصواع في رحل أخيهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾. فلم يجمعوا بين الأصل والفرع بعلّة ولا دليلها، وإنما ألحقوا أحدهما بالآخر من غير دليل جامع سوى مجرد الشبه الجامع بينه وبين يوسف، فقالوا: هذا مقيس على أخيه، بينهما شبه من وجوه عديدة، وذاك قد سرق فكذلك هذا، وهذا هو الجمع بالشبه الفارغ، والقياس بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوي، وهو قياس فاسد، والتساوي في قرابة الأخوة ليس

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٠٨ - ١١٩).

بعلة للتساوي في السرقة، ولو كانت حقاً، ولا دليل على التساوي فيها، فيكون الجمع لنوع شبه خال عن العلة ودليلها<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].  
لعله إنما قالها عند تلقيه لهم، ويكون دخولهم عليه في منزل اللقاء فقال لهم حيثئذ: ادخلوا مصر إن شاء الله آمين. فهذا محتمل.  
وإن كان إنما قال لهم ذلك بعد دخولهم عليه في دار مملكته، فالمعنى: ادخلوها دخول استيطان واستقرار آمين إن شاء الله<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].  
أخبر أنه يلطف لما يريد، فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس، واسمه «اللطيف» يتضمن: علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: ﴿وَلَيْتَلَطَّفَ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه، وإلقائه في السجن، وبيعه رقيقاً، ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه، وكذبها عليه، وسجنه، منحناً ومصائب، وباطنها نعماً وفتحاً جعلها الله سبباً لسعادته في الدنيا والآخرة.  
ومن هذا الباب ما يبتيلى [الله سبحانه] به عباده من المصائب ويأمرهم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشهوات، هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَاطْرَأَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].  
جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه

(٢) إعلام الموقعين (٤/٩٣).

(١) إعلام الموقعين (١/١٩٨).

شفاء العليل (٣٤).

والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال الفراء وجماعة: (ومن اتبعني) معطوف على الضمير في (أدعو)، يعني: ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو. وهذا قول الكلبي، قال: حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن والموعظة. ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة.

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، ثم يبتدئ بقوله: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾، فيكون الكلام على قوله جملتين، أخبر في أولهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية: بأنه وأتباعه على بصيرة. والقولان متلازمان، فلا يكون الرجل من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى ما دعا إليه. وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة.

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقالات العبد وأجلّها وأفضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء<sup>(٢)</sup>.

وسواء كان المعنى: أنا ومن اتبعني على بصيرة وأنا أدعو إلى الله، أو المعنى: أدعو إلى الله على بصيرة، فالقولان متلازمان، فإنه لا يكون من أتباعه حقاً إلا من دعا على بصيرة، كما كان متبوعه يفعل ﷺ، فهؤلاء خلفاء الرسل حقاً وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علماً وعملاً وهداية وإرشاداً وصبراً وجهاداً، وهؤلاء هم الصديقون، وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر ﷺ<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(٢) مفتاح دار السعادة (١٦٧، ١٦٨).

(١) الفوائد (١٩٦).

(٣) مفتاح دار السعادة (٨٥).

## سورة الرعد

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ أَيْدَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: ﴿أَيْدَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فعجب قولهم كيف ينكرون هذا. وقد خلقوا من تراب، ولم يكونوا شيئاً!

والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. فإنكارهم للبعث وقولهم: ﴿أَيْدَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أعجب. وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان وهو محض إنكار الرب، والكفر به، والجدل لإلهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾

[الرعد: ٨].

قال ابن عباس: ما تغيض الأرحام: ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها، ووافقه على هذا أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبيرة.

وقال مجاهد أيضاً: إذا حاضت المرأة على ولدها؛ كان ذلك نقصاناً من الولد. ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾، قال: إذا زادت على تسعة أشهر كان ذلك تماماً لما نقص من ولدها. وقال أيضاً: الغيض: ما رأت الحامل من الدم في حملها، وهو نقصان من الولد، والزيادة ما زاد على التسعة أشهر وهو تمام النقصان.

(١) مدارج السالكين (١/١٢٦).

وقال الحسن: ما تغيض الأرحام: ما كان من سقط، وما تزدد: المرأة تلد لعشرة أشهر.

وقال عكرمة: تغيض الأرحام: الحيض بعد الحمل. فكل يوم رأت فيه الدم حاملٌ ازداد به في الأيام ظاهراً، فما حاضت يوماً إلا ازدادت في الحمل يوماً.

وقال قتادة: الغيض: السقط، وما تزدد: فوق التسعة أشهر. وقال: سعيد بن جبير: إذا رأت المرأة الدم على الحمل فهو الغيض للولد، فهو نقصان في غذاء الولد وزيادة في الحمل.

تغيض وتزدد: فعلان متعديان مفعولهما محذوف، وهو عائد على «ما» الموصولة، والغيض: النقصان، ومنه غيض الماء.

والتحقيق في معنى الآية: أنه يعلم مدة الحمل، وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى: هل هو ذكر أو أنثى؟

وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله (تعالى)، كما في الصحيح<sup>(١)</sup> عنه ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله». فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه وما ينقص. وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه، كالسقط والتام ورؤية الدم وانقطاعه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لَمْ مَعَقِبْتُمْ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾

[الرعد: ١١].

يعقب بعضهم بعضاً؛ كلما ذهب بدل جاء بدل آخر يشبثونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه، ويعدونهم بكرامة الله ويصبرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد<sup>(٣)</sup>.

□ □ □

(٢) تحفة الودود (٢٢٩، ٢٣٠).

(١) رواه البخاري (٤٦٢٧).

(٣) الجواب الكافي (١٣٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].  
فدلالة لفظها أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على عباده حتى يغيروا طاعته  
بمعصيته<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لَمْ دَعَوْهُ الْحَقُّ﴾ [الرعد: ١٤].  
إنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، فهو أهل أن يعبد وحده، ويدعى  
وحده، ويقصد ويشكر ويحمد، ويحب ويرجى ويخاف، ويتوكل عليه، ويستعان  
به، ويستجار به، ويلجأ إليه، فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده.  
ومن قام بقلبه هذا - معرفة وذوقاً وحالاً - صح له مقام التبتل والتجريد المحض.  
وقد فسر السلف<sup>(٢)</sup> «دعوة الحق»؛ بالتوحيد والإخلاص فيه، والصدق،  
ومرادهم هذا المعنى.

فقال علي عليه السلام، دعوة الحق: التوحيد.  
وقال ابن عباس عليه السلام: «شهادة أن لا إله إلا الله».  
وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله، ودعوة الحق دعوة  
الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَعَّا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

فاحتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم  
عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار، والقهر التام يستلزم الوحدة، فإن الشركة  
تنافي تمام القهر<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا فَاحْتَلَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

(١) الكلام على مسألة السماع (٣٩٧). (٢) راجع: تفسير الطبري (١٢٨/١٣).  
(٣) مدارج السالكين (٢٩/٢، ٣٠). (٤) الصواعق المرسلة (٤٦٥/٢، ٤٦٦).

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

[الرعد: ١٧].

قد ذكر الله المثليين المائي والناري في سورة الرعد، في حق المؤمنين: [ففي] المثل المائي؛ شبه الوحي الذي أنزله بحياة القلوب بالماء الذي أنزله من السماء، وشبه القلوب الحاملة له بالأودية الحاملة للسيل. فقلب كبير يسع علماً عظيماً كواد كبير يسع ماء كثيراً، وقلب صغير يسع علماً قليلاً، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها، كما سالت الأودية بقدرها.

ولما كانت الأودية ومجاري السيول فيها الغناء، ونحوه مما يمر عليه السيل فيحتمله السيل فيطفو على وجه الماء زبداً عالياً يمر عليه متراكباً، ولكن تحته الماء الفرات الذي به حياة الأرض، فيقذف الوادي ذلك الغناء إلى جنبتيه حتى لا يبقى منه شيء، ويبقى الماء الذي تحت الغناء يسقي الله تعالى به الأرض، فيحيي به البلاد والعباد والشجر والدواب، والغناء يذهب جفاء ويطرح على شفير الوادي. فكذلك العلم والإيمان الذي أنزله في القلوب، فاحتملته، فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غناء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة، فطفا في أعلاها، واستقر العلم والإيمان والهدى في جذر القلب، فلا يزال ذلك الغناء والزبد يذهب جفاء، ويزول شيئاً فشيئاً حتى يزول كله، ويبقى العلم النافع والإيمان الخالص في جذر القلب يرده الناس، فيشربون ويسقون ويمرعون.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال<sup>(١)</sup>: «مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء، فسقى الناس وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به؛ فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

فجعل النبي ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات: الطبقة الأولى: ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم الذين

(١) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ، فهؤلاء أتباع الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء فأنبت الكلاً والعشب الكثير، فزكت في نفسها وزكا الناس بها. وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي القوة في أمر الله، والأبصار البصائر في دين الله ﷻ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوى يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه.

فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين والبصر بالتأويل؛ ففجرت من النصوص أنهار العلوم واستنبطت منها كنوزها، ورزقت فيها فهماً خاصاً، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد سئل<sup>(١)</sup>: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس، فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه». فهذا الفهم هو بمنزلة الكلاً والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة.

الطبقة الثانية: فإنها حفظت النصوص وكان همها حفظها وضبطها، فوردها الناس وتلقوها منهم؛ فاستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها، وأتجروا فيها، وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات ووردها كل بحسبه: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُ﴾ [البقرة: ٦٠].

وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي ﷺ<sup>(٢)</sup>: «نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

وهذا عبد الله بن عباس<sup>(٣)</sup> حبر الأمة وترجمان القرآن، مقدار ما سمع من النبي ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثاً الذي يقول فيه: (سمعت ورأيت). وسمع الكثير من الصحابة وبورك في فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علماً وفقهاً.

قال أبو محمد بن حزم: وجمعت فتاويه في سبعة أسفار كبار. وهي بحسب ما بلغ جامعها، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن، بالموضع الذي فاق به الناس وقد سمع كما سمعوا، وحفظ القرآن كما حفظوا،

(١) رواه البخاري (٣٠٤٧).

(٢) حديث صحيح. رواه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٣١).

ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع، فبذر فيها النصوص فأنبتت من كل زوج كريم، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وأين تقع فتاوي ابن عباس وتفسيره واستنباطه من فتاوي أبي هريرة<sup>(١)</sup> وتفسيره، وأبو هريرة أحفظ منه، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق يؤدي الحديث كما سمعه، ويدرسه بالليل درساً فكانت همته مصروفة إلى الحفظ، وبلغ ما حفظه كما سمعه، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط، وتفجير النصوص، وشق الأنهار منها، واستخراج كنوزها، وهكذا الناس بعده قسمان:

قسم حفاظ: معتنون بالضبط والحفظ والأداء كما سمعوا، ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه.

وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص والتفقه فيها.

فالأول: «كأبي زرعة» و«أبي حاتم» و«ابن دارة»، وقبلهم ك«بندار محمد بن بشار» و«عمرو الناقد» و«عبد الرزاق»، وقبلهم ك«محمد بن جعفر غندر» و«سعيد بن أبي عروبة»، وغيرهم من أهل الحفظ والإنقان والضبط لما سمعوه من غير استنباط وتصرف واستخراج الأحكام من ألفاظ النصوص.

والقسم الثاني: ك«مالك» و«الشافعي» و«الأوزاعي» و«إسحاق» و«الإمام أحمد بن حنبل» و«البخاري» و«أبي داود» و«محمد بن نصر المروزي»، وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلى الرواية.

فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ، وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأساً.

وأما الطائفة الثالثة: وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله، ولم يرفعوا به رأساً، فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية.

فالطبقة الأولى: أهل رواية ودراية.

والطبقة الثانية: أهل رواية ورعاية ولهم نصيب من الدراية، بل حظهم من الرواية أوفر.

والطبقة الثالثة: الأشقياء، لا رواية ولا دراية ولا رعاية: ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. فهم الذين يضيّقون الديار ويغلون الأسعار، إن همة

(١) انظر: سيرته الطاهرة ومناقبه العالية ﷺ في سير أعلام النبلاء (٥٧٨/٢).

أحدهم إلا بطنه وفرجه، فإن ترقى همته كان همه مع ذلك لباسه وزينته، فإن ترقى همته فوق ذلك كان همه في الرياسة والانتصار للنفس.

ثم ضرب ﷺ مثلاً ثانياً، وهو المثل الناري فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهَا﴾.

وهذا كالحديد والنحاس والفضة والذهب وغيرها، فإنها تدخل الكير لتمحس وتخلص من الخبث، فيخرج خبثها فيرمى به ويطرح، ويبقى خالصها فهو الذي ينفع الناس.

ولما ضرب الله ﷺ هذين المثلين ذكر حكم من استجاب له ورفع بهداه رأساً، وحكم من لم يستجب له، ولم يرفع بهداه رأساً، فقال:

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَنِجْسٌ لِّلْمَآءِ﴾ [الرعد: ١٨].

والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور، والموت حيث الظلمة، فحياة الوجودين الروحي والجسمي بالنور، وهو مادة الحياة، كما أنه مادة الإضاءة، فلا حياة بدونه، كما لا إضاءة بدونه، وكما أنه به حياة القلب فيه انفساحه وانسراحه وسعته، كما في الترمذي<sup>(١)</sup> عن النبي ﷺ: «إذا دخل النور القلب انفسخ وانشرح»،

(١) هو «الحكيم الترمذي» صاحب «نوادير الأصول»، وهو عنده عن ابن عمر، دون سند (١٢٥، ١٢٦)، والحديث ضعيف. رواه ابن جرير (٩٨/١٢)، وأشار الشيخ محمود شاكر لضعفه بأرقام (١٣٨٥٢ - ١٣٨٥٤) ورقم (١٣٨٥٦)، وبين أن مدار الخبر على «أبي جعفر»، وهو «عبد الله بن المسور» ضعيف كذاب.

انظر: ميزان الاعتدال (٥٠٤/٢)، ورواه ابن المبارك في الزهد (١٠٦، ١٠٧)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٣٠٥/١)، والبغوي في تفسيره دون سند (١٨٠/٢)، وأشار السيوطي في الدرر إلى أنه رواه: «.. عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي جعفر...» (٤/٣٥٤)، وفيه بيان من رواه غيرهم.

وقال الحافظ ابن كثير بعد ذكر لبعض روايات الحديث: «.. وهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً، والله أعلم»، تفسير ابن كثير (١٨٩/٢) عند تفسيره الآية رقم (١٢٥) من سورة الأنعام، خطأً ذلك الشيخ محمود شاكر حفظه الله، لحال «أبي جعفر الهاشمي الكذاب» (٩٩/١٢)، وانظر لزماً: ص (٣٤) من رسالة «القسطاس في تصحيح حديث الأكياس»، لأخي الشيخ «محمد عمرو» حفظه الله تعالى.

قالوا: وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله».

ونور العبد هو الذي يصعد عمله وكلمه إلى الله تعالى، فإن الله تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلا الطيب، وهو نور ومصدره عن النور، ولا من العمل إلا الصالح، ولا من الأرواح إلا الطيبة، وهي أرواح المؤمنين التي استنارت بالنور الذي أنزله على رسوله ﷺ والملائكة الذين خلقوا من نور، كما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ<sup>(١)</sup> قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الشياطين من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

فلما كانت مادة الملائكة من نور، كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى، وكذلك أرواح المؤمنين هي التي تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها، فيفتح لها باب السماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، إلى أن ينتهي بها إلى السماء السابعة، فتوقف بين يدي الله ﷻ، ثم يأمر أن يكتب كتابه في أهل عليين. فلما كانت هذه الروح روحاً زاكية طيبة نيرة مشرقة صعدت إلى الله ﷻ مع الملائكة.

وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة فإنها لا تفتح لها أبواب السماء، ولا تصعد إلى الله تعالى، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها وعنصرها؛ لأنها أرضية سفلية، والأولى علوية سمائية، فرجعت كل روح إلى عنصرها وما هي منه، وهذا مبين في حديث<sup>(٢)</sup> البراء بن عازب الطويل الذي رواه الإمام أحمد وأبو عوانة الإسفرائيني في صحيحه والحاكم وغيرهم، وهو حديث صحيح<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَفَنُيَعْلَمُ أَنَّآ أَنزَلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]. وهذه شهادة من الله على عمى هؤلاء، وهي موافقة لشهادتهم على أنفسهم بالحيرة والشك، وشهادة المؤمنين عليهم<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد ﷺ (٢٨٧/٤). رواه أبو داود (٨٨/١٣) في السنة، باب: المسألة في القبر وعذاب القبر، والحاكم (٣٧/١)، وصححه على شرط الشيخين.

(٣) الوابل الصيب (٨٢ - ٨٧). (٤) الصواعق المرسلة (٨٥١/٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَذَكِّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۖ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ۖ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۖ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيِّئَةً أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۖ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٢].

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه، وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه، وبينهم وبين خلقه.

ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل.

ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه، وحق الله وحق خلقه:

فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له، والقيام بطاعته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وحبه، وخوفه، ورجائه والتوبة إليه، والاستكانة له، والخضوع والذلة له، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها، والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها، فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد، وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل، وأمر أن توصل ما بيننا وبين رسوله ﷺ بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء، والرضا لحكمه والتسليم له، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين، صلوات الله وسلامه عليه، فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله.

وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين؛ بالبر والصلة، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام، ذلك مما أمر به أن يوصل. وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات؛ بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف. وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء؛ بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسي ولا نكلفهم فوق طاقتهم.

وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه، وحفظه في نفسه وماله وأهله، بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا.

وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر.

وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس؛ بأن نأتي إليهم بما نحب أن يأتوه إلينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم، ونستحي منهم، كما يستحي الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه.

فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل .

ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلاة، وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله، إلا بخشيته ومتى ترحلت الخشية من القلب؛ انقطعت هذه الوصلة .

ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد، هو أخية ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه، وهو الصبر، فقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه .

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر، وهي الصلاة، فقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة، فقال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] . وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] .

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سراً وعلانية، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة، وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم .

ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا، أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يدرؤون بالحسنة السيئة؛ فيحسنون إلى من يسيء إليهم، فقال: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، وقد فُسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده . كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] .

وقال النبي ﷺ<sup>(١)</sup>: «أتبع السيئة الحسنة تمحها» . والتحقيق أن الآية تعم النوعين .

والمقصود: أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها: اشتملت على فعل المأمور، وترك المحذور، والصبر على المقدور<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] .

(١) حديث حسن . رواه الإمام أحمد رحمه الله في مواضع منها: (١٥٣/٥ و ٢٢٨) . ورواه الترمذي (١٩٨٧)، والدارمي (٢٧٩١)، وحسنه الألباني .

(٢) عدة الصابرين (٢٩ - ٣١) .

«الطمأنينة» سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه، ومنه الأثر المعروف «الصدق طمأنينة والكذب ريبة»<sup>(١)</sup>، أي: الصدق يطمئن إليه قلب السامع، ويجد عنده سكوناً إليه، والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً، ومنه قوله ﷺ: «البر ما اطمأن إليه القلب»<sup>(٢)</sup>، أي: سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه.

وفي «ذكر الله» هاهنا قولان:

أحدهما: إنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق، فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله، ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه: فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين، وإذا حلف المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنت. ويروى هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنهم من قال: بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه، يسكن إليه قلبه ويطمئن.

والقول الثاني: إن ذكر الله هاهنا القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، به طمأنينة قلوب المؤمنين.

فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به، وهذا القول هو المختار.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

والصحيح أن ذكره الذي أنزله على رسوله - وهو كتابه - من أعرض عنه قَيِّضَ له شيطاناً يُضِلُّه ويصده عن السبيل، وهو يحسب أنه على هدى.

(١) جزء من حديث صحيح عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، وأوله: «دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ فَإِنَّ الصَّدْقَ طَمَأْنِينَةٌ...»، رواه الترمذي (٢٥١٨).

(٢) صحيح، من حديث «أبي ثعلبة الخشني» رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بما يحل وما يحرم عليّ، فصعد في البصر وصوبه، وقال: «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب...» الحديث.

رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (١٩٤/٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/٢١٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٧٥): «وفي الصحيح طرف من أوله ورجاله ثقات». وصححه الألباني رقم (٢٨٧٨) صحيح الجامع.

وكذلك القولان أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

والصحيح أن ذكره الذي أنزله على رسوله - وهو كتابه - ولهذا يقول المعرض عنه: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُؤَسِّى ﴿[طه: ١٢٥ - ١٢٦].

وأما تأويل من تأوله على الحلف: ففي غاية البعد عن المقصود، فإن ذكر الله بالحلف يجري على لسان الصادق والكاذب، والبر والفاجر. والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلى الصادق ولو لم يحلف، ولا تطمئن قلوبهم إلى من يرتابون فيه ولو حلف.

وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب<sup>(١)</sup>.



## سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۖ﴾ [إبراهيم: ٥].

وقد فسرنا «أيام الله» بنعمه، وفسرنا بنقمه من أهل الكفر والمعاصي.  
فالأول: تفسير ابن عباس، وأبي بن كعب، ومجاهد.  
والثاني: تفسير مقاتل<sup>(١)</sup>.

والصواب: أن أيامه تعم النوعين، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه التي ساقها على أوليائه؛ وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها «أياماً» لأنها ظرف لها، تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب، وأيام الناس، أي: بالوقائع التي كانت في تلك الأيام.

فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر، وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض، وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء، فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة، والعبد إذا اتبع هواه؛ فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكير أو بالعظة؟<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

(١) راجع: تفسير الطبري (١٣/١٨٢). (٢) مدارج السالكين (١/٤٤٨، ٤٤٩).

والذكر رأس الشكر، والشكر جلاب النعم وموجب للمزيد، قال بعض السلف رحمة الله عليهم: ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن ذكرك<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

أي: أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول، فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]. فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً، وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان، فصاحب الحق - لعلمه بالحق ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره - مضطر إلى توكله على الله، ولا يجد بداً من توكله، فإن التوكل يجمع أصليين: علم القلب، وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه، بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه فهو لنفسه، فيهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لا بد فيه من العلم. وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

فسبّه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برما دمرت عليه ريح

(٢) مدارج السالكين (١/٦٠).

(١) الوابل الصيب (١٠٠).

(٣) طريق الهجرتين (٢٣٩).

شديدة في يوم عاصف، فشبّه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلاً كالهباء المنثور؛ لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان؛ وكونها لغير الله ﷻ وعلى غير أمره برماد طيرته الريح العاصف، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه، فلذلك قال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾، لا يقدرُونَ يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثراً من ثواب ولا فائدة نافعة، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشرعه.

والأعمال أربعة: فواحد مقبول، وثلاثة مردودة.

فالمقبول: الخالص الصواب، فالخالص: أن يكون لله لا لغيره، والصواب أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله.

والثلاثة المردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم، وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله، وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة ناراً وعذاباً، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رماداً، فهم وأعمالهم، وما يعبدون من دون الله وقود النار<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

فشبّه ﷻ الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبةثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة ثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها ثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضٍ لله فهو ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كلمة طيبة: شهادة أن لا إله إلا الله،

(١) إعلام الموقعين (١/٢٢٣، ٢٢٤).

كشجرة طيبة: وهو المؤمن. أصلها ثابت قول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء<sup>(١)</sup>.

وقال الربيع بن أنس: كلمة طيبة: هذا مثل الإيمان، فالإيمان: الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه، وفرعها في السماء: خشية الله.

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علواً، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء.

ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يشبها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سُبُل ربه دُلاً، غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلاً، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى.

وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلاً كثيراً طيباً، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحاً كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفاً بمعناها وحقيقتها نفياً

(١) أخرجه الطبري (٢٠٣/١٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٣٥)، والطبراني في الدعاء (١٥٢٧/٣).

وإثباتاً، متصفاً بموجبها، قائماً قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة ثمرتها كل وقت.

ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح<sup>(١)</sup>.

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، يعني بالشجرة الطيبة: المؤمن. ويعني بالأصل الثابت في الأرض، والفرع في السماء، يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم، فيبلغ عمله وقوله السماء، وهو في الأرض.

وقال عطية العوفي في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلام طيب، وعمل صالح يصعد إلى الله. وقال الربيع بن أنس: أصلها ثابت وفرعها في السماء، قال: ذلك المؤمن، ضرب مثله في الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، أصلها ثابت، قال: أصل عمله ثابت في الأرض، وفرعها في السماء، قال: ذكره في السماء. ولا اختلاف بين القولين.

والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مُشَبَّهَةٌ به، وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة، فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك. ومن قال من السلف: إنها شجرة في الجنة، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة.

□ □ □

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علم الرب الذي تكلم به، وحكمته.

فمن ذلك: أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، كذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المشبه المشبه به، فعروقه: العلم، والمعرفة، واليقين، وساقها: الإخلاص، وفروعها: الأعمال، وثمرتها: ما توجه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكية، والسَّمَت

(١) صحيح البخاري (١/١٧٥) في العلم، باب: قول المحدث: «حدثنا»..

الصالح، والهدى، والدّلّ المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور.

فإذا كان العلم صحيحاً مطابقاً لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقاد مطابقاً لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر، والهدى والدّلّ والسّمّت مشابه لهذه الأصول مناسب لها؛ علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وإذا كان الأمر بالعكس، علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة، التي اجثّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنمّيها، فإذا قطع عنها السقي أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكير، وبالتفكير على التذكر، وإلا أوشكت أن تيبس.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم»<sup>(١)</sup>. وبالجملة: فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك.

ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته، وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده، أن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة، أنه لا بد أن يخالطه دغل ونبت غريب، ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه ونقاها وقلعه، كمل الغرس والزرع، واستوى، وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب، وأذكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغراس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرتة وقلته.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به؛ فإنه يفوته ربح كبير، وهو لا يشعر.

(١) لم أجده بعد بحث في مسند الإمام أحمد رحمه الله، ولم أر من أشار إلى أنه في المسند من مخرجي الحديث، وهو حديث صحيح.

أخرجه الحاكم (٤/١)، وقال: رواه مصريون ثقات، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، وإسناده حسن. مجمع الزوائد (٥٢/١).

فالمؤمن دائماً سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر، بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله، لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله، ومن يختص برحمته.

□ □ □

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة<sup>(١)</sup>، فشبها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار، فلا عرق ثابت، ولا فرع عال، ولا ثمرة زاكية، فلا ظل، ولا جنى، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مُغْدِق، ولا أعلاها مُونِق، ولا جنى لها، ولا تعلق، بل تُعْلَى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكتبهم؛ وجده كذلك، فالحسرة: الوقوف معه، والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه، [الذي هو كتاب الرب سبحانه].

قال الضحاك: ضرب الله مثلاً للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيراً، ولا يقوله، ولا يجعل له فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: ومثل كلمة خبيثة: وهي الشرك، كشجرة خبيثة: يعني: الكافر، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر، ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً، فلا يقبل عمل المشرك، ولا

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في السماء، يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلاً لقي رجلاً من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها، حتى يوافي بها القيامة. وقوله: ﴿أَجْتَنَّتْ﴾ أي: استوصلت من فوق الأرض.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين: أصحاب الكلم الطيب، وأصحاب الكلم الخبيث، فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين، وهم المشركون عن القول الثابت فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وتحت هذه الآية كنز عظيم، من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتنائه وأنفق منه، فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم.

وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته، وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]. وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت. ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أمر به العبد، فبهما

يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ [النساء: ٦٦].  
فأثبت الناس قلباً: أثبتهم قولاً.

والقول الثابت: هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.  
فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له.

وأثبت القول: كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلباً، والكاذب من أمهّن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلوناً، وأقلهم ثباتاً، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الاختبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئاً، إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل.

فما منح العبد منحة أفضل من منحه القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم، ويوم معادهم، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ<sup>(١)</sup>: «إن هذه الآية نزلت في عذاب القبر»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

سبحان من لم يجعل لأحد معرفة نعمه، إلا العلم بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل لأحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه، فجعله إيماناً علماً منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾

[إبراهيم: ٣٥].

[جاء هذا على لسان إبراهيم ﷺ].

(١) رواه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١). (٢) إلام الموقعين (١/٢٣٠، ٢٣١).

(٣) عدة الصابرين (١٤٥).

فها هنا أمران: تجنب عبادتها واجتنابه، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها؛ ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم والتجنب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام؛ ولأنه سمع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء، ودعاء الطلب، وسمع الرب تبارك وتعالى له، إثابته على الثناء، وإجابته للطلب فهو سمع لهذا وهذا<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

قيل: جزاء مكرهم عنده، فمكر بهم، كما مكروا برسله. ومكره تعالى بهم إنما كان بسبب مكرهم، فهو مكرهم عاد عليهم وكيدهم عاد عليهم. وسمي جزاء المكر مكرراً، وجزاء الكيد كيداً، تنبيهاً على أن الجزاء من جنس العمل<sup>(٣)</sup>.

\*\*\*

(٢) بدائع الفوائد (٤/٣).

(١) شفاء العليل (٥٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (٥٧٩، ٥٨٠).

## سُورَةُ الْحَجَرِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (١١) كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١١ - ١٣].

وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين، هذا أحدهما.

والثاني: في سورة الشعراء في قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجِينَ﴾ (١٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ١٩٨ - ٢٠١].

قال ابن عباس: سلك الشرك في قلوب المكذبين كما سلك الخرزة في الخيط، وقال أبو إسحاق: أي: كما فعل بالمجرمين الذي استهزؤوا بمن تقدم من الرسل، كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين.

واختلفوا في مفسر الضمير في قوله: نسلكه.

فقال ابن عباس: سلكنا الشرك، وهو قول الحسن.

وقال الزجاج وغيره: هو الضلال.

وقال الربيع: يعني: الاستهزاء.

وقال الفراء: التكذيب.

وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد: التكذيب والاستهزاء والشرك، كل ذلك فعلهم حقيقة، وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم.

وعندي في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿سَلَكْنَاهُ﴾، فلا يصح أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء؛ فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين، والظاهر اتحادهما.

فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم، وهو القرآن.

فإن قيل: فما معنى سلكه إياه في قلوبهم وهم ينكرونه؟  
 قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي: سلكناه غير مؤمنين به، فدخل في قلوبهم مكذباً به، كما دخل في قلوب المؤمنين مصداقاً به.  
 وهذا مراد من قال: إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال، ولكن فسر الآية بالمعنى، فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به، فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم، فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به؟ قيل: لتقوم عليهم بذلك حجة الله، فدخل في قلوبهم، وعلموا أنه حق وكذبوا به، فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدق به، مؤمن به، مرضي به، وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفراً من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه.  
 فتأمل أنه من فقه التفسير، والله الموفق للصواب<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [الحجر: ٢١].

[هذا النص الكريم] متضمن لکنز من الكنوز وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه.

وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. متضمن لکنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به، فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهدت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب.

وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبه عناء وعذاب، وكل عمل لا يُراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه.  
 فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾، واجتمع ما يراد له في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾. فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

(١) شفاء العليل (٦١، ٦٢).

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يُحب ويُراد فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره، بطل عليه ذلك، وزال عنه، وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه، ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

قال الحسن: معناه: صراط إلى مستقيم.

وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة «على» مقام «إلى».

والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف، أي: صراط موصل إليّ.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يرجع على شيء.

وهذا مثل قول الحسن وأبين منه، وهو من أصح ما قيل في الآية.

وقيل: ﴿عَلَيَّ﴾ فيه للوجوب، أي: علي بيانه وتعريفه والدلالة عليه، والقولان نظير القولين في آية النحل، وهي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]. والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر، أن السبيل القاصد - وهو المستقيم المعتدل - يرجع إلى الله ويوصل إليه، قال طُفَيْل الغنوي:

مضوا سلفاً قَصْدُ السَّبِيلِ عَلَيْهِمْ      وصرف المنايا بالرجال تشقُّبُ

أي: ممرنا عليهم، وإليهم وصلونا. وقال الآخر:

فهن المنايا: أيُّ وادٍ سَلَكَتُهُ      عليها طريقي، أو علي طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء لا أداة

«على» التي هي للوجوب، ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾

﴿ثُمَّ لَنْ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [القمان: ٢٣].

وقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا جَمْعُهُمْ وَقَوْلُهُمْ﴾ [القيامة: ١٧]، وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى

اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. ونظائر ذلك.

قيل: في أداة ﴿عَلَى﴾ سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]. وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]. والله ﷻ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة «على» على هذا المعنى ما ليس في أداة «إلى»، فتأمل، فإنه سر بديع. فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضاً، وكيف يكون مستعنياً على الحق وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة على ما يدل على علوه وثبوت واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة في الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدنسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رِيبِهِمْ يَرْذَلُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومُوا وَكُفُّوا فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]. وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمْرِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]. ﴿وَلِيَّائِهِمْ لَقِيَٰ شَكٌّ مِّنْهُ مُرِيبٌ﴾ [هود: ١١٠]. وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلِنَّا أَوْ لِيَّائِكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤]. فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

□ □ □

وفي قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾ قول ثالث وهو قول الكسائي: إنه على التهديد والوعيد نظير قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلِرَصَادٍ﴾ [الفجر: ١٤]، كما يقال: طريقك عليّ، وممرك عليّ، لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك ولا معجز، والسياق يأبى هذا ولا يناسبه لمن تأمله، فإنه قاله مجيباً لإبليس الذي قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم ولا طريق لي عليهم. فقرر الله ﷻ ذلك أتم التقرير، وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم، فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط؛ لأنه صراط عليّ، ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط ولا الحوم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله، فلا يصل عدو الله إلى أهله.

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل، ولينظر إلى هذا المعنى، ويوازن بينه وبين القولين الآخرين، أيهما أليق بالآيتين وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف. وأما تشبيه الكسائي له بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلِرَصَادٍ﴾ [الفجر: ١٤]، فلا يخفى

الفرق بينهما سياقاً ودلالة، فتأمل، ولا يقال في التهديد: هذا صراط مستقيم عليّ، لمن لا يسلكه، وليست سبيل المهتد مستقيمة فهو غير مهتد بصراط الله المستقيم، وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله فلا يستقيم هذا القول البتة.

□ □ □

وأما من فسره بالوجوب، أي: عليّ بيان استقامته والدلالة عليه، فالمعنى صحيح، لكن في كونه هو المراد بالآية نظر؛ لأنه حذف في غير موضع الدلالة، ولم يؤلف الحذف المذكور؛ ليكون مدلولاً عليه إذا حذف، بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة فإنه حذف مألوف معروف حتى إنه لا يذكر البتة، فإذا قلت: له درهم عليّ، كان الحذف معروفاً مألوفاً، فلو أردت: عليّ نقده، أو عليّ وزنه وحفظه، ونحو ذلك، وحذفت؛ لم يسُخ، وهو نظير: عليّ بيانه؛ المقدر في الآية، مع أن الذي قاله السلف أليق بالسياق، وأجل المعنيين وأكبرهما<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. أخبر عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم، وفي الصحيحين: «أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ﷺ، ستون ذراعاً في السماء»<sup>(٢)</sup>. والرواية على خلق، بفتح الخاء وسكون اللام، والأخلاق كما تكون جمعاً للخلق - بالضم - فهي جمع للخلق - بالفتح -، والمراد تساويهم في الطول والعرض والسن، وإن تفاوتوا في الحسن والجمال.

وأما أخلاقهم وقلوبهم، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «أول زمرة تلج الجنة»<sup>(٣)</sup>، وفيه: «لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشية»<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتٍ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَقْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٠ - ٧٢].

أكثر المفسرين من السلف والخلف، بل لا يعرف عن السلف نزاعاً أن هذا قسم من الله بحياة رسوله ﷺ، وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب ﷻ بحياته، وهذه مزية لا تعرف لغيره.

(١) مدارج السالكين (١/ ١٥ - ١٨). (٢) رواه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).

(٣) رواه البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤). (٤) حادي الأرواح (١١٠).

ولم يوافق الزمخشري<sup>(١)</sup> على ذلك فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط، وأنه من قول الملائكة، فقال: هو على إرادة القول، أي: قالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وليس في اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين، بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على ما فهمه السلف، لا أهل التعطيل والاعتزال.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لعمرك، أي: وحياتك، قال: وما أقسم الله بحياة نبي غيره. والعمر والعمر واحد إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف؛ لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم، وأيضاً فإن العمر حياة مخصوصة، فهو عمر شريف عظيم، أهل أن يقسم به؛ لمزيبته على كل عمر من أعمار بني آدم، ولا ريب أن عمره وحياته ﷺ من أعظم النعم والآيات فهو أهل أن يقسم به، والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات.

وقوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾، أي: يتحIRON، وإنما وصف الله للوطية بالسكرة؛ لأن سكرة العشق مثل سكرة الخمرة، كما قال القائل:

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

وهم المتفرسون الذين يأخذون بالسيما، وهي العلامة، ويقال: توسمت فيك كذا، أي: تفرسته، كأنها أخذت من السيما، وهي فعلاً من السمة، وهي العلامة. وقال تعالى: ﴿يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءُ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفي الترمذي مرفوعاً<sup>(٣)</sup>: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ

(١) وذكر الزمخشري القول الثاني وكأنه أشار لضعفه، فقال: (وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه أقسم بحياته، وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له..) الكشاف (٣١٨، ٣١٧/٢). وانظر: تفسير الطبري (٤٤/١٤).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (٤٢٨ - ٤٣٠).

(٣) رواه الترمذي (٢٧٨/٥، ٢٧٩) في تفسير القرآن، سورة الحجر.

وقال: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، وقد روي عن بعض أهل العلم، وضعفه من جميع طرقه الألباني، كما في الضعيفة برقم (١٨٢١). فانظره مفصلاً، وقد يغني عنه قوله ﷺ: «إن الله عبداً يعرفون الناس بالتوسم». صححه الألباني برقم (١٦٩٣) الصحيحة.

فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿١﴾، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قال مجاهد رحمته الله: المتفرسين، وقال ابن عباس رحمتهما الله: للناظرين.

وقال قتادة: للمعتبرين.

وقال مقاتل: للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم؛ أورثه فراسة وعبرة وفكرة.

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

فالأول: فراسة النظر والعين.

والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله يقول: علّق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط، بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم، فقال: ﴿وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾. وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه.

واللحن<sup>(٢)</sup> ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة، ومنه الحديث: «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»<sup>(٣)</sup>.

والثاني: التعريض والإشارة، وهو قريب من الكناية.

ومنه قول الشاعر<sup>(٤)</sup>:

وَحَدِيثُ أَلْذَّةُ هُوَ مِمَّا يَشْتَهِي السَّامِعُونَ يُوْزَنُ وَزْنًا  
مَنْطِقُ صَائِبٍ وَتَلَحُّنُ أَحْيَانًا وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا

(١) بدائع الفوائد (٣/١١٨، ١١٩).

(٢) انظر: لسان العرب (٧/٤٠١٣)، مادة: لحن.

(٣) رواه البخاري (٥/٣٤٠) في الشهادات، باب: كيف يستحلف، ومسلم (٤/٣٠٢) في

الأفضية، باب: حكم الحاكم لا يغير الباطن.

(٤) البيتان في الأمالي، «لأبي علي القالي» (١/٥)، والأول جاء بلفظ:

وَحَدِيثُ أَلْذَّةُ هُوَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ النَفُوسُ يُوْزَنُ وَزْنًا

وراجع: اللسان (٧/٤٠١٤)، وغريب الحديث للخطابي (٢/٥٣٦).

والثالث: فساد المنطق قي الإعراب، وحقيقته: تغير الكلام عن وجهه، إما إلى خطأ، وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم، فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه، أقرب من معرفته بسيماء وما في وجهه، فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية.

والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر والسماع، وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال <sup>(١)</sup>: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله - ثم تلا قوله تعالى -: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾» <sup>(٢)</sup>.

□ □ □

وسمي المتفرس متوسماً؛ لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب، فيستدل بالعيان على الإيمان؛ ولهذا خصَّ الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء؛ لأنهم يستدلون بما يشاهدونه منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل، من الأمر والنهي، والثواب والعقاب.

وقد ألهم الله ذلك لآدم، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء، وبنوه هم نسخته وخلفاؤه، فكل قلب فهو قابل لذلك وهو فيه بالقوة، وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة، وبعث الله رسله مذكِّرين ومنبهين، ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحي والإيمان، فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد فيصير نوراً على نور، فتقوى البصيرة، ويعظم النور، ويدوم بزيادة مادته ودوامها، ولا يزال في تزايد حتى يُرى على الوجه والجوارح، والكلام والأعمال.

ومن لم يقبل هدى الله، ولم يرفع به رأساً دخل قلبه في الغلاف والأكنة، فأظلم، وعمي عن البصيرة، فحجبت عنه حقائق الإيمان، فيرى الحق باطلاً، والباطل حقاً، والرشد غيماً، والغي رشداً، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. و(الرين) و(الران) هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانقياد له.

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧).

(٢) مدارج السالكين (٢/٤٨٢، ٤٨٣).

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣].  
قال غير واحد من السلف: هو عن قول: «لا إله إلا الله».  
وهذا حق، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها،  
فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها.  
قال أبو العالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟  
وماذا أجبتم المرسلين؟

فالسؤال عن: ماذا كانوا يعبدون، هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عن: ماذا  
أجابوا المرسلين، سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها، هل سلكوها وأجابوا  
الرسول لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كله إليها<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].  
لما نزلت هذه الآية صدع ﷺ بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله  
الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن  
والإنس.

ولما صدع بأمر الله وصرح لقومه بالدعوة، وناداهم بسبب آلهتهم، وعيب دينهم،  
اشتد أذاهم له ولمن استجاب له من أصحابه، ونالوه، ونالوهم بأنواع الأذى،  
وهذه سنة الله في خلقه<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].  
وهو الموت بإجماع أهل العلم كلهم، قال الحسن: لم يجعل الله لعبادة  
المؤمنين أجلاً دون الموت<sup>(٤)</sup>.

\*\*\*

(١) مدارج السالكين (١/١٣٠).

(٢) طريق الهجرتين (٢٩٧).

(٣) زاد المعاد (٢/١٠٨).

(٤) مدارج السالكين (٣/٣١٦).

## سُورَةُ النَّحْلِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنْهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

تطلق الروح على القرآن الذي أوحاه تعالى إلى رسوله.

وسمى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونها لا تنفع صاحبها ألبتة، بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة. وسميت الروح روحاً لأن بها حياة البدن<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ [النحل: ٩].

أي: ومن السبيل جائز عن القصد وهي سبيل الغي<sup>(٢)</sup>.

[وانظر تفسير الآية (٤١) من سورة الحجر (١٠٢/٢)].

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوِّنَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

وقال في هذه السورة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال فيها عن خليله: ﴿وَمَا آتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢].

فقد تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع،

فإنها سورة النعم التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه بما لا يدرك تفاوته، وإن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعماً أخرى، ثم في الآخرة يوفيههم أجور أعمالهم تمام التوفية<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) لِبَيْنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨ - ٣٩].

ذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثه الأموات بعدما أماتهم: إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم. الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذباً، وأنه كان على باطل، وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افتراءه وكذبه وبهتانه، فيخزيه ذلك أعظم خزي<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]. أي: أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور، والذكر هاهنا: الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله ﷺ وهما التوراة والإنجيل<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ سَجْدٌ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ قُوَّتِهِ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠]. أخبر - سبحانه - عن سجود جميع المخلوقات، فأخبر عن إيمانهم بعلوه وفوقيته وخضوعهم له بالسجود تعظيماً وإجلالاً<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(٢) بدائع الفوائد (٤/١٦١).

(٤) كتاب الصلاة (١٨٠).

(١) إعلام الموقعين (٢/١٧٢).

(٣) شفاء العليل (٣٩).

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

وصف الله سبحانه نفسه [في هذه الآية] بأن له المثل الأعلى .  
وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركون وأربابهم.

وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده؛ ولهذا كان المثل الأعلى وهو أفعّل تفضيل، أي: أعلى من غيره، فكيف يكون أعلى وهو عدم محض، ونفي صرف، وأي مثل أدنى من هذا؟! تعالى الله عن قول المعطلين علواً كبيراً.

فمثل السوء لعدام صفات الكمال؛ ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده، وكلامه، وحكمته؛ لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها [كان] كاملاً، وهي الإيمان، والعلم، والمعرفة، واليقين، والعبادة لله، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والصبر، والرضا، والشكر، وغير ذلك من الصفات، التي اتصف بها من آمن بالآخرة.

فلما سلبت تلك الصفات عنهم، وهي صفات كمال؛ صار لهم مثل السوء .  
فمن سلب صفات الكمال عن الله، وعلوه على خلقه، وكلامه، وعلمه، وقدرته، ومشيتته، وحياته، وسائر ما وصف به نفسه، فقد جعل له مثل السوء ونزّهه عن المثل الأعلى، فإن مثل السوء هو العدم، وما يستلزمه، وضده المثل الأعلى وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان أعلى من غيره، ولما كان الرب تعالى هو الأعلى، ووجهه الأعلى، وكلامه الأعلى، وسمعه الأعلى وبصره وسائر صفاته علواً؛ كان له المثل الأعلى، وكان أحق به من كل ما سواه.

بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان؛ لأنهما إن تكافأ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافأ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده، ويستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى، مثل، أو نظير.

وهذا برهان قاطع على إثبات صفات الكمال وعلى استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور، والقوة.

ونظير هذا القهر المطلق، مع الوحدة، فإنهما متلازمان فلا يكون القهار إلا واحداً، إذ لو كان معه كفؤ له؛ فإن لم يقهره لم يكن قهاراً على الإطلاق، وإن قهره لم يكن كفؤاً، وكان القهار واحداً، فتأمل كيف كان قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]، من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه.

□ □ □

فإن قلت: قد فهمت هذا وعرفته، فما حقيقة المثل الأعلى؟. قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين<sup>(١)</sup>، واستشكلوا قول السلف فيه، فإن ابن عباس وغيره قالوا: ﴿مَثَلُ السَّوِّءِ﴾ العذاب والنار ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال قتادة: هو الإخلاص والتوحيد.

وقال الواحدي: هذا قول المفسرين في هذه الآية، ولا أدري لم قيل للعذاب: مثل السوء، وللإخلاص: المثل الأعلى؟ قال: وقال قوم: المثل السوء، الصفة السوء من احتياجهم إلى الولد، وكراحتهم للإناث، خوف العيلة، والعار، والله المثل الأعلى، الصفة العليا من تنزهه وبرأته عن الولد، قال: وهذا قول صحيح، فالمثل كثيراً يرد بمعنى: الصفة، قاله جماعة من المتقدمين.

وقال ابن كيسان: مثل السوء ما ضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال، والمثل الأعلى نحو قوله: ﴿اللَّهُ تَوْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]. وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾. نحو قوله: هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره.

□ □ □

قلت: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فهاهنا أربعة أمور:

الأول: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها، وهذا معنى قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/٣٧٣٥). (٢) تفسير الطبري (١٤/١٢٥).

والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكره من معرفته وذكره ومحبه وإجلاله وتعظيمه، وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه، بل يختص به في قلوبهم كما اختص في ذاته. وهذا معنى قول من قال من المفسرين: أهل السماء يعظمونه ويحبونه ويعبدونه، وأهل الأرض يعظمونه ويجلوونه، وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من عصاه، وجحد صفاته من جحدها فكل أهل الأرض معظمون له، مجلون له، خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجبروته، قال تعالى: ﴿بَلْ لَّمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَانِئُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]. فلست تجد أحداً من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره، وأكمل وأعظم من كل سواه.

الثالث: ذكر صفاته وتنزيهاها عن النقائص والعيوب والتمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل، كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

فعبارات السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها، وقد ضرب الله سبحانه مثل السوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبٌ مِّثْلُ مَا اسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] <sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

هل الضمير في (فيه) راجع إلى الشراب، أو راجع إلى القرآن؟ على قولين:

الصحيح: رجوعه إلى الشراب، وهو قول ابن مسعود، وابن عباس والحسن، وقتادة، والأكثرين، فإنه هو المذكور؛ والكلام سيق لأجله، ولا ذكر للقرآن في الآية، وهذا الحديث الصحيح وهو قوله: «صدق الله» <sup>(٢)</sup> كالصرح فيه، والله تعالى أعلم <sup>(٣)</sup>.

(١) الصواعق المرسله (٣/ ١٠٣٠ - ١٠٣٦).

(٢) يشير للحديث الصحيح: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: «اسقه عسلاً»، فقال له في المرة الثالثة: «فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً، فسقاه، فبرأ»، رواه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧).

(٣) زاد المعاد (٣٦/٤).

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْآ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زُجْلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦].

هذان مثالان متضمنان قياسين من قياس العكس، وهو نفى الحكم بنفي علته، وموجبه.

فإن القياس نوعان: قياس طرد، يقتضي إثبات الحكم في الفرع؛ لثبوت علة الأصل فيه.

وقياس عكس، يقتضي نفي الحكم عن الفرع؛ لنفي علة الحكم فيه.

□ □ □

فالمثل الأول: ما ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء، وينفق كيف يشاء على عبده، سرّاً وجهراً، وليلاً ونهاراً، يمينه ملائ، لا يغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لي، ويعبدونها من دوني، مع هذا التفاوت العظيم، والفرق المبين؟ هذا قول مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس: هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، مثل المؤمن في الخير الذي عنده، ثم رزقه منه رزقاً حسناً، فهو ينفق منه على نفسه، وعلى غيره سرّاً وجهراً، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز، لا يقدر على شيء؛ لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحد العقلاء؟

والقول الأول: أشبه بالمراد، فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسباً بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٦﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤]. ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

ومن لوازم هذا المثل وأحكامه: أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقاً حسناً، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا نبه عليه

المثل وأرشد إليه، فذكره ابن عباس رضي الله عنه منبهاً على إرادته، لا أن الآية اختصت به. فتأمله فإنك تجده كثيراً في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن، فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره فيحكيه قوله.

□ □ □

وأما المثل الثاني: فهو مثل ضربه الله ﷻ لنفسه، ولما يعبد من دونه أيضاً، فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة.

والله سبحانه حي قادر متكلم، يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم. وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره بالعدل - وهو الحق - يتضمن أنه سبحانه عالم به، معلم له، راض به، أمر لعباده به، محب لأهله، لا يأمر بسواه، بل ينزه عن ضده، الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل، بل أمره وشرعه عدل كله، وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه، وهم المجاورون له عن يمينه على منابر من نور. وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني، والأمر القدري الكوني، وكلاهما عدل، لا جور فيه بوجه ما، كما في الحديث الصحيح: «اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك»<sup>(١)</sup>. فقضاؤه: هو أمره الكوني. فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون؛ فلا يأمر إلا بحق وبعدل، وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل، وإن كان في المقضي المقدّر ما هو جور وظلم، فالقضاء غير المقضي، والقدر غير المقدّر.

ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم، وهذا نظير قول رسوله هود: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

(١) رواه الإمام أحمد بسند صحيح (٣٧١٢/١)، ورواه الحاكم (٥٠٩/١)، وصححه على شرط مسلم.

(٢) إعلام الموقعين (٢١١/١ - ٢١٣).

فهو في أصل الخلقة خلق خالياً ساذجاً لا علم له بشيء من المعقولات ولا المحسوسات البتة.

فأول ما يخلق فيه حاسة اللمس فيدرك بها أجناساً من الموجودات؛ كالحرارة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة وغيرها، فاللمس قاصر عن الألوان والأصوات، بل هي كالمعدومة بالنسبة إليه.

ثم يخلق له البصر فيدرك به الألوان والأشكال والقرب والبعد والصغر والكبر والطول والقصر والحركة والسكون وغير ذلك.

ثم يفتح له السمع فيسمع الأصوات الساذجة والنغمات، ثم يترقى في مدارك هذه الحاسة على التدرج حتى يسمع من البعد ما لم يكن يسمعه قبل ذلك.

ويتفاوت الناس في قوة هذين الإدراكين، وضعفهما تفاوتاً بيّناً، حتى يدرك الواحد ما يجزم الآخر بكذبه فيه، والمدرّك مشاهد له لا يمكنه تكذيب نفسه فيه وذنبه عند المكذب له أنه اختص بإدراكه دونه.

ثم يخلق له الذوق فيدرك به تفاضل الطعوم من الحلاوة والحموضة والمرارة، وما بين ذلك ما لم يكن له به شعور قبل ذلك، وكذلك الشم هو أكمله وليس عنده من المعقولات عين ولا أثر ولا حس ولا خبر.

ثم يخلق فيه التمييز وهو طور آخر من أطوار وجوده، فيدرك في هذا الطور أموراً آخر زائدة على المحسوسات لم يكن يدركها قبل ذلك، ثم يترقى إلى طور آخر يدرك به الواجب والجائز والمستحيل، وأن حكم الشيء حكم مثله، والضد لا يجتمع مع ضده، والنقيضان إذا صدق أحدهما كذب الآخر، ونحو ذلك من أوائل العلوم الضرورية.

ثم يترقى إلى طور آخر يستنتج فيه العلوم النظرية من تلك الضروريات التي تقدم علمه بها، ثم يترقى في هذا الطور من أمر إلى أمر فوقه وأغمض منه، نسبة ما قبله إليه كنسبة الحس إلى العقل.

ثم وراء ذلك كله طور آخر نسبة ما قبله إليه كنسبة أطوار الإنسان إلى طور العقل أو دون هذه النسبة، يفتح فيه عين يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، وأمور العقل معزول عنها كعزل الحس عن مدركات العقل، وهذا هو طور النبوة الذي نسبة نور العقل المجرد إليه دون نسبة ضوء السراج إلى الشمس، فإنكار العقل لما يخبر به النبي عين الجهل، ولا مستند له في إنكاره إلا أنه لم يبلغه ولم يصل

إليه ، فيظن أنه غير ثابت في نفسه<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وقد زعم طائفة ممن تكلم في خلق الإنسان أنه إنما يعطى السمع والبصر بعد ولادته وخروجه من بطن أمه ، واحتج بقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ الآية .

واحتج أنه في بطن الأم لا يرى شيئاً ، ولا يسمع صوتاً ، فلم يكن لإعطائه السمع والبصر هناك فائدة .

وليس ما قاله صحيحاً ولا حجة له في الآية ؛ لأن الواو لا ترتب فيها ، بل الآية حجة عليه ، فإن فؤاده مخلوق وهو في بطن أمه ، وقد تقدم حديث<sup>(٢)</sup> حذيفة بن أسيد . والصحيح : إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها ، وهذا وإن كان المراد به : العين والأذن ؛ فالقوة السامعة والباصرة مودعة فيها ، وأما الإدراك بالفعل فهو موقوف على زوال الحجاب المانع منه ، فلما زال بالخروج من البطن عمل المقتضي عمله ، والله أعلم<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل : ٨١] .

فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل وهي : الدروع والثياب المصنوعة ومادتها لا تسمى سراويل إلا بعد أن تحيلها صنعه الآدميين وعملهم ، فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها ؛ صورتها ومادتها وهيئاتها<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى : ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾

[النحل : ٨٣] .

(١) الصواعق (٩٥٧/٣).

(٢) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى (٢٦٤٤) في القدر ، في كيفية خلق آدمي . . والحديث : «عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال : يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول : يا رب أشقي أو سعيد؟ . . .» الحديث .

(٣) تحفة الودود (٢٣٥) .

(٤) شفاء العليل (٥٤ ، ٥٥) .

[إنه] سبحانه يذكر عباده بنعمه عليهم ويدعوهم بها إلى معرفته، ومحبته، وتصديق رسله، والإيمان ببلقائه، كما تضمنته سورة النعم وهي سورة النحل. فذكرهم بأصول النعم وفروعها، وعددها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم؛ ليسلموا له فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم. ثم أخبر عن كفره، ولم يشكر نعمه بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾. قال مجاهد: المساكن والأنعام وسراويل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش، ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم.

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لكان كذا وكذا، وقال الفراء وابن قتيبة<sup>(١)</sup>: يعرفون أن النعم من الله، ولكن يقولون: هذه بشفاعة آلهتنا.

وقالت طائفة: النعمة هاهنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنكارها جحدهم نبوته، وهذا يروى عن مجاهد والسدي<sup>(٢)</sup>، وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكار، فإنه إنكار لما هو أجل النعم أن تكون نعمة.

وأما على القول الأول والثاني والثالث، فإنهم لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي قال: إنما كان هذا لآبائنا ورثناه كابراً عن كابر، جاحداً لنعمة الله عليه غير معترف بها، وهو كالأبرص والأقرع الذين ذكرهما الملك بنعم الله عليهما، فأنكرا وقالوا: «إنما ورثنا هذا كابراً عن كابر فقال: إن كنتما كاذبين فصيركما الله إلى ما كنتما»<sup>(٣)</sup>، وكونها موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم إذ أنعم بها على آبائهم، ثم ورثهم إياها فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمه.

وأما قول الآخرين: لولا فلان لما كان كذا فيتضمن قطع إضافة النعمة إلى من لولاه لم تكن، وإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرراً ولا نفعاً، وغايته أن تكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله تعالى نعمته على يده والسبب لا يستقل

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص (٢٤٨).

(٢) ذكر هذه الأقوال في الآية ثم رجح كون المقصود بالإنكار للنعمة: النعمة عليهم بإرسال محمد ﷺ إليهم داعياً إلى ما بعثه بدعائه إليه، وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاها خبر عن رسول الله ﷺ، وعما بعث به، فأولى ما بينهما أن يكون في معنى ما قبله وما بعده، إذا لم يكن معنى يدل على انصرافه عما قبله وعما بعده. تفسير الطبري (١٤/١٥٨).

(٣) رواه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

بالإيجاد، وجَعَلُهُ سبباً هو من نعم الله عليه وهو المنعم بتلك النعمة، وهو المنعم بما جعله من أسبابها، فالسبب والمسبب من إنعامه، وهو سبحانه قد ينعم بذلك السبب، وقد ينعم بدونه فلا يكون له أثر، وقد يسلبه تسيبته، وقد يجعل لها معارضاً يقاومها، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه، فهو وحده المنعم على الحقيقة.

وأما قول القائل: بشفاعة آلهتنا فتضمن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها، فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله، وهي مُحَضَّرَةٌ في الهوان والعذاب مع عابديها، وأقرب الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه، فالشفاعة بإذنه من نعمه فهو المنعم بالشفاعة، وهو المنعم بقبولها، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له، إذ ليس كل أحد أهلاً أن يشفع له، فمن المنعم على الحقيقة سواء؟ قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعَمٍ فَمِئَاتُ آلَافٍ﴾ [النحل: ٥٣]. فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنتته وإحسانه طرفة عين لا في الدنيا ولا في الآخرة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله، وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له، ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به، وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم وهؤلاء عكسهم<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فتضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا، والحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين<sup>(٣)</sup>.

(٢) طريق الهجرتين (٣٨٠).

(١) شفاء العليل (٣٦، ٣٧).

(٣) الجواب الكافي (١٧٧).

وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت همماً واحداً في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبّه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه، فإن سكنت سكنت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فيه يسمع، وإن أبصر فيه يبصر، وبه يبطش وبه يمشي، وبه يتحرك وبه يسكن، وبه يحيا وبه يموت وبه يبعث<sup>(١)</sup>.

□ □ □

ويغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة، حيث يظنونها التمتع في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء، والتفنن بأنواع الشهوات. ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام، فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد.

ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً، وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو متحل بهذا منشرح الصدر به، يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدرة ويقول: فزت ورب الكعبة.

ويستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده، ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها، ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً.

ويقول الآخر مع فقره: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف.

ويقول الآخر: إنه ليمر بالقلب أوقات ليرقص فيها طرباً.

وقال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب<sup>(٢)</sup>.

(٢) مفتاح دار السعادة (٣٨).

(١) الجواب الكافي (٢٧٧، ٢٧٨).

فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠].

ومعنى (استعذ بالله): امتنع به واعتصم به واللجأ إليه، ومصدره العوذ والعياذ والمعاذ. وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قوله ﷺ: «لقد عُذْتُ بِمَعَاذٍ»<sup>(٢)</sup>، وأصل اللفظة: من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب (أطيب اللحم عوده) أي: الذي قد عاذ بالعظم واتصل به. وناقاة عائد: يعوذ بها ولدها، وجمعها (عُوذ) كحمر، ومنه في حديث الحديبية: «معهم العُوذ المطافيل»<sup>(٣)</sup>، والمطافيل: جمع (مُطْفِل)، وهي الناقة التي معها فصيلها.

قالت طائفة - منهم صاحب جامع الأصول<sup>(٤)</sup> -: استعار ذلك للنساء، أي: معهم النساء وأطفالهم.

ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته، أي: قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها.

□ □ □

فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن، وفي ذلك وجوه:

- (١) مفتاح دار السعادة (٤٧).
  - (٢) رواه البخاري (٥٢٥٥). والحديث في (ابنة الجون): لما أدخلت على رسول الله ﷺ ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك... فذكره.
  - (٣) رواه البخاري (٢٧٣١).
  - (٤) هو الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري رحمه الله تعالى، وانظر: جامع الأصول (٣٠٣/٨).
- وانظر في معنى: «أعوذ» واشتقاقها، كتاب (إعراب ثلاثين آية من القرآن الكريم)، ص (٣ - ٥) للإمام (ابن خالويه) رحمه الله تعالى، وغيرها من كتب التفسير.

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور، يُذهب ما يُلقيه الشيطان فيها من الوسوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمره فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء، ويخلي منه القلب؛ ليصادف الدواء محلاً خالياً، فيتمكن منه ويؤثر فيه، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب وقد خلا من مزاحم ومُضادٍّ له فينجع فيه. ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أَحَسَّ بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله ﷻ منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله: أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن؛ وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى، وهو لعمر الله مَلَحَظٌ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف وهو محصل للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن، وتستمتع لقراءته، كما في حديث أسيد بن حُضَيْر<sup>(١)</sup>: لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح، فقال عليه الصلاة والسلام: «تلك الملائكة»، والشيطان ضد الملك وعدوه، فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباحدة عدوه حتى يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يُجلب على القارئ بخيله ورجله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله ﷻ منه.

ومنها: أن القارئ يناجي الله تعالى بكلامه، و«الله تعالى أشدُّ أذنًا للقارئ

الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القِنَّة إلى قينته»<sup>(١)</sup>، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مفاجأة الله تعالى واستماع الرب قراءته. ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى، إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، قال الشاعر في عثمان:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادر  
فإذا كان هذا فعله مع الرسل ﷺ فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة ويغلط عليه القراءة ويشوشها عليها، فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعد منه القارئ هذا، أو هذا؛ وربما جمعهما له فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه<sup>(٢)</sup>.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهتم بالخير، أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عن النبي ﷺ<sup>(٣)</sup>: «إن شيطاناً تَقَلَّتْ عليَّ البارحة، فأراد أن يقطع عليَّ صلاتي..» الحديث. وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر. وفي مسند الإمام أحمد<sup>(٤)</sup> من حديث سبرة بن أبي الفاكه: أنه سمع النبي ﷺ

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله (١٩/٦)، وابن ماجه (٤٢٥/١) برقم (١٣٤٠) في إقامة الصلاة والسنه فيها، باب: حسن الصوت بالقرآن. وقال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد حسن لقصور درجة ميسرة مولى فضالة وراشد بن سعيد عن درجة أهل الحفظ والضبط... (٤٣٦/١) مصباح الزجاجه.

وضعه الألباني كما في ضعيف سنن ابن ماجه، ص(٩٩)، والحاكم (١/٥٧٠، ٥٧١)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الذهبي: (بل هو منقطع).

(٢) هذا المعنى فيه إشكال، فهو مرتبط بقصة الغرائق المكذوبة على النبي ﷺ، وانظر - إن رغبت -: تفصيل ذلك في كتاب (الغرائق قصة دخيلة على السيرة النبوية)، نشره المكتب الإسلامي [الشامي].

(٣) رواه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

(٤) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رحمه الله (٤٨٣/٣)، والنسائي (٦/٢١، ٢٢) في الجهاد، باب: ما لمن أسلم وهاجر وجاهد. وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: إسناده حسن، إلا أن في إسناده اختلافاً... وصححه ابن حبان (٧/٥٧)، الإصابة (٤/١٢٠). وصححه الألباني كما في صحيح الجامع برقم (١٦٤٨)، وقد مر (٢/١٩٦).

يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماؤك؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد - وهو جهاد النفس والمال - فقال: تقاتل فتقتل، فتتكح المرأة ويقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد». فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور عن مجاهد رحمته الله: «ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم»، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره - فهو بالرصد - ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارئ وإن كان وحده لما ذكرنا من الحكم وغيرها.

□ □ □

فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقد قال أحمد في رواية حنبل: لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة إلا استعاذ؛ لقوله ﷺ: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» [النحل: ٩٨].

وقال في رواية ابن مشيش: كلما قرأ يستعيذ.

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي إذا قرأ استعاذ، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم <sup>(١)</sup>.

وفي المسند والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري، قال: كان النبي ﷺ إذا قام إلى صلاته استفتح ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: من همزه ونفخه ونفثه» <sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: مسائل الإمام أحمد رحمته الله، برواية ابنه عبد الله، ص (٧٦).

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رحمته الله (٥٠/٣)، وأبو داود (٤٧٧/٢، ٤٧٨) في الصلاة، باب: من رأى الاستفتاح سبحانهك اللهم وحمدك، والترمذي (٩/٢) في الصلاة، باب: ما =

وقال ابن المنذر: جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول قبل القراءة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في الجامع أنه كان يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، وهو رواية عن أحمد؛ بظاهر الآية، وحديث ابن المنذر وعن أحمد من رواية عبد الله: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» لحديث أبي سعيد.

وهو مذهب الحسن وابن سيرين، ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفك: أن النبي ﷺ جلس وكشف عن وجهه وقال: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»<sup>(١)</sup>.

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم».

وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يسار، واختاره القاضي في المجرد وابن عقيل؛ لأن قوله: ﴿فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ظاهره أنه يستعيز بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وقوله في الآية الأخرى: ﴿فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]. يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف (إن)، لأنه سبحانه هكذا ذكر<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان، أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتمد الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان،

= يقول عند افتتاح الصلاة، وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى، ورواه الدارمي (٢٢٦/١) في الصلاة، باب: ما يقال عند افتتاح الصلاة. وانظر: إرواء الغليل (٥١/٢). وانظر: المسألة في المغني (١٤٥/٢).

(١) رواه أبو داود (٤٩٤/٢) في الصلاة، باب: من لم ير الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم. وقال: هذا حديث منكر.

(٢) إغاثة اللهفان (٩١/١ - ٩٥).

﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].  
قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة.

والصواب: أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم، لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة، والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطاناً؛ لأن صاحبها يتسلط بها تسلط القدرة بيده، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين.

قال في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٢].

وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ - ١٠٠].  
فتضمن ذلك أمرين:

أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.  
والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه (١).

□ □ □

فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطاناً - بقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمْ﴾، فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقررأ له: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]؟

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٣) وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبا: ٢٠، ٢١].

قيل: السلطان الذي أثبت له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكّن منهم وتلاعبه بهم، وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة، فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها، غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداءً البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم<sup>(١)</sup>.

□ □ □

ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص، قال: ﴿فَعِرْزِكَ لَاغْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾. فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله ﷻ، وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له سلطان على من تولاه وأشرك مع الله فهؤلاء رعيته، فهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَلُّ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١].

تأمل حسن الاعتراض وجزالته [في الآية الكريمة].

فقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَلُّ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أموراً:

منها: الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟

ومنها: أن الذي بُدِّل وأُتِيَ بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم.

ومنها: أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى، وأن كلا منهما منزل فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ آجِبْتَهُ وَهَدَيْتَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَأَوْتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَئِنَّ الصَّالِحِينَ ﴿[النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

فالأمة: هو القدوة المعلم للخير.

والقانت المطيع لله الملازم لطاعته.

والحنيف: المقبل على الله المعرض عما سواه، ومن فسر بالمائل فلم يفسره

(٢) إغائة اللفهان (١/٩٩).

(١) عدة الصابرين (٢٦).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (٢٢٤).

بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسرهُ بلازم المعنى، فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى ويلزمه ميلها عن جهتها، قال تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرؤم: ٣٠]. فحنيفاً هو حال مفردة لمضمون قوله: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾؛ ولهذا فسرت (مخلصاً).

فتكون الآية قد تضمنت الصدق والإخلاص، فإن إقامة الوجه للدين هو إفراد طلبه، بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف المفرد لمعبوده لا يريد غيره فالصدق أن لا ينقسم طلبك، والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك:

الأول: توحيد الطلب.

والثاني: توحيد المطلوب<sup>(١)</sup>.

□ □ □

هذه أربعة أنواع من الشاء.

[الأول]: افتتحها بأنه أمة، والفرق بين الأمة والإمام من وجهين:

(أحدهما): أن الإمام كل ما يؤتم به سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إماماً كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (٧٨) فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ وَلِيْنَاهُمْ لِيَامُرَ مُبِينٌ [الحجر: ٧٨، ٧٩]. أي: بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة.

(الثاني): أن الأمة فيه زيادة معنى، وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل؛ بحيث بقي فيها فرداً وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكانه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها في غيره، ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى ومنه الحديث: «أن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده»<sup>(٢)</sup>، فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة، ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد.

الثاني: قوله قانتاً لله، قال ابن مسعود: القانت المطيع والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

(١) جلاء الأفهام (١٥٥).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله (١١٦/٣، ١١٧) عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، وصححه أحمد شاكر.

الثالث: قوله حنيفاً، والحنيف المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة.

الرابع: قوله شاكراً لأنعمه، والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان الإقرار بالنعمة، وإضافتها إلى المنعم بها، وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب، فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الأشياء الثلاثة، والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات، كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِلَاغٍ هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرغبة. والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن.

هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية لا ما يزعم أسير منطق اليونان: أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام، والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات، وهذا باطل وهو مبني على أصول الفلسفة، وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها<sup>(٢)</sup>.

[وقد] أطلق الحكمة، ولم يقيد بها بوصف الحسنة، إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.

وأما (الموعظة) فقيدها بوصف الإحسان، إذ ليس كل موعظة حسنة. وكذلك (الجدال) قد يكون بالتي هي أحسن، وقد يكون بغير ذلك، وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه، فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن، ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدله على المقصود، وأوصله إلى المطلوب.

(١) مفتاح دار السعادة (١٨٩، ١٩٠). (٢) مفتاح دار السعادة (١٦٧).

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين<sup>(١)</sup>.

□ □ □

فمراتب الدعوة ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو:  
فإنه إما أن يكون طالباً للحق راغباً فيه محباً له مؤثراً له على غيره، إذ عرفه،  
فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال.  
وإما أن يكون معرضاً مشتغلاً بضد الحق، ولكن لو عرفه أثره واتبعه، فهذا  
يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معانداً معارضاً  
فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدل إلى  
الجلاد إن أمكن، فلمناظرة المبطل فائدتان:

إحدهما: أن يرد عن باطله، ويرجع إلى الحق.  
الثانية: أن يَنْكَفَّ شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل، وهذه الوجوه  
كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].  
وقال: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

الصبر المحمود نوعان: صبر لله، وصبر بالله، وقد تنازع الناس أي الصبرين  
أكمل؟

فقالت طائفة: الصبر له أكمل، فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله، فإن ما كان  
له فهو غاية، وما كان به فهو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل؛ ولذلك وجب  
الوفاء بالنذر إذا كان تبرراً وتقرباً إلى الله؛ لأنه نذر له، ولم يجب الوفاء به إذا خرج  
مخرج اليمين؛ لأنه حلف به.

فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما  
تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته؛ ولذلك كان توحيد الألوهية هو المنهي من  
الشرك، دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عباد الأصنام كانوا مقرين بأن الله وحده  
خالق كل شيء وربهم ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية، وهو عبادته وحده  
لا شريك له، لم ينفعهم توحيد ربوبيته.

(٢) الصواعق المرسله (٤/١٢٧٦، ١٢٧٧).

(١) مدارج السالكين (١/٤٤٥).

وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ فأمره بالصبر، والمأمور به هو الذي يفعل لأجله، ثم قال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التي تقدمتها، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به، وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة به، والمعية الخاصة التي تدل عليها باء المصاحبة، كقوله: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي».

وليس المراد بهذه الباء الاستعانة، فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي، فإن ما لا يكون بالله لا يكون، بل هي باء المصاحبة والمعية التي صرح بمضمونها في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وهي المعية الحاصلة لعبده الذي تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوباً له، فبه يسمع وبه يبصر وكذلك به يصبر، فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه، ومن كان كذلك أمكنه الصبر له، وتحمل الأثقال لأجله، كما في الأثر الإلهي، يعني: وما يتحمل المتحملون من أجلي، فدل قوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ على أنه من لم يكن الله معه لم يمكنه الصبر.

وكيف يصبر على الحكم الأمري امتثالاً وتنفيذاً وتبليغاً، وعلى الحكم القدري احتمالاً له واضطلاًعاً به، من لم يكن الله معه؟ فلا يطمع في درجة الصبر المحمود عواقبه من لم يكن صبره بالله، كما لا يطمع في درجة التقرب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله<sup>(١)</sup>.



## سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].  
فذكره بالعبودية في مقام الإسراء<sup>(١)</sup>.

وفي قوله: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ دون بعث بعده وأرسل به، ما يفيد مصاحبته له في مسراه، فإن الباء هنا للمصاحبة، فهي في قوله: هاجر بأهله وسافر بغلامه، وليست للتعدي، فإن أسرى يتعدى بنفسه يقال: سرى به وأسراه؛ وهذا لأن ذلك السرى كان أعظم أسفاره ﷺ، والسفر يعتمد الصاحب؛ ولهذا كان ﷺ إذا سافر يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر»<sup>(٢)</sup>.

فإن قيل: فهذا المعنى يفهم من الفعل الثلاثي لو قيل: سرى بعده، فما فائدة الجمع بين الهمزة والباء؟ ففيه أجوبة:

أحدهما: أنهما بمعنى: وأن أسرى، لازم كَسَرَى، تقول: سرى زيد وأسرى بمعنى: واحد، وهذا قول جماعة.

والثاني: أن أسرى متعد ومفعوله محذوف، أي: أسرى بعده البراق، هذا قول السهيلي<sup>(٣)</sup> وغيره.

ويشهد للقول الأول قول الصديق<sup>(٤)</sup>: أسرينا ليلتنا كلها ومن الغد، حتى قام قائم الظهيرة.

والجواب الصحيح: أن الثلاثي المتعدي بالباء يفهم منه شيان:

(١) مدارج السالكين (١/١٠٣). (٢) رواه مسلم (١٣٤٢).

(٣) نص كلام السهيلي رحمه الله تعالى: أي: جعل البُرَاق يَسْرِي، كما تقول: أمضيته، أي: جعلته يمضي؛ لكن كثر حذف المفعول لقوة الدلالة عليه؛ أو للاستغناء عن ذكره... وراجع: هذا المبحث الجليل في الروض الأنف (٣/٤١٢).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩م).

أحدهما: صدور الفعل من فاعله.

الثاني: مصاحبته لما دخلت عليه الباء، فإذا قلت: سریت بزيد وسافرت به كنت قد وجد منك السرى، والسفر مصاحباً لزيد فيه، كما قال:

ولقد سریت على الظلام بمعشر

ومنه الحديث: «أقرع بين نسائه فأیتهن خرج سهمها خرج بها»<sup>(١)</sup>.

وأما المتعدي بالهمزة: فيقتضي إيقاع الفعل بالمفعول فقط، كقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿فَأَخْرَجْنَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ٥٧] ونظائره.

فإذا قرن هذا المتعدي بالهمزة أفاد إيقاع الفعل على المفعول مع المصاحبة المفهومة من الباء، ولو أتى فيه بالثلاثي فهم منه معنى المشاركة في مصدره وهو ممتنع، فتأمله<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

قال ابن جرير: وكل إنسان ألزمناه ما قضي له أنه عامله، وما هو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه<sup>(٣)</sup>.

وهذا ما قاله الناس في الآية، وهو ما طار له من الشقاء والسعادة وما طار عنه من العمل، ثم ذكر عن ابن عباس قال: طائرته: عمله وما قدر عليه، فهو ملازمة أينما كان وزائل معه أينما زال.

وكذلك قال ابن جريج، وقتادة، ومجاهد: هو عمله. زاد مجاهد: وما كتب له. وقال قتادة أيضاً: سعادته وشقاوته بعمله.

قال ابن جرير<sup>(٤)</sup>: فإن قال قائل: فكيف قال: ألزمناه طائرته في عنقه إن كان الأمر على ما وصفت؟ ولم يقل: في يديه أو رجله أو غير ذلك من أعضاء الجسد؟ قيل: إن العنق هي موضع السمات، وموضع القلائد والأطوق وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى

(١) رواه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠). (٢) بدائع الفوائد (٣/٢٠٢، ٢٠٣).

(٣) تفسير الطبري (٥٠/١٥). (٤) المصدر نفسه (٥١/١٥).

الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يده، وإن كان الذي جره عليه لسانه أو فرجه فكذلك قوله: ﴿الزَّيْمَةُ طِكْرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾.

وقال الفراء: الطائر معناه: عندهم العمل.

قال الأزهري: والأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى بسعادة من علمه مطيعاً وشقاوة من علمه عاصياً، فطار لكل ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه.

وأما قوله: في عنقه، فقال أبو إسحاق: إنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي: لزومه له كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق، قال أبو علي: هذا مثل قولهم: طوقت كذا وقلدتك كذا، أي: صرفته نحوك وألزمته إياه، ومنه قلده السلطان كذا، أي: صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق. وقيل: إنما خص العنق؛ لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيراً أو شراً، وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغل فأضيف إلى الأعناق.

قالت القدرية: إلزامه ذلك وسمه به وتعليمه بعلامة يعرف الملائكة أنه سعيد أو شقي والخبر عنه، لا أنه ألزمه العمل فجعله لازماً له.

قال أهل السنة: هذه طريقة لكم معروفة في تحريف الكلم عن مواضعه سلكتموها في الجسم والطبع والعقل، وهذا لا يعرفه أهل اللغة وهو خلاف حقيقة اللفظ، وما فسر به أعلم الأمة بالقرآن، ولا يعرف ما قلموه عن أحد من سلف الأمة البتة، ولا فسر الآية غيركم به، ونحن قد أريناكم أقوال أئمة الهدى وسلف الأمة في الطائر، فأرونا قولكم عن واحد منهم قاله قبلكم، وكل طائفة من أهل البدع تجر القرآن إلى بدعها وضلالها وتفسره بمذاهبها وآرائها، والقرآن بريء من ذلك، وبالله التوفيق<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

هذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء. والمعنى: قضينا ذلك وقدرناه.

وقالت طائفة: بل هو أمر ديني، والمعنى: أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا، والقول الأول أرجح لوجه:

أحدها: أن الإضمار على خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا إذا لم يمكن تصحيح الكلام بدونه.

الثاني: أن ذلك يستلزم إضمارين:

أحدهما: أمرناهم بطاعتنا.

الثاني: فخالفونا أو عصونا، ونحو ذلك.

الثالث: أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه، كقولك: أمرته ففعل، وأمرته فقام، وأمرته فركب، لا يفهم المخاطب غير هذا.

الرابع: أنه سبحانه جعل سبب هلاك هذه القرية أمره المذكور، ومن المعلوم أن أمره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك، بل هو سبب للنجاة والفوز.

فإن قيل: أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك.

قيل: هذا يطل بالوجه:

الخامس: وهو أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين، بل هو سبحانه يأمر بطاعته واتباع رسله المترفين وغيرهم، فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين يوضحه.

الوجه السادس: أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم، ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال: أرسلنا رسلنا إلى مترفيها ففسقوا فيها، فإن الإرسال لو كان إلى المترفين لقال من عداهم: نحن لم يرسل إلينا.

الوجه السابع: أن إرادة الله سبحانه لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم؛ لأنهم معذرون بغفلتهم وعدم بلوغ الرسالة إليهم، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]. فإذا أرسل الرسل فكذبوهم أراد إهلاكها فأمر رؤساءها ومترفيها أمراً كونياً قدرياً لا شرعياً دينياً بالفسق في القرية، فاجتمع أهلها على تكذيبهم وفسق رؤسائهم، فحينئذ جاءها أمر الله وحق عليها قوله: بالإهلاك<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ

(١) شفاء العليل (٢٨١).

جَهَنَّمَ يَصَلُّنَهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا ﴿٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿الإسراء: ١٨ - ١٩﴾.

[انظر في تفسيرهما: الآيتان: ١٥، ١٦ من سورة هود (ج ٢ ص ٤٧)].

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].  
مذموماً لا حامد لك، مخذولاً لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذموماً منصوراً، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محموداً منصوراً كالذي تمكن وملك بحق، والمشارك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].  
علل النهي في الموضعين<sup>(٢)</sup> بكون المنهي عنه فاحشة، ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي لكان تعليلاً للشيء بنفسه، ولكان بمنزلة أن يقال: (لا تقربوا الزنا فإنه يقول لكم: لا تقربوه)، أو (فإنه منهي عنه)، وهذا محال من وجهين:

أحدهما: أنه يتضمن إخلاء الكلام من الفائدة.

والثاني: أنه تعليل للنهي بالنهي<sup>(٣)</sup>.

فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذي تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول عند كثير من الحيوان، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة، فاجتمع القردود عليهما فرجموهما حتى ماتا»<sup>(٤)</sup>. ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وعذاب وخزي ونكال في الآخرة<sup>(٥)</sup>.

\* \* \*

(١) مدارج السالكين (١/٤٥٨).

(٢) والموضع الآخر في الأعراف في الآية (٣٣).

(٣) مفتاح دار السعادة (٣٣٣، ٣٣٤). (٤) البخاري (٣٨٤٩).

(٥) الجواب الكافي (٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فقد أخبر سبحانه أنه يسأل العبد عن سمعه وبصره وفؤاده، ونهاه أن يقفو، أي: يتبع ما ليس له به علم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨].

[سبق هذه الآية] ذكر توحيد، وذكر المناهي التي نهاهم عنها والأوامر التي أمرهم بها، ثم ختم بالآية الكريمة.

أي: مخالفة هذه الأوامر، وارتكاب هذه المناهي سيئه مكروهة لله.

فتأمل قوله: ﴿سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي: أنه سيئ في نفس الأمر عند الله حتى لو لم ينزل به تكليف؛ لكن سيئه في نفسه عند الله مكروهاً له، وكراهته سبحانه له لما هو عليه من الصفة التي اقتضت أن كرهه، ولو كان قبحه إنما هو مجرد النهي لم يكن مكروهاً لله، إذ لا معنى للكراهة عندهم<sup>(٢)</sup> إلا كونه منهيّاً عنه، فيعود قوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ إلى معنى كل ذلك نهى عنه عند ربك، ومعلوم أن هذا غير مراد الآية.

وجعل سبحانه هذا البغض والقبح سبباً للنهي عنه؛ ولهذا جعله علة وحكمة للأمر، فتأمل، والعلة غير المعلول<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾

[الإسراء: ٤٢].

ف قيل: لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال شيخنا<sup>(٤)</sup> رحمه الله: والصحيح أن المعنى: لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته، فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له، قال: ويدل على هذا وجوه:

(١) الكلام في مسألة السماع (٢٣٦). (٢) أي: نفاة الحكمة في الأمر والنهي.

(٣) مفتاح دار السعادة (٣٣٦).

(٤) يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كما هو معلوم.

منها: قوله تعالى ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. أي: هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ترجون رحمتي، وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟

الثاني: أنه سبحانه لم يقل: لا بتغوا عليه سبيلاً، بل قال: ﴿لَا تَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾، وهذا اللفظ إنما يستعمل في التقرب، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَأَبْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلی، كقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

والثالث: أنهم لم يقولوا: إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قد قال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾، وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه، فقال: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له، فلماذا تعبدون عبده من دونه<sup>(١)</sup>؟

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

وقوله: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]. والمعنى: جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجاباً يحول بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به، وبينه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وهذه الثلاثة<sup>(٢)</sup> هي الثلاثة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، فأخبر سبحانه أن ذلك جعله. فالحجاب يمنع رؤية الحق، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه. وقال الكلبي: الحجاب هاهنا مانع يمنعهم من الوصول إلى رسول الله، بالأذى من الرعب ونحوه مما يصدhem عن الإقدام عليه.

(١) الجواب الكافي (٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) الثلاثة: هي: الحجاب، والأكنة، والوقر.

ووصفه بكونه مستوراً، فقيل: بمعنى: ساتر.

وقيل: على النسب، أي: ذو ستر.

والصحيح: أنه على بابه، أي: مستوراً عن الأبصار فلا يرى<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَئِنْ كُنَّا عِظَمًا وَرَفُفْنَا لَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥٢].

فتأمل ما أجبوا به على كل سؤال على التفصيل.

فإنهم قالوا: أولاً: إذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً؟

فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب، فهلا كنتم خلقاً جديداً لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد، أو ما هو أكبر في صدوركم من ذلك، فإن قلتم: لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة وأنشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء، ولم يجعلنا حجارة ولا حديدًا، فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقاً جديداً؟

وللحجة تقرير آخر وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما؛ لكان قادراً على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال.

ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها، بالإفناء والإحالة ونقلها من حال إلى حال، فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائها وإحالتها ونقله من حال إلى حال؟

فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم: من يعيدنا إذا استحالت أجسامنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١].

وهذا الجواب نظير جواب قول السائل: ﴿مَنْ يُعَيِّدُ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معديلاً؛ انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلل المقطوع بالحجاج - بمثل ذلك - وهو قولهم: متى هو؟ فأجيبوا بقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٢)</sup>.

فليتأمل اللبيب لطف موقع هذا الدليل واستلزامه بمدلوله استلزاماً لا محيد عنه، وما تضمنه من السؤالين والجواب عنهما أبلغ جواب وأصح وأوضحه، فله ما يفوت المعرضين عن تدبر القرآن المتعوضين عنه بزبالة الأذهان ونخالة الأفكار<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]. فالشيطان ينزع بينهم إذا كلم بعضهم بعضاً بغير التي هي أحسن، فربّ حرب وقودها جثث وهام، أهاجها القبيح من الكلام.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن حنيف قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: خبث نفسي، ولكن ليقُل: لَقِسْتُ نفسي»<sup>(٢)</sup>.

وخبثت ولقست وغثت متقاربة المعنى، فكره رسول الله ﷺ لفظ «الخبث» لبشاعته، وأرشداهم إلى العدول إلى لفظ هو أحسن منه، وإن كان بمعناه؛ تعليماً للأدب في المنطق، وإرشاداً إلى استعمال الحسن، وهجر القبيح في الأقوال كما أرشداهم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار السالكين، وهي: الخوف والرجاء والمحبة.

فجمع [في الآية الكريمة] بين المقامات الثلاثة، فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه، وفعل ما يحبه، ثم يقول: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾.

فذكر الحب والخوف والرجاء، والمعنى: إن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونهم، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له؟<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) إعلام الموقعين (١/١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧٩)، ومسلم (٢٢٥٠).

(٣) الطرق الحكمية (٤٩). (٤) طريق الهجرتين (٢٦٢، ٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْنَا نُمُودَ الْأَقْفَعِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩].

أي: مينة موجبة للتبصر. وفعل الإبصار يستعمل لازماً ومتعدياً. يقال: أبصرته، بمعنى: أريته، وأبصرته، بمعنى: رأيته.

فمبصرة في الآية بمعنى: مرئية، لا بمعنى: رائية، والذين ظنوها بمعنى: رائية غلطوا في الآية، وتحيروا في معناها.

فإنه يقال: بصر به، وأبصره، فيعدي بالباء تارة والهمزة تارة، ثم يقال: أبصرته كذا، أي: أريته إيّاه، كما يقال: بصرته به، وبصر هو به.

فلهنا بَصِيرَة، تبصرة ومُبْصِرَة، فالبصيرة: المينة التي تبصر، والتبصرة مصدر، مثل التذكرة، وسمي بها ما يوجب التبصرة، فيقال: هذه الآية تبصرة، لكونها آلة التبصر، وموجبه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ مَوْفُورًا﴾

[الإسراء: ٦٣].

أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان من تبعك يقتضي الغيبة؛ لأنه اجتمع مخاطب وغائب فغلب المخاطب وجعل الغائب تبعاً له، كما كان تبعاً في المعصية والعقوبة، فحسن أن يجعل تبعاً له في اللفظ، وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به.

وانتصب جزاء موفوراً عند ابن مالك على المصدر وعامله عنده المصدر الأول، قال: والمصدر يعمل في المصدر تقول: عجبت من قيامك قياماً، ويعمل فيه الفعل نحو: قام قياماً، واسم الفاعل كقوله:

فأصبحت لا أقرب الغانيات      مزدجراً عن هواها ازدجاراً  
واسم المفعول هو مطلوب طلباً.

وبعد، ففي نصب جزاء قولان آخران:

أحدهما: إنه منصوب بما في معنى: فإن جهنم جزاؤكم من الفعل فإنه متضمن لتجاوز وهو الناصب جزاء.

والثاني: إنه حال، وساغ وقوع المصدر حالاً هاهنا؛ لأنه موصوف، ذكر

(١) إغاثة اللهفان (٢/١٦٩، ١٧٠).

الزمخشري<sup>(١)</sup> هذين القولين، وهذا كما تقول: خذ عطاءك عطاءً موفوراً. والذي يظهر في الآية أن جزاء ليس بمصدر، وإنما هو اسم للحظ والنصيب فليس مصدر جزيته جزاء، بل هو كالعطاء والنصيب؛ ولهذا وصفه بأنه موفور، أي: تام لا نقص فيه، وعلى هذا فنصبه على الاختصاص، وهو يشبه نصب الصفات المقطوعة، وهذا كما قال الزمخشري<sup>(٢)</sup> وغيره في قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾ [النساء: ٧]، إلى قوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]. قال: نصبه على الاختصاص، أي: أعني: نصيباً مفروضاً، ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكدة كقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup> [النساء: ١١، التوبة: ٦٠].

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]. قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي أخبرنا أبو صالح - كاتب الليث - حدثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾، قال: كل داع إلى معصية<sup>(٤)</sup>. ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية؛ ولهذا فُسر صوت الشيطان به.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي أخبرنا يحيى بن المغيرة أخبرنا جرير عن ليث عن مجاهد: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ قال: استزل منهم من استطعت، قال: وصوته الغناء والباطل<sup>(٥)</sup>.

وبهذا الإسناد إلى جرير عن منصور عن مجاهد قال: صوته هو المزامير. ثم روى بإسناده عن الحسن البصري قال: صوته هو الدف. وهذه الإضافة إضافة تخصيص، كما أن إضافة الخيل والرجل إليه كذلك، فكل متكلم بغير طاعة الله ومصوتٍ ببراع أو مزمار أو دف حرام أو طبل فذلك صوت الشيطان، وكل ساع في

(١) انظر: تفسير (الكشاف) (٢٤٩/١)، وفيه زيادة عن المنقول هنا.

(٢) انظر: تفسير (الكشاف) (٢٤٩/١)، وفيه زيادة عن المنقول هنا.

(٣) بدائع الفوائد (٤/١٨٥، ١٨٦). (٤) ورواه الطبري (١٥/١١٨).

(٥) المصدر نفسه.

معصية الله على قدميه فهو من رجله، وكل راكب في معصية الله فهو من خياله. كذلك قال السلف، كما ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «رَجُلُهُ كل رجل مشى في معصية الله».

وقال مجاهد: كل رجل يقاتل في غير طاعة الله فهو من رجله. وقال قتادة: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس<sup>(١)</sup>.

وصوت الشيطان كل صوت في غير طاعة الله نسب إلى الشيطان لأمره به ورضاه به، وإلا فليس هو الصوت نفسه، فصوت الغناء وصوت النوح وصوت المعازف من الشبّابات والأوتار، وغيرها كلها من أصوات الشيطان التي يستفز بها بني آدم فيستخفهم ويزعجهم.

ولهذا قال السلف في هذه الآية: «إنه الغناء»<sup>(٢)</sup>، ولا ريب أنه من أعظم أصوات الشيطان التي يستفز بها النفوس ويزعجها ويقلقها، وهو ضد القرآن الذي تطمئن به القلوب، وتسكن وتخبث إلى ربها، فصوت القرآن يسكن النفوس ويطمئنئها ويوقرها، وصوت الغناء يستفزها ويزعجها ويهيجها.

وكذلك صوته الذي يستفز به النفوس عند المصيبة، وهو النوح، فيستفزها بهذا الصوت إلى الحزن والأسف والسخط بما قضى الله، ويستفزها بذلك الصوت إلى الشهوة والإرادة والرغبة فيما يبغضه الله.

فينهاها بصوت النوح عما أمرها الله به، ويأمرها بصوت الغناء بما نهاها الله عنه.

وهذا الصوت هو أحد الأسباب الخمسة التي أقسم الشيطان أنه يحتك بها ذرية آدم ويستأصلهم إلا قليلاً، وهي استفزازهم بصوته، والإجلاب عليهم بخيله ورجله، ومشاركتهم في أموالهم وأولادهم، فكل راكب في معصية الله فهو من خيالة الشيطان، وكل ماشٍ في معصية الله فمن رجالته، وكل مال أخذ من غير حله وأخرج في غير حقه فهو شريك صاحبه فيه، وكل ولد من نطفة زنا فهو شريك أبيه فيه<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) إغاثة اللهفان (١/٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) كمجاهد رحمته الله. أخرجه الطبري (١٥/١١٨). وانظر: تفسير الآية رقم (٦) من سورة لقمان.

(٣) الكلام في مسألة السماع (٣٧٩ - ٣٨١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها، من العقل، والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة الحسنة، والهيئة الشريفة، والقد المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُثَبِّتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

فالتثبيت فعله [تعالى]، والثبات فعل رسوله، فهو سبحانه المثبت، وعبدّه الثابت<sup>(٢)</sup>.

أي: لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، أي: ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة<sup>(٣)</sup>.

فضرورته ﷺ إلى ربه، وفاقته إليه، بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الصَّلَاةَ يَدُلُّوكَ الشَّمْسُ إِلَى عَسَقِ أَيْلٍ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَاتٌ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

قيل: يشهده الله ﷻ وملائكته.

وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البذل عند صعود أولئك فيجتمعون في صلاة الفجر؛ وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل، فيشهدها ملائكة الليل والنهار؛ واحتج لهذا القول بما في الصحيح من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، ويجتمع ملائكة الليل وملائكة

(٢) شفاء العليل (٥٩).

(١) مفتاح دار السعادة (١/٢٦٣).

(٤) طريق الهجرتين (١٠).

(٣) مدارج السالكين (١/٣٣٣).

النهار في صلاة الفجر» يقول أبو هريرة: «واقرأوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾<sup>(١)</sup>، رواه البخاري في الصحيح.

قال أصحاب القول الأول: وهذا لا ينافي قولنا وهو: أن يكون الله سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر، وليس المراد الشهادة العامة، فإن الله على كل شيء شهيد، بل المراد شهادة خاصة وهي شهادة حضور ودنو متصل بدنو الرب ونزوله إلى سماء الدنيا في الشطر الأخير من الليل.

وقد روى الليث بن سعد: حدثني زيادة بن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد الأنصاري، عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل، فيفتح الذكر في الساعة الأولى الذي لم يره غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت، ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن، وهي داره التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، وهي مسكنه لا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاث، وهم: النبيون والصديقون والشهداء، ثم يقول: طوبى لمن دخلك. ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته فتتنفض، فيقول: قومي بعزتي ثم يطلع إلى عبادته فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ ألا من سائل يسألني فأعطيه؟ ألا داع يدعوني فأجيبه؟ حتى تكون صلاة الفجر؛ ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يشهده الله ﷻ، وملائكته: ملائكة الليل والنهار»<sup>(٢)</sup>.

ففي هذا الحديث: أن النزول يدوم إلى صلاة الفجر، وعلى هذا، فيكون شهود الله سبحانه لقرآن الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له، وهذه خاصة بصلاة الصبح ليست لغيرها من الصلاة، وهذا لا ينافي دوام النزول في سائر الأحاديث إلى طلوع الفجر، ولا سيما هو معلق في بعضها على انفجار الصبح، وهو اتساع ضوئه. وفي لفظ: «حتى يضيء الفجر».

(١) رواه البخاري (٦٤٨)، ومسلم (٦٤٩).

(٢) إسناده ضعيف. رواه الطبري في التفسير (١٣٩/١٥)، والطبراني في (كتاب الدعاء) برقم (١٣٥)، والدارقطني في (كتاب النزول)، ص (١٥١)، كلهم من طريق (محمد بن زيادة الأنصاري)، منكر الحديث، كما في التقريب (٢٧١/١).

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، والبزار بنحوه وفيه زيادة بن محمد الأنصاري، وهو منكر الحديث. (١٥٤/١٠، ١٥٥).

تنبيه: أحاديث النزول صحيحة ثابتة عند الشيخين وغيرهما، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفي لفظ: «حتى يسطع الفجر»<sup>(١)</sup>، وذلك هو وقت قراءة الفجر.

وهذا دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين على تقديمها في أول وقتها، فكان النبي ﷺ: «يقرأ فيها بالسيتين إلى المائة ويطيل ركوعها وسجودها وينصرف منها والنساء لا يعرفن من الغلس»<sup>(٢)</sup>، وهذا لا يكون إلا مع شدة التقديم في أول الوقت؛ لتقع القراءة في وقت النزول فيحصل الشهود المخصوص، مع أنه قد جاء في بعض الأحاديث مصرحاً به دوام ذلك إلى الانصراف من صلاة الصبح. رواه الدارقطني في (كتاب نزول الرب كل ليلة إلى سماء الدنيا) من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله ﷻ إلى سماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارئ من صلاة الصبح»<sup>(٣)</sup>.

رواه عن محمد جماعة منهم سليمان بن بلال، وإسماعيل بن جعفر والدراوردي وحفص بن غياث ويزيد بن هارون وعبد الوهاب بن عطاء ومحمد بن جعفر والنضر بن شميل، كلهم قال: «أو ينصرف القارئ من صلاة الفجر»<sup>(٤)</sup>، فإن كانت هذه اللفظة محفوظة عن النبي ﷺ فهي صريحة في المعنى كاشفة للمراد، وإن لم تكن محفوظة، وكانت من شك الراوي: هل قال هذا أو هذا؟ فقد قدمنا أنه لا

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤٤٦/١، ٤٤٧) بلفظ: «حتى يسطع الفجر»، من طريق إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً، وإبراهيم الهجري فيه لين، كان يرفع الموقوفات، كما في التقريب (٤٣/١).

ورواه الدارقطني في كتاب النزول، ص (٩٩) من طريقه أيضاً، ورواه الإمام أحمد (٣٨٨/١ - ٤٠٣)، وأبو يعلى (٢١٩/٩) بلفظ: «حتى يطلع الفجر». قال الهيثمي في مجمع الزوائد (ورجالهما رجال الصحيح) (١٥٣/١٠).

(٢) رواه البخاري (٥٧٨)، ومسلم (٦٤٥).

(٣) الدارقطني في كتاب النزول، ص (١٠٣)، والإمام أحمد (٥٠٤/٢)، ورواه الدارمي (٢٨٦/١) في الصلاة، باب: ينزل الله إلى سماء الدنيا، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٨/١) وقال الألباني: حسن صحيح.

(٤) انظر هذه الطرق كلها في: (كتاب النزول) من (١٠٢) وما بعدها. واللفظة ثابتة - إن شاء الله تعالى - كما سبق.

منافاة بين اللفظين، وأن حديث الليث بن سعد عن محمد بن زياد يدل على دوام النزول إلى وقت صلاة الفجر؛ وأن تعليقه بالطلوع لكونه أول الوقت الذي يكون فيه الصعود.

كما رواه يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن الأغر أبي مسلم قال: شهدت على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ﷻ يمهل، حتى إذا كان ثلث الليل هبط إلى هذه السماء، ثم أمر بأبواب السماء ففتحت ثم قال: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأجيبه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من مستغيث أغيثه؟ هل من مضطر أكشف عنه؟ فلا يزال ذلك مكانه حتى يطلع الفجر في كل ليلة من الدنيا ثم يصعد إلى السماء»<sup>(١)</sup>.

قال الدارقطني: فزاد فيه يونس بن أبي إسحاق زيادة حسنة.

والمقصود: ذكر القرب من الإمام في صلاة الفجر وتقديمها في أول وقتها، والله أعلم<sup>(٢)</sup>.



وُفسر الدلوك بالزوال وُفسر بالغروب، وحكي قولين في كتب التفسير، وليس بقولين، بل اللفظ يتناولهما معاً، فإن الدلوك هو الميل ودلوك الشمس ميلها؛ ولهذا الميل مبدأ ومنتهى فمبدأه الزوال ومنتهاه الغروب، فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار، لا يتناول المشترك لمعنييه ولا اللفظ لحقيقته ومجازه، ومثاله ما تقدم من تفسير الغاسق بالليل والقمر، وإن ذلك ليس باختلاف، بل يتناولهما لتلازمهما فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة<sup>(٣)</sup>.



قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

(١) الدارقطني في (كتاب النزول)، ص (١٣٣)، وأما قوله: (زاد فيه يونس بن أبي إسحاق زيادة حسنة)، فهذه الزيادة وهي «ثم يصعد إلى السماء» مما تفرد بها «يونس» عن أبيه، فخالف رواية الثقات مثل (منصور، وشعبة، ومعمّر وأبي عوانة) وغيرهم، كما في كتاب النزول نفسه. خاصة أن (يونس) فيه غفلة وفي حديثه اضطراب، مع كونه صدوقاً، ولكن ليس مثل مسعر وشعبة)، كما في ميزان الاعتدال للذهبي (٤/ ٤٨٢، ٤٨٣). وانظر: السير (٧/ ٢٦)، والحديث رواه مسلم (٢/ ٤٠٩) في المساجد، باب: صلاة الليل، والإمام أحمد رحمه الله تعالى برقم (٨٩٦٢ و ١١٣١٥)، وأبو عوانة (٢/ ٢٨٨)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٩١ - ٢٩٣) المحققة.

(٢) طريق الهجرتين (١٩٧ - ١٩٩). (٣) بدائع الفوائد (٣/ ٣).

قد اختلف السلف والخلف في أنه: هل كان فرضاً عليه أم لا؟ والطائفتان احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾.

قالوا: فهذا صريح في عدم الوجوب.

قال الآخرون: أمره بالتهجد في هذه السورة، كما أمره في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْزَمِيلُ﴾ (١) ﴿فَرِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١، ٢]. ولم يجئ ما ينسخه عنه، وأما قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾. فلو كان المراد به التطوع، لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما المراد بالنافلة الزيادة، ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أي: زيادة على الولد، وكذلك النافلة في تهجد النبي ﷺ زيادة في درجاته، وفي أجره؛ ولهذا خصه بها، فإن قيام الليل في حق غيره مباح، ومكفر للسيئات، وأما النبي ﷺ، فقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهو يعمل على زيادة الدرجات وعلو المراتب، وغيره يعمل في التكفير.

قال مجاهد: إنما كان نافلة للنبي ﷺ؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت طاعته نافلة، أي: زيادة في الثواب وغيره كفارة لذنوبه.

قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا يعلى بن أبي عبيد، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج، عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد قال: ما سوى المكتوبة فهو نافلة.

من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب، وليست للناس نوافل، إنما هي للنبي ﷺ خاصة، والناس جميعاً يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها<sup>(١)</sup>.

حدثنا محمد بن نصر، حدثنا عبد الله، حدثنا عمرو، عن سعيد وقبيصة، عن سفيان، عن أبي عثمان، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾. قال: لا تكون نافلة الليل إلا للنبي ﷺ<sup>(٢)</sup>.

وذكر عن الضحاك قال: نافلة للنبي ﷺ خاصة.

وذكر سليم بن حيان، حدثنا أبو غالب، حدثنا أبو أمامة، قال: إذا وضعت الطهور مواضعه، قمت مغفوراً لك، فإن قمت تصلي، كانت لك فضيلة وأجرأ، فقال رجل: يا أبا أمامة، أرايت إن قام يصلي تكون له نافلة؟ قال: لا، إنما النافلة للنبي ﷺ، فكيف يكون له نافلة، وهو يسعى في الذنوب والخطايا؟! تكون له

(١) رواه الطبري (١٤٣/١)، وتعقبه. وانظر: الدر المنثور (٣٢٣/٥).

(٢) انظر: مختصر قيام الليل، ص(١١)، وأصله لمحمد بن نصر المروزي، واختصره المقرئ.

فضيلة وأجراً<sup>(١)</sup>.

قلت: والمقصود أن النافلة في الآية، لم يُرد بها ما يجوز فعله وتركه، كالمستحب، والمندوب، وإنما المراد بها الزيادة في الدرجات، وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب، فلا يكون قوله: ﴿نَافِلَةٌ لَّكَ﴾ نافياً لما دلَّ عليه الأمر من الوجوب<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

أمر رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، وأخبر عن خليله إبراهيم عليه السلام، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين. فقال: ﴿وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ الْتَّائِبِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته، بالظفر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر.

ومخرج الصدق: كمخرجه عليه السلام هو وأصحابه في تلك الغزوة، وكذلك مدخله عليه السلام المدينة: كان مدخل صدق بالله، والله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢٥٥/٥)، وانظر: الدر المنثور (٣٢٤/٥).

(٢) زاد المعاد (٣٢٢/١)، (٣٢٣).

رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادة لله ولرسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبقار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود والمحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة. فإنه لما كان مدخل كذب أصابهم معه ما أصابهم.

فكل مدخل ومخرج كان بالله والله، فصاحبه ضامن على الله، فهو مدخل صدق ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك، يريد أن لا يكون المخرج مخرج صدق، ولذلك فسر<sup>(١)</sup> مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه ﷺ من مكة، ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل، فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه ﷺ، وإلا فمداخله ومخارجه كلها مداخل صدق، ومخارجه مخرج صدق، إذ هي لله وبالله وبأمره، ولا بتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلاً آخر إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء الكذب، كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

والمراد باللسان هاهنا: الثناء الحسن<sup>(٢)</sup>. فلما كان الصدق باللسان، وهو محله، أطلق الله سبحانه السنة العباد بالثناء على الصادق، جزاءً وفاقاً، وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقوله: ﴿وَأَخْلَقْنَا لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. ويراد به الجارحة نفسها كما في قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦].

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة، وفسر بمحمد ﷺ، وفسر بالأعمال الصالحة<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/١٤٨). (٢) تفسير الطبري (١٦/٩٣).

(٣) انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري (١١/٨٠ - ٨٣)، ورجح الطبري أن الصواب قول من =

وحقيقة القدم: ما قدموه، وما يُقدّمون عليه يوم القيامة، وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك. فمن فسر به أراد: ما يقدمون عليه، ومن فسر به بالأعمال وبالنبي ﷺ: فلأنهم قدموها وقدموا الإيمان به بين أيديهم فالثلاثة قدم صدق. وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى، ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته، فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله. فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل ونافع غير ضار، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. (من) هنا لبيان الجنس، لا للتبعض. فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَنَاقِبُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فهو شفاء للقلوب من داء الجهل، والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم، ولا أسرع في إزالة الداء من القرآن<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]. معنى الآية: كل يعمل على ما يشاكلة ويناسبه ويليق به، فالفاجر يعمل على ما يليق به، وكذلك الكافر والمنافق ومريد الدنيا وجيفتها: عامل على ما يناسبه، ولا يليق به سواه، ومحب الصور: عامل على ما يناسبه ويليق به. فكل امرئ يهفو إلى ما يحبه وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه فالمريد الصادق المحب لله: يعمل ما هو اللائق به والمناسب له، فهو يعمل على شاكلة إرادته وما هو الأليق به، والأنسب لها<sup>(٣)</sup>.

= قال: معناه: «أن لهم أعمالاً صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثواب...»، وإن كان جمع ابن القيم بين الأقوال حسناً جيداً.

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٠ - ٢٧٢).

(٢) الجواب الكافي (٤).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٧١).

والنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدتها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدنئات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقدار، فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقه والخيانة؛ لأنها أكبر من كل ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾، أي: على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعاداته التي ألفها وجبل عليها.

فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبة والثناء عليه، والتودد إليه والحياء منه، والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

فمعلوم قطعاً أنه ليس المراد هاهنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام، فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به، وإنما المراد بالأمر هاهنا المأمور، وهو عرف مستعمل في لغة العرب وفي القرآن منه كثير.

كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمَرَ اللَّهُ﴾ [النحل: ١]. أي: مأموره الذي قدره وقضاه وقال له: كن فيكون.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١]. أي: مأموره الذي أمر به من إهلاكهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمَرَ السَّاعَةِ إِلَّا كَلِمَتٍ الْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

فليس في قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما، وقد قال بعض السلف في تفسيرها: جرى بأمر الله في أجساد الخلق وبقدرته استقر.

وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان، وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف، وأكثر السلف بل كلهم<sup>(٢)</sup> على أن الروح المسؤول عنها في الآية

(١) الفوائد (١٧٣، ١٧٤).

(٢) وتفسير السلف أيضاً موقوفة، وليس فيها شيء مرفوع لبيان المراد بالروح في قوله تعالى هنا. وانظر: تفسير الطبري (١٥/١٥٦).

ليست أرواح بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه، أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم.

وقد ثبت في الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: بينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ في حرة المدينة وهو متكئ على عسيب، فمررنا على نفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء يكرهونه، وقال بعضهم: نسأله. فقام رجل فقال: يا أبا القاسم: ما الروح؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ فعلمت أنه يوحى إليه فقامت فلما تجلّى عنه قال: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(١)</sup>. ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي، وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس.

وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

والروح في القرآن على عدة أوجه:

أحدها: الوحي كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَتَيْنَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْنَا مِنْ رَبِّكَ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال الحافظ المدقق ابن حجر رحمه الله تعالى: وجنح ابن القيم في كتاب الروح إلى ترجيح أن المراد بالروح المسؤول عنها في الآية ما وقع في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْجَسَدُ صَفًّا﴾ [النبا: ٣٨]. قال: «وأما أرواح بني آدم فلم يقع تسميتها في القرآن إلا نفساً، الروح، ص (١٥٠ - ١٥٤)، قال ابن حجر: «كذا قال، ولا دلالة في ذلك لما رجحه، بل الراجح الأول، فقد أخرج الطبري (١٥٦/١٥) من طريق العوفي عن ابن عباس في هذه القصة أنهم قالوا عن الروح: وكيف يعذب الروح الذي في الجسد، وإنما الروح من الله؟ فنزلت الآية».

فتح الباري (٢٥٥/٨، ٢٥٦) التفسير، باب ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾.

قلت: ولكن هذا النقل عن ابن عباس مسلسل بالضعفاء، كما حقق ذلك الشيخ أحمد شاکر رحمه الله تعالى في تحقيقه على الطبري (٢٦٣/١، ٢٦٤) رقم (٣٠٥)، وقد ذهب الشوكاني إلى أنها «الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته» ورجحه كما في تفسيره (فتح القدير) (٢٥٤/٣)، والله أعلم.

(١) رواه البخاري (٤٧٢١)، ومسلم (٢٧٩٤).

(٢) وفسر الرازي الآية بناءً على أن الروح المسؤول عنها هي روح بني آدم التي هي سبب الحياة، وأورد من كلام الفلاسفة أموراً عجيبة وغريبة. التفسير الكبير (٣٠/٢١) وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]. وسمى الوحي روحاً؛ لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

الثاني: القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين، كما قال: ﴿أَوَلَيْكَ كِتَابٌ فِي قُلُوبِهِمْ آلَايَمَنُ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الثالث: جبريل كقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ عِدُوًّا لِحَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وهوروح القدس، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢].

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا: بأنها من أمر الله، وقد قيل: إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبا: ٣٨]، وأنها الروح المذكور في قوله: ﴿نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [القدر: ٤].

الخامس: المسيح ابن مريم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس، قال تعالى: ﴿يَتَابَعْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [ص: ٧]، فآلهمها فجورها وتقونها [الشمس: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة (١)(٢).

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩].

(١) قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «وفي هذه الآية ما يزرع الخاضعين في شأن الروح، المتكلمين لبیان ما هيئته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا، وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر ومائة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاقل عن النفع...» اهـ. مختصراً من فتح القدير (٢٥٤/٣) فراجع، فإنه مفيد، والله أعلم.

(٢) الروح (١٥٠ - ١٥٤).

جاء هذا رداً على الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْذَا كُنَّا عَظَمَاءَ وَرَفُنَا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

أي: مثل هؤلاء المكذبين، والمراد به النشأة الثانية وهي الخلق الجديد، وهي المثل المذكور في غير موضع، وهم هم بأعيانهم، فلا تنافي في شيء من ذلك، بل هو الحق الذي دل عليه العقل والسمع، ومن لم يفهم ذلك حق فهمه تخبط عليه أمر المعاد، وبقي منه في أمر مريب.

والمقصود: أنه دلهم سبحانه بخلق السماوات والأرض على الإعادة والبعث، وأكد هذا القياس بضرب من الأولى، وهو أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فالقادر على خلق ما هو أكبر وأعظم منكم أقدر على خلقكم وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته، فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب الله ورسله، وتعجيز قدرته، ونسبة علمه إلى القصور والقدح في حكمته؛ ولهذا يخبر الله سبحانه عمن أنكر ذلك: بأنه كافر بربه، جاحد له، ولم يقر برب العالمين فاطر السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلِإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ إِذْذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ نَارًا لِفِئِ خَلْقِ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٥].

وقال المؤمن للكافر الذي قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، فقال له: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَاطِقٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

أي: هالكاً، على قراءة من فتح التاء<sup>(٢)</sup> وهي قراءة الجمهور، وضمها الكسائي وحده.

وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى، وبها تقوم الدلالة ويتم الإلزام بتحقيق كفر فرعون وعناده، ويشهد لها قوله تعالى إخباراً عنه وعن قومه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا يَكُونُ مَبْصُرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٧﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَفْتِنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا

(١) إعلام الموقعين (١/١٩٦، ١٩٧).

(٢) كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد، ص (٣٨٥) وانظر: الطبري (١٥/١٧٤).

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ [النمل: ١٣، ١٤]. فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين، وهو أقوى العلم ظلماً منهم وعلواً لا جهلاً<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

فهذا الدعاء المشهور وأنه دعاء المسألة وهو سبب النزول، قالوا: كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول مرة: «يا الله»، ومرة: «يا رحمن»، فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال ابن عباس: سمع المشركون النبي ﷺ يدعو في سجوده يا رحمن يا رحيم، فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثني مثني، فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾<sup>(٢)</sup>. وقيل: إن الدعاء هاهنا بمعنى: التسمية كقولهم: دعوت ولدي سعيداً وادعه بعبد الله ونحوه.

والمعنى: سموا الله أو سموا الرحمن، فالدعاء هاهنا بمعنى: التسمية، وهذا قول الزمخشري<sup>(٣)</sup>، والذي حمّله على هذا قوله: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، فإن المراد بتعدد معني، أي: وعمومها هاهنا تعدد الأسماء ليس إلا.

والمعنى: أي اسم سمّيته به من أسماء الله تعالى إما الله وإما الرحمن فله الأسماء الحسنى، أي: فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى، والضمير في (له) يعود إلى المسمى، فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية. وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد. بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الشاء ولكنه متضمن معنى التسمية، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الشاء والطلب، فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في (تدعوا) معنى: تسمّوا، فتأمل، والمعنى: أيما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم، والله أعلم<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) مفتاح دار السعادة (٩٩).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٨٢/١٥) عن ابن عباس ؓ، وعن مكحول مرسلاً.

(٣) الكشاف للزمخشري (٣٧٨/٢). (٤) بدائع الفوائد (٥/٣).

## سُورَةُ الْكَهْفِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

فأخبر سبحانه أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان، كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك؛ وخلق السماوات والأرض لهذا الابتلاء أيضاً<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

إن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر، فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق، وذاقوا حلاوته، وباشروا قلوبهم، فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

والربط على قلوبهم: يتضمن الشد عليها بالصبر والثبوت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش. وفروا بدينهم إلى الكهف.

والربط على القلب: عكس الخذلان، فالخذلان: حَلُّهُ من رباط التوفيق، فيغفل عن ذكر ربه ويتبع هواه، ويصير أمره فرطاً، والربط على القلب: شده برباط التوفيق فيتصل بذكر ربه، ويتبع مرضاته، ويجتمع عليه شمله<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) عدة الصابرين (١٦٠).

(٢) مدارج السالكين (٣/٦٧، ٦٨).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢].

استنبط السهيلي في الروض<sup>(١)</sup> أن عدة أصحاب الكهف سبعة، قال: لأن الله تعالى عطف عليهم الكلب بحرف الواو، فقال: ﴿وَتَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، ولم يذكر الواو فيما قبل ذلك من كلامهم، والواو تقتضي تقرير الجملة الأولى.

وما استنبطه حسن، غير أنه إنما يفيد إذا كان المعطوف بالواو ليس داخلاً في جملة قولهم، بل يكون قد حكى سبحانه أنهم قالوا: ﴿سَبْعَةٌ﴾، ثم أخبر تعالى: أن ﴿وَتَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فحينئذ يكون ذلك تقريراً لما قالوه وإخباراً بكون الكلب ثامناً، وأما إذا كان الإخبار عن الكلب من جملة قولهم. وأنهم قالوا هذا وهذا لم يظهر ما قاله، ولا تقتضي الواو في ذلك تقريراً ولا تصديقاً، فتأمل<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادَّكَّرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

وتفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء، أفعَل كذا وكذا حتى تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت أن تقولها، فقلها متى ذكرتها، وهذا هو الاستثناء المتراخي، الذي جوزَه ابن عباس، وتأول عليه الآية، وهو الصواب.

والذي أجمع عليه المفسرون<sup>(٣)</sup>: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين، فقال: «أخبركم غداً»، ولم يقل: (إن شاء الله)، فتلبث الوحي ثم نزلت هذه الآية، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: معناه: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن.

قال ابن عباس رضي الله عنه: ويجوز الاستثناء إلى سنة.

(١) الروض الأنف (٣/ ١٦٩، ١٧٠). (٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٦).

(٣) رواه ابن إسحاق في السيرة (١/ ٣٢١). وانظر: الروض الأنف (٣/ ١٢٨)، والطبري في تفسيره من طريق ابن إسحاق (١٥/ ١٩٠). وهذا سند ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق، ومر سبب نزول آية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ في سورة الإسراء، فراجعه عند الآية (٨٥). وادعاء الإجماع يحتاج لتحقيق، ولا يخفى بعده.

وقال عكرمة رحمه الله: واذكر ربك إذا غضبت.

وقال الضحاك والسدي: هذا في الصلاة، أي: إذا نسيت الصلاة فصلها متى ذكرتها<sup>(١)</sup>.

ويشرع الاستثناء في الوعد والوعيد والخبر عن المستقبل، كقوله: غداً أفعل إن شاء الله.

وقد عتب الله على رسوله ﷺ حيث قال لمن سأله من أهل الكتاب عن أشياء: «غداً أخبركم»<sup>(٢)</sup>، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه شهراً ثم نزلت.

أي: إذا نسيت ذلك الاستثناء عقيب كلامك، فاذكره به إذا ذكرت، هذا معنى الآية، وهو الذي أراده ابن عباس بصحة الاستثناء<sup>(٣)</sup> المتراخي.

ولم يقل ابن عباس قط، ولا من دونه: إن الرجل إذا قال لامرأته: أنت طالق، أو لعبده: أنت حر، ثم قال بعد سنة: إن شاء الله، أنها لا تطلق، ولا يعتق العبد، وأخطأ من نقل ذلك عن ابن عباس أو عن أحد من أهل العلم البتة، ولم يفهموا مراد ابن عباس<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

سُئِلَ أبو العباس ثعلب عن قوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾، فقال: جعلناه غافلاً. قال: ويكون في الكلام أغفلته سميته غافلاً.

قلت: الغفل الشيء الفارغ، والأرض الغفل التي لا علامة بها، والكتاب الغفل الذي لا شكل عليه، فأغفلناه تركناه غفلاً عن الذكر فارغاً منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي؛ لأنه سبحانه لم يشأ له الذكر فبقي غافلاً، فالغفلة وصفه، والإغفال فعل الله فيه بمشيئته وعدم مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفله، فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، وإذا شاء غفله امتنع منه التذكر.

(٢) انظر: التعليق السابق.

(١) مدارج السالكين (٢/٤٣١).

(٣) وإلى هذا ذهب الطبري رحمه الله تعالى، كما في تفسيره (٢٢٨/١٥). وذكره ابن كثير عنه، وصححه (٣/٨٤، ٨٥).

(٤) إعلام الموقعين (٤/٩٧).

فإن قيل: فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة الرب أضدادها أم إلى مشيئته لوقوعها؟

قيل: القرآن قد نطق بهذا، وبهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١].

وقال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإن قيل: فكيف يكون عدم السبب المقتضي موجباً للأثر؟  
قيل: الأثر إن كان وجودياً فلا بد له من مؤثر وجودي، وأما العدم فيكفي فيه عدم سببه وموجبه فيبقى على العدم الأصلي، فإذا أضيف إليه كان من باب إضافة الشيء إلى دليله، فعدم السبب دليل على عدم المسبب، وإذا سمي موجباً ومقتضياً بهذا الاعتبار فلا مشاحة في ذلك.

وأما أن يكون العدم أثراً ومؤثراً فلا.

وهذا الإغفال ترتب عليه اتباع هواه وتفريطه في أمره.

قال الفراء: فرطاً: متروكاً يفرط فيما لا ينبغي التفريط فيه، واتباع ما لا ينبغي اتباعه، وغفل عما لا يحسن الغفلة عنه<sup>(١)</sup>.

فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلي نظر: هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى، وهو من أهل الغفلة كان فرطاً، ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه، وفسر بالإسراف، أي: قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق، وكلها أقوال متقاربة.

والمقصود: أن الله ﷻ نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى ﷻ واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره فليستمسك بغيره.

ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت<sup>(٢)</sup>.

(١) شفاء العليل (٩٨).

(٢) الوابل الصيب (٦٠، ٦١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ [الكهف: ٣٠ - ٣١].

قال جماعة من المفسرين: السندس: ما رق من الديباج، والاستبرق: ما غلظ منه، وقالت طائفة: ليس المراد به الغليظ ولكن المراد به الصفيق.

وقال الزجاج: هما نوعان من الحرير، وأحسن الألوان الأخضر، وألين اللباس الحرير، فجمع لهم بين حسن منظر اللباس، والتذاذ العين به، وبين نعومته والتذاذ الجسم به<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

ذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وأن الباقيات الصالحات وهي الأعمال والأقوال الصالحة التي يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها، خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَنَتَّخِذُهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ۚ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدره، وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له، تكريماً له وتشريفاً، فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم أعدى عدو لكم، فواليتهم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته، ومن وإلى أعداء الملك، كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له، فهذا محال،

هذا لو لم يكن عدو الملك عدواً لكم، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه عدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه؟ ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾. كما نبه على قبحها بقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾.

فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا، كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟! بش للظالمين بدلاً.

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أنني عادت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعادة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة<sup>(١)</sup>؟!

قال: فتأمل ما تحت هذه المعاتبة وما في طي هذا الخطاب من سوء هذا العبد، وما تعرض له من المقت والخزي والهوان، ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه إياه إلى العود إلى وليه ومولاه الحق الذي هو أولى به، فإذا عاد إليه وتاب إليه فهو بمثابة من أسر له العدو محبوباً له، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء إلى محبه اختياراً وطوعاً حتى توسد عتبة بابه، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسداً عتبة بابه واضعاً خده وذقنه عليها، فكيف يكون فرحه؟ والله المثل الأعلى<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

لما سافر موسى إلى الخضر وجد في طريقه مس الجوع والنصب، فإنه سفر إلى مخلوق، ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر، فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب، فإنه سفر إلى ربه تعالى، وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَاطْلُقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلْهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

(١) الجواب الكافي (الداء والدواء) (١١٨، ١١٩).

(٢) طريق الهجرتين (٢٢٤، ٢٢٥). (٣) بدائع الفوائد (٢٠٣/٣).

وهذا الغلام الذي قتله الخضر يحتمل أنه كان بالغاً مطلقاً، وسمي (غلاماً) لقرب عهده بالبلوغ، وعلى هذا فلا إشكال فيه ويحتمل أن يكون مميزاً عقلاً وإن لم يكن بالغاً، وعليه يدل الحديث، وهو قوله: «ولو أدرك لأرهبك أبويه»<sup>(١)</sup>. وعلى هذا فلا يمتنع أن يكون مكلفاً في تلك الشريعة، إذ اشتراط البلوغ في التكليف إنما علم بشريعتنا، ولا يمتنع تكليف المراهق العاقل عقلاً، كيف وقد قال جماعة من العلماء: إن المميزين يكلفون بالإيمان قبل الاحتلام، كما قالت طائفة من أصحاب أبي حنيفة وأحمد، وهو اختيار أبي الخطاب، وعليه جماعة من أهل الكلام.

وعلى هذا فيمكن أن يكون هذا الغلام مكلفاً بالإيمان قبل البلوغ ولو لم يكن مكلفاً [بشرائعه]. فكفر الصبي المميز معتبر عند أكثر العلماء، فإذا ارتد عندهم صار مرتدّاً له أحكام المرتدين، وإن كان لا يقتل حتى يبلغ فيثبت عليه كفره، واتفقوا على أنه يضرب ويؤدب على كفره أعظم مما يؤدب على ترك الصلاة.

فإن كان الغلام الذي قتله الخضر بالغاً فلا إشكال، وإن كان مراهقاً غير بالغ فقتله جائز في تلك الشريعة؛ لأنه إنما قتله بأمر الله؛ كيف وهو إنما قتله دفعاً لصوله على أبويه في الدين؟ كما قال: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]. والصبي لو صال على المسلم في بدنه أو ماله ولم يندفع صياله للمسلم إلا بقتله جاز قتله، بل الصبي إذا قاتل المسلمين قتل.

ولكن من أين يعلم أن هذا الصبي اليوم يصل على أبويه أو غيرهما في دينهما حتى يفتنهما عنه؟ فإن هذا غيب لا سبيل لنا إلى العلم به؛ ولهذا علق ابن عباس الفتيا به فقال لنجدة لما استفتاه في قتل الغلمان: «إن علمت منهم ما علم الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا». رواه مسلم في صحيحه.

ولكن يقال: قاعدة الشرع والجزاء أن الله سبحانه لا يعاقب العباد بما سيعلم أنهم يفعلونه، بل لا يعاقبهم إلا بعد فعلهم ما يعلمون أنه نهى عنه وتقدم إليهم بالوعيد على فعله، وليس في قصة الخضر شيء من الاطلاع على الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وإنما فيها علمه بأسباب تقتضي أحكامها، ولم يعلم موسى تلك الأسباب: مثل علمه بأن السفينة كانت لمساكين، وأن وراءهم ملكاً ظالماً إن رآها

(١) حديث موسى ﷺ مع الخضر. رواه البخاري (٢٦٣/٨) في التفسير، باب: (فلما بلغ مجمع البحرين..)، ومسلم (٢٣٠/٥) في الفضائل، باب: فضائل الخضر، والترمذي (٥/٢٨٩) في التفسير، باب: ومن سورة الكهف، ورواه غيرهم.

أخذها فكان قلع لوح منها لتسلم جميعها ثم يعيده من أحسن الأحكام، وهو من دفع أعظم الشرين باحتمال أيسرهما.

وعلى هذا، فإذا رأى إنسان ظالماً يستأصل مال مسلم غائب فدفعه عنه ببعضه فكان محسناً، ولم يلزمه ضمان ما دفعه إلى الظالم قطعاً، فإنه محسن وما على المحسنين من سبيل، وكذلك لو رأى حيواناً مأكولاً لغيره يموت فذكاه لكان محسناً ولم يلزمه ضمانه، وكذلك كون الجدار لغلامين يتيمين، وأبوهما كان صالحاً، أمر يعلمه الناس ولكن خفي على موسى، وكذلك كفر الصبي يمكن أن يعلمه الناس حتى أبواه؛ ولكن لحبهما إياه لا ينكران عليه، ولا يقبل منهما، وإذا كان الأمر كذلك فليس في الآية حجة على أنه قتل لما يتوقع من كفره؛ ولو قدر أن ذلك الغلام لم يكفر أصلاً، ولكن سبق في علم الله أنه إذا بلغ يكفر وأطلع الله الخضر على ذلك.

فقد يقول القائل: قتله بالفعل كقتل نوح الأطفال الكفار بالدعوة المستجابة التي أغرقت أهل الأرض لما علم أن آباءهم لا يلدون إلا فاجراً كفاراً؛ فدعا عليهم بالهلاك العام دفعاً لشر أطفالهم في المستقبل، وقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]، لا ينافي كونهم مولودين على الفطرة الصحيحة، فإن قوله: ﴿فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ حالان مقدرتان: أي من سيفجر ويكفر<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

أي: أمامهم، بدليل قراءة ابن عباس: (وكان أمامهم ملك)، وهذا المذهب ضعيف، ووراء لا يكون أماماً وراء، إلا بالنسبة إلى شيئين فيكون أمام الشيء وراء لغيره، ووراء الشيء أماماً لغيره، فهذا الذي يعقل فيها، وأما أن يكون وراء زيد بمعنى: أمامه فكلا، وأما ما استدلوا به فلا حجة فيه.

وأما قوله تعالى: ﴿مَنْ وَرَّايَهُ جَهَنَّمَ﴾ [إبراهيم: ١٦].

فالمعنى: أنه ملاق جهنم بعد موته فهي من بعده، أي: بعد مفارقتها الدنيا، فهي لما كانت، بعد حياته كانت وراءه؛ لأن وراء كبعد، فكما لا يكون بعد قبل، فلا

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٥٨٤ - ٥٨٧).

يكون وراء أمام، وأنت لو قلت: جهنم بعد موت الكافر لم يكن فيها معنى قبل بوجه، فوراء هاهنا زمان لا مكان.

فتأمله رحمك الله تعالى فهي خلف زمان حياته وبعده، وهي أمامه ومستقبلته فكونها خلفاً وأماماً باعتبارين وإنما وقع الاشتباه؛ لأن بعدية الزمان إنما يكون فيما يستقبل أمامك، كقولك: بعد غد، وورائية المكان فيما تخلف وراء ظهره.

فمن وراءه جهنم: ورائية زمان ولا مكان، وهي إنما تكون في المستقبل الذي هو أمامك، فلما كان معنى الأمام لازماً لها ظن من ظن أنها مشتركة ولا اشتراك فيها. وكذلك قوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وكذلك ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠].

وأما قوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾، فإن صحت قراءة (وكان أمامهم ملك)، فلها معنى لا يناقض القراءة العامة وهو أن الملك كان خلف ظهورهم وكان مرجعهم عليه، فهو وراءهم في ذهابهم، وأمامهم في مرجعهم، فالقراءتان بالاعتبارين، والله سبحانه وتعالى أعلم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَنبَأْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: علماً. قال قتادة وابن زيد وابن جريج والضحاك: علماً تسبب به إلى ما يريد. وكذلك قال إسحاق: علماً يوصله إلى حيث يريد. وقال المبرد: وكل ما وصل شيئاً بشيء فهو سبب.

وقال كثير من المفسرين<sup>(٢)</sup>: آتيانه من كل ما بالخلق إليه حاجة علماً ومعونة له. وقد سمي الله سبحانه الطريق سبباً في قوله: ﴿فَأَنبَأَ سَبَبًا﴾، قال مجاهد: طريقاً. وقيل: السبب الثاني هو الأول، أي: أتبع سبباً من تلك الأسباب التي أوتيتها مما يوصله إلى مقصوده<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠٠، ١٠١].

(٢) انظر: تفسير الطبري (٩/١٦).

(١) بدائع الفوائد (٤/١٩٥، ١٩٦).

(٣) شفاء العليل (١٨٩).

وهذا يتضمن معنيين:

أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله، وأدلة توحيده وعجائب قدرته.

والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولاً ثم يسري منه إلى العين<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وهذا حال أرباب الأعمال التي كانت لغير الله ﷻ، أو على غير سنة رسول الله ﷺ. وحال أرباب العلوم والأنظار التي لم يتلقوها عن مشكاة النبوة، ولكن تلقوها عن زبالة أذهان الرجال وكناسة أفكارهم، فأتعبوا قواهم وأفكارهم وأذهانهم في تقرير آراء الرجال، والانتصار لهم، وفهم ما قالوه وبثه في المجالس والمحاضرات، وأعرضوا عما جاء به الرسول ﷺ صفحاً، ومن به رمق منهم يعيره أدنى التفات طلباً للفضيلة، وأما تجريد اتباعه وتحكيمه وتفرغ قوى النفس في طلبه وفهمه، وعرض آراء الرجال عليه ورد ما يخالفه منها وقبول ما وافقه، ولا يلتفت إلى شيء من آرائهم وأقوالهم إلا إذا أشرقت عليها شمس الوحي، وشهد لها بالصحة.

فهذا أمر لا تكاد ترى أحداً منهم يحدث به نفسه، فضلاً عن أن يكون أخيته ومطلوبه.

وهذا الذي لا ينجي سواه فوارحمتا لعبد شقي في طلب العلم، واستفرغ فيه قواه، واستنفد فيه أوقاته، وآثره على ما الناس فيه، والطريق بينه وبين رسول الله ﷺ مسدود، وقلبه عن المرسل ﷺ وتوحيده والإنابة إليه والتوكل عليه والتنعم بحبه والسرور بقربه مطرود، ومصدود، وقد طاف عمره كله على أبواب المذاهب فلم يفز إلا بأخس المطالب، سبحانه الله وإن هي والله إلا فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدتها، وحيرت العقول عن طرق قصدتها<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) شفاء العليل (٩٣).

(٢) اجتماع الجيوش (٢٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

والفردوس: اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات، وأصل الفردوس: البستان، والفرايس: البساتين. قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب. وقال الليث: الفردوس جنة ذات كروم. يقال: كرم مفردس، أي: معرش.

وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار، وهو اختيار المبرد. وقال: الفردوس: فيما سمعت من كلام العرب، الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وجمعه: الفرايس. قال: ولهذا سمي باب الفرايس بالشام، وأنشد لجير:

فقلت للركب إذا جد المسير بنا يا بعد نيرين من باب الفرايس  
وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية، واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين، قال حسان:

وإن ثواب الله كل مخلد جنان من الفردوس فيها يخلد<sup>(١)</sup>

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ، مراداً به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول؛ لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده؛ فلولاً العلم لما كان عمله مقبولاً، فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة<sup>(٢)</sup>.  
وكما أنه إله واحد، ولا إله سواه، فكذا ينبغي أن تكون العبادة له وحده،

(١) والصواب في معنى الفردوس - كما رجحه الطبري (٣٧/١٦) - وغيره ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ: أنها أوسط الجنة وأعلاها، منها ما رواه: البخاري (١٤/٦) في الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله وفيه: «إذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة...».

(٢) حادي الأرواح (٨٨، ٨٩). (٣) مفتاح دار السعادة (٩٠).

فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيّد بالسنة، وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه <sup>(١)</sup>: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً».

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العبادة، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً، فإنه ينزل منزلة من لم يعمله، فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله تعالى إنما أمر بعبادته عبادة خالصة، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول الله تعالى <sup>(٢)</sup>: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيри، فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء» <sup>(٣)</sup>.



(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد، كما في كنز العمال (١/٦٧٥).

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٣) الجواب الكافي (الداء والدواء) (١٩٦).

## سُورَةُ مَرْيَمَ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].  
[إنه من] قول زكريا عليه السلام.

فقد قيل: إنه دعاء المسألة، والمعنى: إنك عودتني إجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه، كما حكى أن رجلاً سأل رجلاً وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا وكذا؟! فقال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا وقضى حاجته، وهذا ظاهرها هنا ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].  
وقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٢٣].  
(قيل): ما الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة؟

فسره والله أعلم: أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة، وكلما كان الموضع مظنة ذلك تأكد طلب السلامة، وتعلقت بها المهمة فذكرت هذه المواطن الثلاثة؛ لأن السلامة فيها أكد وطلبها أهم، والنفس عليها أحرص؛ لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقراً فيها، موطن النفس على صحبتها وسكنائها، إلى دار هو فيها معرض للآفات والمحن والبلاء، فإن الجنين من حين خرج إلى هذه الدار انتصب لبلاتها وشدائدها ولأوائها ومحنها وأفكارها،

(١) بدائع الفوائد (٤/٣، ٥).

كما أفصح الشاعر بهذا المعنى حيث يقول:

تأمل بكاء الطفل عند خروجه إلى هذه الدنيا إذا هو يولد  
تجد تحته سرّاً عجيباً كأنه بكل الذي يلقيه منها مهدد  
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد  
ولهذا من حين ابتدرته طعنة الشيطان في خاصرته فبكى لذلك؛ ولما حصل له  
من الوحشة بفراق وطنه الأول وهو الذي أدركه الأطباء والطبائعيون، وأما ما أخبر  
به الرسول ﷺ فليس في صناعتهم ما يدل عليه كما ليس فيها ما ينفيه، فكان طلب  
السلامة في هذه المواطن من أكد الأمور.

الموطن الثاني: خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت، ونسبة الدنيا  
إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريباً وتمثيلاً، وإلا فالأمر أعظم  
من ذلك وأكبر، وطلب السلامة أيضاً عند انتقاله إلى تلك الدار من أهم الأمور.  
الموطن الثالث: موطن يوم القيامة يوم يبعث الله الأحياء، ولا نسبة لما قبله من  
الدور إليه، وطلب السلامة فيه أكد من جميع ما قبله، فإن عطبه لا يستدرك، وعثرته  
لا تقال، وسقمه لا يداوى، وفقره لا يسد.

فتأمل كيف خص هذه المواطن بالسلام لشدة الحاجة إلى السلامة فيها.  
واعرف قدر القرآن وما تضمنه من الأسرار وكنوز العلم والمعارف التي عجزت  
عقول الخلائق عن إحصاء عشر معشارها، وتأمل ما في السلام مع الزيادة على  
السلامة من الأنس وذهاب الوحشة، ثم نزل ذلك على الوحشة الحاصلة للعبد في  
هذه المواطن الثلاثة عند خروجه إلى عالم الابتلاء، وعند معاينته هول المطلع إذا  
قدم على الله وحيداً مجرداً عن كل مؤنس إلا ما قدمه من صالح عمل وعند موافاته  
القيامة مع الجمع الأعظم؛ ليصير إلى إحدى الدارين التي خلق لها، واستعمل  
بعمل أهلها، فأَي موطن أحق بطلب السلامة من هذه المواطن؟ فنسأل الله السلامة  
فيها بمنه وكرمه ولطفه وجوده وإحسانه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

قال سفيان بن عيينة: جعلني مباركاً أينما كنت، قال: معلماً للخير. وهذا يدل

على تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه، فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه؛ ولهذا سمي سبحانه كتابه مباركاً، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وقال: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]. ووصف رسوله بأنه مبارك كما في قول المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، ثم يقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (متفق عليه)<sup>(٢)</sup>.

وفي الصحيحين أيضاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كل خالد فيما هو فيه»<sup>(٣)</sup>. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وصار أهل النار إلى النار، أتى بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة: لا موت ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»<sup>(٤)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتى بالموت ملبياً، فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقال: يا أهل الجنة فيطلعون خائفين، ثم يقال: يا أهل النار فيطلعون

(١) مفتاح دار السعادة (١٩٠).

(٢) رواه البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩).

(٣) رواه البخاري (٤١٤/١١) في الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، ومسلم (٧٠٦/٥) في صفة الجنة، باب: النار يدخلها الجبارون.

(٤) رواه البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠).

مستبشرين يرجون الشفاعة، فيقال لأهل الجنة وأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقول هؤلاء وهؤلاء: قد عرفناه وهو الموت الذي وكل بنا، فيضجع فيذبح ذبحاً على السور، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت<sup>(١)</sup>. رواه النسائي والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وهذا الكبش والإضجاع، والذبح ومعاناة الفريقين، ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل، كما أخطأ فيه بعض الناس خطأ قبيحاً: وقال: الموت عرض، والعرض لا يتجسم فضلاً عن أن يذبح وهذا لا يصح؛ فإن الله سبحانه ينشئ من الموت صورة كبش يذبح، كما ينشئ من الأعمال صوراً معاناة يثاب بها ويعاقب، والله تعالى ينشئ من الأعراض أجساماً تكون الأعراض مادة لها وينشئ من الأجسام أعراضاً، كما ينشئ سبحانه من الأعراض أعراضاً ومن الأجسام أجساماً.

فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرب تبارك وتعالى، ولا يستلزم جمعاً بين النقيضين ولا شيئاً من المحال، ولا حاجة إلى تكلف من قال: إن الذبح لملك الموت، فهذا كله من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله، والتأويل الباطل الذي لا يوجهه عقل ولا نقل، وسببه قلة الفهم لمراد الرسول ﷺ من كلامه، فظن هذا القائل أن لفظ الحديث يدل على أن نفس العرض تذبح.

وظن غالط آخر أن العرض يعدم ويزول ويصير مكانه جسم يذبح، ولم يهتد الفريقان إلى هذا القول الذي ذكرناه، وأن الله سبحانه ينشئ من الأعراض أجساماً يجعلها مادة لها، كما في الصحيح عنه ﷺ: «تجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان» الحديث<sup>(٢)</sup>. فهذه هي القراءة التي ينشئها الله سبحانه غمامتين.

وكذلك قوله في الحديث الآخر: «إن ما تذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل يذكرن بصاحبهن»<sup>(٣)</sup>. ذكره أحمد.

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله (٢/٢٦١)، وابن ماجه (٢/٤٣٥) صحيح ابن ماجه، في الزهد، باب: صفة النار.

والترمذي (٤/٥٩٦) في صفة الجنة، باب: ما جاء في خلود أهل الجنة وأهل النار، وقال: (حديث حسن صحيح). ولم أهدأ إليه عند النسائي، والله أعلم.

(٢) رواه مسلم (٨٠٤).

(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/٢٦٨ - ٢٧١)، وابن ماجه (٢/١٢٥٢) في الأدب، باب: فضل التسييح.

وكذلك قوله في حديث عذاب<sup>(١)</sup> القبر ونعيمه للصورة التي يراها: «فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، وأنا عملك السيئ». وهذا حقيقة لا خيال، ولكن الله أنشأ له من عمله صورة حسنة وصورة قبيحة.

وهل النور الذي يقسم بين المؤمنين يوم القيامة إلا نفس إيمانهم أنشأ الله سبحانه لهم منه نوراً يسعى بين أيديهم؟

فهذا أمر معقول لو لم يرد به النص، فورود النص به من باب تطابق السمع والعقل.

وقال سعيد عن قتادة: بلغنا أن نبي<sup>(٢)</sup> الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة وبشارة حسنة، فيقول له: من أنت؟ فوالله إني لأراك امرأ الصديق، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة. وأما الكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيئة وبشارة سيئة فيقول: ما أنت؟ فوالله إني لأراك امرأ السوء، فيقول له: أنا عملك فينطلق به حتى يدخل النار».

وقال مجاهد مثل ذلك، وقال ابن جريج: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟؟ فيقول له: أنا عملك فيجعل له نوراً بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]. والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلزم صاحبه حتى يقذفه في النار.

وقال ابن المبارك: ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن: أنه ذكر هذه الآية: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: ٥٨، ٥٩]. قال: علموا أن كل نعيم بعده الموت أنه يقطعه، فقالوا: أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين؟ قيل: لا، قالوا: إن هذا لهو الفوز العظيم.

= قال البوصيري في الزوائد: (إسناده صحيح، رجال ثقات) (٣/١٩٣)، والحاكم (١/٥٠٣)، صححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، كلهم من حديث (النعمان بن بشير) رضي الله عنه.

(١) يقصد حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الصحيح، وأوله: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فجلس رسول الله ﷺ...»، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مواضع منها (٤/٢٩٥)، وأبو داود الطيالسي، ص (١٠٢) برقم (٧٥٣)، والحاكم (١/٣٧، ٣٩، ٤٠)، ورواه غيرهم، وانظر: تخريجه مفصلاً في كتاب (أحكام الجنائز)، ص (١٥٦ - ١٥٩) للعلامة الألباني حفظه الله تعالى.

(٢) مرسل، راجع: حديث البراء.

وكان يزيد الرقاشي يقول في كلامه: أمن أهل الجنة من الموت فطاب لهم العيش، وأمنا من الأسقام فهناهم في جوار الله طول المقام، ثم يبكي حتى تجري دموعه على لحيته<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ﴾ [٤٢] يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿[مريم: ٤٢، ٤٣].

ابتدأ إبراهيم الخليل خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ولم يقل: لا تعبد.

ثم قال: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣]. فلم يقل له: إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى اللفظ عبارة تدل على هذا المعنى فقال: ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ثم قال: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾. وهذا مثل قول موسى لفرعون: ﴿وَأَهْدِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات: ١٩].

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥].

فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه. وقال: (يمسك) فذكر لفظ المس الذي هو اللفظ من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن، ولم يقل: الجبار ولا القهار.

فأي خطاب ألطف وألين من هذا. ونظير هذا خطاب صاحب يس لقومه، حيث قال: ﴿يَنْقُورِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۚ﴾ [٢١] اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهِتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ رُجُوعُونَ ﴿[يس: ٢٠، ٢٢]. ونظير ذلك قول نوح لقومه: ﴿قَالَ يَنْقُورِ إِنِّي لَكُم مِّنْ ذُنُوبِكُمْ تَوْبًا ۚ﴾ [٢١] أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ۚ يَغْفِر لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿[نوح: ٢ - ٤].

وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن إذا تأملت وجدته ألين خطاب والطفه، بل خطاب الله لعباده ألطف خطاب وألينه، كقوله تعالى: ﴿يَتَابَتِ النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. الآيات.

وقوله تعالى: ﴿يَتَابِعُهَا النَّاسُ حُرْبٍ مِّثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ<sup>(١)</sup> مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]. وقوله: ﴿يَتَابِعُهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وتأمل ما في قول الله تعالى ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، من اللطف الذي سلب العقول، وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]. على أحد التأويلين، أي: نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ونعرض عنكم إذا عرضتم أنتم وأسرفتم<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وقد فسر الصحابة والتابعون إضاعتها بتفويت وقتها، والتحقيق أن إضاعتها تناول تركها وترك وقتها وترك واجباتها وأركانها، وأيضاً فإن مؤخرها عن وقتها عمداً متعدياً لحدود الله، كمقدمها عن وقتها<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَينَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا ۖ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٤، ٦٥].

فهذا الرب الذي له هذا الجند العظيم، ولا ينزلون إلا بأمره، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم، وما بين ذلك، فهو الذي قد كملت قدرته وسلطانه وملكه، وكمل علمه، فلا ينسى شيئاً أبداً، وهو القائم بتدبير أمر السماوات والأرض وما بينهما، كما هو الخالق لذلك كله، وهو ربه ومليكه، فهذا الرب هو الذي لا سمي له؛ لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال، فأما من لا صفة له ولا فعل ولا حقائق لأسمائه، إن هي إلا ألفاظ فارغة من المعاني، فالعدم سمي له<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) قال القرطبي: قرأ العامة «تدعون» بالياء، وقرأ السلمي وأبو العالية ويعقوب «يدعون» بالياء على الخبر. تفسير القرطبي (٥/٤٤٨٩).

(٢) بدائع الفوائد (٣/١٣٣، ١٣٤). (٣) كتاب الصلاة (٧٦).

(٤) الصواعق المرسلة (٣/١٠٢٨).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أُمَّةً أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩].  
 فالشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضاً، أي: تابعه. ومنه الأشياع، أي: الأتباع.  
 فالفرق بين الشيعة والأشياع أن الأشياع هم التابع، والشيعة القوم الذين شايعوا،  
 أي: تبع بعضهم بعضاً، وغالب ما يستعمل في الذم. ولعله لم يرد في القرآن إلا  
 كذلك كهذه الآية وكقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقوله:  
 ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [سبا: ٥٤]. وذلك والله أعلم  
 لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع؛ ولهذا  
 لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال؛ لتفرقهم واختلافهم.

والمعنى: لنزعن من كل فرقة أشدهم عتواً على الله، وأعظمهم فساداً، فنلقيهم  
 في النار، وفيه إشارة إلى أن العذاب يتوجه إلى السادات أولاً، ثم تكون الأتباع  
 تبعاً لهم فيه كما كانوا تبعاً له في الدنيا.

□ □ □

وأيهم أشد للنحاة فيه أقوال:

أحدها: قول الخليل<sup>(١)</sup>: إنه مبتدأ وأشد خبره ولم يعمل لنزعن فيه؛ لأنه محكي  
 والتقدير الذي يقال فيه: أيهم أشد على الرحمن عتياً، وعلى هذا فأبي استفهامية.  
 الثاني: قول يونس: إنه رفع على جهة التعليق للفعل السابق، كما لو قلت:  
 علمت أنه أخوك، فعلق الفعل عن الفعل كما تعلق أفعال القلوب.

الثالث: قول سيبويه: إن أي هنا أي موصولة مبنية على الضم والمسوغ لبنائها  
 حذف صدر صلتها. وعنده أصل الكلام أيهم هو أشد فلما حذف صدر الصلة بنيت  
 على الضم تشبيهاً لها بالغايات التي قد حذفت مضافاتها، كـ (قبل) و(بعد)<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسُّمَهُمْ آزًا﴾ [مريم: ٨٣].

فالإرسال هاهنا إرسال كوني قدرى كالإرسال الرياح، وليس بإرسال ديني شرعي  
 فهو إرسال تسليط، بخلاف قوله في المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَئْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾  
 [الحجر: ٤٢]، فهذا السلطان المنفي عنه على المؤمنين هو الذي أرسل به جنده على  
 الكافرين.

(١) راجع: (الكتاب) لسيبويه رحمه الله تعالى (٣٩٩/٢).

(٢) بدائع الفوائد (١/١٥٥)، وانظر: مناقشة هذه الأقوال هناك إن رغبت.

قال أبو إسحاق: ومعنى الإرسال هاهنا: التسليط. تقول: قد أرسلت فلاناً على فلان إذا سلطته عليه، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

فأعلم أن من اتبعه هو مسلط عليه، قلت: ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقوله: ﴿تَوَّاهُمْ أَرَأَيْتَ﴾ فالأز في اللغة: التحريك والتهيج، ومنه يقال لغلبيان القدر: الأزيز لتحرك الماء عند الغليان، وفي الحديث: «كان لصدر رسول الله ﷺ أزيز كأزيز المرجل من البكاء»<sup>(١)</sup>، وعبارات السلف تدور على هذا المعنى.

قال ابن عباس: تغريهم إغراء. وفي رواية أخرى عنه: تسلمهم سلاً. وفي رواية أخرى: تحرضهم تحريضاً، وفي أخرى: تزعجهم للمعاصي إزعاجاً، وفي أخرى: توقدهم إيقاداً، أي: كما يتحرك الماء بالوقد تحته.

قال أبو عبيدة: الأزيز الإلهاب والحركة كالتهاب النار في الحطب، يقول: أز قدرك، أي: ألهب تحتها النار وائترت القدر إذا اشتد غليانها وهذا اختيار الأخفش.

والتحقيق أن اللفظة تجمع المعنيين جميعاً.

قالت القدريّة: معنى أرسلنا الشياطين على الكافرين: خلينا بينهم وبينها ليس معناه التسليط قال أبو علي: الإرسال يستعمل بمعنى التخلية بين المرسل، وما يريد بمعنى الآية خلينا بين الشياطين وبين الكافرين، ولم يمنعهم منهم بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾.

قال الواحدي: وإلى هذا الوجه يذهب القدريّة في معنى الآية، قال: وليس المعنى على ما ذهبوا إليه.

وقال أبو إسحاق: والمختار أنهم أرسلوا عليهم وقبضوا لهم بكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُمُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقال: ﴿وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرَآءَةً فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]. وإنما معنى الإرسال: التسليط<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه الإمام أحمد (٢٦/٤)، وأبو داود (١٧٢/٣) في الصلاة، باب: البكاء في الصلاة.

(٢) راجع: تفسير الطبري (١٦/١٢٥).

قلت: وهذا هو المفهوم من معنى الإرسال، كما في الحديث: «إذا أرسلت كلبك المعلم»<sup>(١)</sup> أي: سلطته ولو خلى بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم يبح صيده.

وكذلك قوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، أي: سلطناها وسخرناها عليهم، وكذلك قوله: ﴿وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمُ طَيْرًا أَبْغِيلَ﴾ [الفيل: ٣]. وكذلك قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [القمر: ٣١].

والتخلية بين المرسل وبين ما أرسل عليه من لوازم هذا المعنى، ولا يتم التسليط إلا به، فإذا أرسل الشيء الذي من طبعه شأنه أن يفعل فعلاً، ولم يمنعه من فعله فهذا هو التسليط<sup>(٢)</sup>.



(١) رواه البخاري (٥٤٨٣)، ومسلم (١٩٢٩).

(٢) شفاء العليل (٦٢، ٦٣).

## سُورَةُ طه

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

قيل: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي: لأذكرك بها.

وقيل: مضاف إلى المذكور، أي: لتذكروني بها، واللام على هذا لام التعليل.

وقيل: هي اللام الوقتية، أي: أقم الصلاة عند ذكري، كقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ

لِدُلُوكَ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]. وقوله تعالى: ﴿وَنَضْعُ الْمَوْزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾

[الأنبياء: ٤٧]. وهذا المعنى يراد بالآية، لكن تفسيرها به يجعل معناها فيه نظر؛ لأن

هذه اللام الوقتية يليها أسماء الزمان والظروف، والذكر: مصدر، إلا أن يقدر زمان

محذوف، أي: عند وقت ذكري، وهذا محتمل.

والأظهر: أنها لام التعليل، أي: أقم الصلاة لأجل ذكري، ويلزم من هذا أن

تكون إقامتها عند ذكره، وإذا ذكر العبد ربه، فذكر الله سابق على ذكره، فإنه لما

ذكره ألهمه ذكره، فالمعاني الثلاثة حق<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

الفتون مصدر فتنه يفتنه فتوناً، أي: امتحانك واختبرناك<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَصْطَفَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

والاصطناع في الأصل: اتخاذ الصنعة. وهي الخير تُسديه إلى غيرك. قال

الشاعر:

وإذا اصطنعت صنعة، فاقصد بها      وجه الذي يولي الصنائع أو دع

(٢) روضة المحبين (٥٠).

(١) الوابل الصيب (٩٤)، دار البيان.

قال ابن عباس: اصطنعتك لوحى ورسالتى.

وقال الكلبي: اخترتك بالرسالة لنفسى، لكى تحبني وتقوم بأمرى.

وقيل: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتى، فتكلم عبادى عني.

قال أبو إسحاق: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتى وجعلتك بينى وبين خلقي، حتى صرت في الخطاب والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم.

وقيل: مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك - لجوامع خصال فيه وخصائص - أهلاً لكرامته وتقريبه، فلا يكون أحد أقرب منه منزلة إليه، ولا ألطف محلاً، فيصطنعه بالكرامة والأثرة، ويستخلصه لنفسه، بحيث يسمع به، ويبصر به، ويطلع على سره<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

:

قوله تعالى: ﴿فَأَنبِأَهُمْ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا نُعَذِّبَهُمْ قَدْ جَحَنَكَ بِثَأْنِ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٧، ٤٨].

أما قول موسى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ فليس بسلام تحية فإنه لم يبتدئ به فرعون، بل هو خبر محض، فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه، فإنه قال له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا نُعَذِّبَهُمْ قَدْ جَحَنَكَ بِثَأْنِ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾. أفلا ترى أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمة، وإنما وقع متوسطاً بين الكلامين إخباراً محضاً عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى.

ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس على حبه وإيثاره من السلامة، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاء به فهو من أهل السلام، والله أعلم.

وتأمل حسن سياق هذه الجملة وترتيب هذا الخطاب ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته مع جلالته وعظمته، كيف ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾. وفي ضمن ذلك: إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه وطاعته وقبوله، كما يقول الرسول

للرجل من عند مولاه: «أنا رسول مولاك إليك وأستاذك»، وإن كان آستاذهما معاً ولكن ينبيه بإضافته إليه على السمع والطاعة له، ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم، ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططاً، ولم يرهقه من أمره عسراً بل طلب منه غاية النصف.

ثم أخبره بعد الطلب بثلاثة اخبارات:

أحدها: قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَآئِفَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾، فقد برئنا من عهدة نسبك لنا إلى القول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة، فقد قامت الحجة، ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان: إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾، وإما أن يكذب ويتولى فالعذاب على من كذب وتولى، فجمعت الآية طلب الإنصاف وإقامة الحجة وبيان ما يستحقه السامع المطيع وما يستحقه المكذب المتولي، بالطف خطاب، وأليق قول، وأبلغ ترغيب وترهيب<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

قال مجاهد: أعطى كل شيء خلقه، لم يعط الإنسان خلق البهائم، ولا البهائم خلق الإنسان.

وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى.

قال عطية، ومقاتل: أعطى كل شيء صورته.

وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه.

والمعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه، هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: ﴿قَدْ رَفَعْنَا قُرْبَانُكَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣].

وقال الكلبي والسدي: أعطى الرجل المرأة، والبعير الناقة، والذكر الأنثى من جنسه، ولفظ السدي أعطى الذكر الأنثى مثل خلقه ثم هدى إلى الجماع<sup>(٢)</sup>.

(١) بدائع الفوائد (٢/١٦٩، ١٧٠). (٢) تفسير الطبري (١٦/١٧٢).

وهذا القول اختيار ابن قتيبة<sup>(١)</sup> والفراء.

قال الفراء: أعطى الذكر من الناس امرأة مثله، والشاة شاة، والثور بقرة، ثم ألهم الذكر كيف يأتيها.

قال أبو إسحاق: وهذا التفسير جائز، لأننا نرى الذكر من الحيوان يأتي الأنثى، ولم ير ذكراً قد أتى أنثى قبله فألهمه الله ذلك، وهدهاء إليه، قال: والقول الأول ينتظم هذا المعنى؛ لأنه إذا هداه لمصلحته فهذا داخل في المصلحة.

قلت: أرباب هذا القول هضموا الآية معناها، فإن معناها أجل وأعظم مما ذكره.

وقوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ﴾ يأبى هذا التفسير، فإن حمل (كل شيء) على ذكور الحيوان وإنائه خاصة ممتنع لا وجه له، وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن مما لم يتزوج من بني آدم، ومن لم يسافد من الحيوان، وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقاً له، وأين نظير هذا في القرآن، وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكره، ذكره بأدل عبارة عليه وأوضحها، فقال: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [النجم: ٤٥]، فحمل قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ على هذا المعنى غير صحيح، فتأمل.

وفي الآية قول آخر، قاله الضحاك، قال: أعطى كل شيء خلقه؛ أعطى اليد البطش، والرجل المشي، واللسان النطق، والعين البصر، والأذن السمع.

ومعنى هذا القول: أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له، والخلق على هذا بمعنى: المفعول، أي: أعطى كل عضو مخلوقه الذي خلقه له، فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله، أودعها الأعضاء، وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه لكن معنى الآية أعم.

والقول هو الأول وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له ولا خالق سواه سبحانه ولا هادي غيره.

فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته، فهذا وجه الاستدلال على عدو الله «فرعون».

ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه، عدل

(١) تفسير غريب القرآن (٢٧٩)، ومشكل القرآن (٤٤٤)، وكلاهما لابن قتيبة.

إلى سؤال فاسد عن وارد. فقال: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١]. أي: فما للقرن الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده بل عبدت الأوثان؟

والمعنى: لو كان ما تقوله حقاً لم يخف على القرون الأولى ولم يهملوه، فاحتج عليه بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل؛ ولهذا صار هذا ميزاناً في ورثته يعارضون نصوص الأنبياء، بأقوال الزنادقة والملاحدة وأفراخ الفلاسفة والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم<sup>(١)</sup>.

فأجابه موسى عن معارضته بأحسن جواب، فقال: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [طه: ٥٢]. أي: أعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم معلوم لربي، قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب فيجازيهم عليه يوم القيامة، ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال، فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى، وعلى هذا فالكتاب هاهنا كتاب الأعمال.

وقال الكلبي: يعني به: اللوح المحفوظ، وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق، والمعنى على هذا: أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها، فيكون هذا من تمام قوله: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ فتأمله<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: ٦١].

أخبر سبحانه أنه لا بد أن ينال المفترين غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا، وأعظم الافتراء الفرية عليه ﷺ في أسمائه وصفاته وأفعاله، وقد ضمن سبحانه أنه لا بد أن يخيب أهل الافتراء ولا يهديهم، وأنه يسحطهم بعذابه، أي: يستأصلهم.

(١) رحم الله ابن القيم، فهو أباح عن مكنون صدورنا تجاه هؤلاء السائرين على ضرب سابقهم في الصد عن دين الله تعالى ورميه بأنواع التهم وأشنع الأوصاف، مع رفع وتعظيم قوانين وعادات الكفار، حتى المحرم منها، يتهمون المسلمين بالتخلف لمجرد تحريمهم له كتحریم التبرج مثلاً، سواء كان في محافل العلم أو في أجهزة الإعلام أو الرياضة... إلخ، فيكيلون - بالظلم - ألوان الاتهامات وهم أولى بها وأهلها، ولنا قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَكُمْ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرُنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]. وقد رضينا بهذا الهدى وهذا التسليم، والحمد لله دائماً وأبداً - ونسأله الثبات على طاعته.

(٢) شفاء العليل (٧٨، ٧٩). وانظر في تفسيرها أيضاً (٨٤/١).

قال تعالى إخباراً عن كلمته موسى: إنه قال لرؤوس المعطلة وأئمتهم: ﴿وَيَلَّكُم لَا تَقْرَؤُا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحِكَنَّ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

ولما تمكن الإيمان من قلوبهم علموا أن عقوبة الدنيا أسهل من عقوبة الآخرة وأقل بقاء، وأن ما يحصل لهم في الآخرة من ثواب الإيمان أعظم وأنفع وأكثر بقاء<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا...﴾. إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ...﴾ [طه: ٨٦ - ٩٧].

ومن تلاعبه [الشيطان] بهم<sup>(٣)</sup> عبادتهم العجل من دون الله تعالى، وقد شاهدوا ما حل بالمشركين من العقوبة، والأخذة الرأية، ونبيهم حي لم يموت. هذا وقد شاهدوا صانعه يَصْنَعُهُ<sup>(٤)</sup> وَيَصُوعُهُ، وَيَصْلِيهِ النار، وَيَدُقُّهُ بالمطرقة. وَيَسْطُو عليه بالمبرد، وَيُقْلِبُهُ بيديه ظهراً لبطن.

ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى. فنسبوا موسى ﷺ إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دفعاً عن نفسه، بحيث يضرب به المثل في البلادة والذل، فجعلوه إله كلهم الرحمن.

ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى ﷺ ضالاً مخطئاً، فقالوا: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

قال ابن عباس: أي: ضل وأخطأ الطريق.

وفي رواية عنه: أي: إن موسى ذهب يطلب ربه فَضَلَّ ولم يعلم مكانه. وعنه أيضاً: نسي أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم. وقال السدي: أي: ترك موسى إلهه ههنا وذهب يطلبه.

(١) الصواعق المرسله (٤/١٢١٢). (٢) الصواعق المرسله (٤/١٣٨٩).

(٣) يقصد (اليهود) عليهم من الله اللعنات. (٤) يعني: (العجل).

وقال قتادة: أي: إن موسى إنما يطلب هذا، ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر. هذا هو القول المشهور: إن قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ من كلام السامريِّ وعَبَاد العجل معه. وعن ابن عباس رواية أخرى: أن هذا من إخبار الله تعالى عن السامري، أنه نسي، أي: ترك ما كان عليه من الإيمان.

والصحيح: القول الأول، والسياق يدل عليه، ولم يذكر البخاري في التفسير غيره، فقال: «[فَنَسِيَ] موساهم [يقولونه: أخطأ الرب]»<sup>(١)</sup>.

فإنه لما جعله إله موسى استحضر سؤالاً من بني إسرائيل يوردونه عليه، فيقولون له: إذا كان هذا إله موسى، فلأي شيء ذهب عنه لموعِد إلهه؟ فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله: ﴿فَنَسِيَ﴾، وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم.

فانظر إلى هؤلاء، كيف اتخذوا إلهاً مصنوعاً من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب، محتاجاً إلى سبك بالنار، وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقاً بمطارق الحديد، مقلباً في النار مرة، بعد مرة، قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل، والضييم، وجعلوه إله موسى. ونسبوه إلى الضلال، حيث ذهب يطلب إلهاً غيره.

قال محمد بن جرير<sup>(٢)</sup>: وكان سبب اتخاذهم العجل ما حدثني به عبد الكريم بن الهيثم، قال: حدثني إبراهيم بن بشار الرَّمادي، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما هجم فرعون على البحر، هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فمثل له جبريل على فرس أنثى، فلما رآها الحصان تقحم خلفها، قال: وعرف السامريُّ جبريل فقبض قبضة من أثر فرسه قال: فأخذ قبضة من تحت الحافر.

قال سفيان: وكان ابن مسعود يقرؤها: (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُولِ)<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: فتح الباري (٤٨٧/٦) في الأنبياء، باب: قول الله ﷻ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى...﴾. وإلى هذا ذهب الطبري أيضاً (٢٠١/١٦) في تفسيره.

(٢) تفسير الطبري (٢٨١/١)، وقد اختصر ابن القيم بعض عباراته.

(٣) قال ابن كثير: (... أي: من أثر فرسه، هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم). تفسير ابن كثير (١٧٣/٣). وما ورد عن ابن مسعود ﷺ فهو من باب القراءة التفسيرية، والله أعلم.

قال أبو سعيد: قال عكرمة: عن ابن عباس: وألقي في رُوع السامري: إنك لا تلقيها على شيء، فتقول: كن كذا وكذا إلا كان، فلم تزل القبضة معه في يده، حتى جاوز البحر، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر، وأغرق الله آل فرعون. قال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح، ومضى موسى لموعده ربه. قال: وكان مع بني إسرائيل حلي من حلي آل فرعون، قد استعاروه فكأنهم تأثموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه قال السامري: بالقبضة التي كانت في يده هكذا، فقفذها فيه وقال: كن عجلاً جسداً له خوار، فصار عجلاً جسداً له خوار، فكان يدخل الريح من دبره ويخرجه من فيه يسمع له صوت: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨]. فعكفوا على العجل يعبدونه، فقال هارون: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ [طه: ٩٠]، ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١].

وقال السدي: لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعبروا الحلي من القبط، فلما نجى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر، وأغرق آل فرعون، أتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الله، فأقبل على فرس، فرآه السامري، فأنكره. ويقال: إنه فرس الحياة.

فقال حين رآه: إن لهذا لشأناً، فأخذ من تربة حافر الفرس، فانطلق موسى ﷺ، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وواعدهم ثلاثين ليلة، فأتى الله تعالى بعشر، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، إن الغنيمة لا تحل لكم، وإن حلي القبط إنما هو غنيمة، فاجمعوها جميعاً واحفروا لها حفرة فادفنها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة، وجاء السامري بتلك القبضة، فقفذها، فأخرج الله من الحلي عجلاً جسداً له خوار، فلما رآه قال لهم السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَتَّبِعُوا﴾ يقول: ترك موسى إلهه هاهنا وذهب يطلبه، فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾، يقول: إنما ابتليتكم بالعجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾، فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل، لا يقاتلونهم، وانطلق موسى إلى الله يكلمه، فلما كلمه قال له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَى﴾ (٨٧) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَاجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٨) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٣ - ٨٥]. فأخبره خبرهم.

قال موسى: يا رب هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل، فالروح من نفخها فيه؟ قال الرب تعالى: أنا، قال: يا رب أنت إذا أضللتهم.

وقال ابن إسحاق: عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان السامري (من أهل باجرما) وكان من قوم يعبدون البقر، فكان يحب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل، فلما ذهب موسى إلى ربه قال لهم هارون: أنتم قد حملتم أوزاراً من زينة القوم - آل فرعون - وأمتعة وحلياً، فتطهروا منها، فإنها نجس وأوقد لهم ناراً.

فقال: اقدفوا ما كان معكم من ذلك فيها، ففعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحلي، فيقدفون به فيها، حتى إذا انكسر الحلي فيها ورأى السامري أثر فرس جبريل، فأخذ تراباً من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار، فقال لهارون: يا نبي الله، ألقى ما في يدي؟ ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة، فقذفه فيها، فقال: كن عجلاً جسداً له خوار، فكان البلاء والفتنة، فقال: هذا إلهكم وإله موسى، فعكفوا عليه، وأحبوه حباً لم يحبوا مثله شيئاً قط. يقول الله ﷻ: ﴿فَنَسِيَ﴾، أي: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني: السامري: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا ذَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

فلما رأى هارون ما وقعوا فيه قال: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَالْيَعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى [طه: ٩٠ - ٩١]. فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل وتخوف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: ﴿فَرَّقَتْ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]. وكان له هائباً مطيعاً، قال تعالى مذكراً لبني إسرائيل بهذه القصة التي جرت لأسلافهم مع نبيهم: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١]. يعني: من بعد ذهابه إلى ربه، وليس المراد من بعد موته ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، أي: بعبادة غير الله تعالى؛ لأن الشرك أظلم الظلم؛ لأن المشرك وضع العبادة في غير موضعها.

فلما قدم موسى ﷺ ورأى ما أصاب قومه من الفتنة اشتد غضبه، وألقى الألواح عن رأسه، وفيها كلام الله الذي كتبه له، وأخذ برأس أخيه ولحيته، ولم يعتب الله عليه في ذلك؛ لأنه حملة عليه الغضب لله، وكان الله ﷻ قد أعلمه بفتنة قومه،

ولكن لما رأى الحال مشاهدة حدث له غضب آخر، فإنه ليس الخبر كالمعاينة<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم، وعدم ملك الضر والنفع (دليل على عدم الإلهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يكلم ويتكلم ويملك لعباده الضر والنفع)، وإلا لم يكن إلهاً<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ [طه: ١٠٨].

أي: يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه.

قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها. وقال الزجاج:

المعنى: لا عوج لهم عن دعائه، أي: لا يقدرُونَ إلا على اتباعه وقصده.

فإن قلت: إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي، فكيف قاله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾.

قيل: قالت طائفة: اللام بمعنى: عن، أي: لا عوج عنه، وقالت طائفة:

المعنى: لا عوج لهم عن دعائي، كما قال الزجاج.

وفي القولين تكلف ظاهر، ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم،

وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه، كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما.

والمعنى: لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقد اختلف في تفسير الضمير في (به)<sup>(٤)</sup>، فقيل: هو الله سبحانه، أي: ولا يحيطون بالله علماً.

وقيل: هو ما بين أيديهم وما خلفهم.

فعلى الأول: يرجع إلى العالم، وعلى الثاني: يرجع إلى المعلوم، وهذا القول

(٢) الصواعق المرسله (٣/٩١٥).

(١) إغاثة اللهفان (٢/٣٠٠ - ٣٠٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦/٢١٥).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (٢٠١).

يستلزم الأول من غير عكس؛ لأنهم إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم، فإن لا يحيطوا علماً به - سبحانه - أولى<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

يعني: لا يُحْمَل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ما عمل<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُخَذِّ لَهُ عَزْمًا..﴾ [طه: ١١٥].  
تأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم.  
فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ..﴾ الآية، والنسيان سواء كان عدم العلم، أو عدم الصبر كما فسر بها هاهنا فهو أمر عديمي<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].  
كيف شرك بينهما في الخروج وخص الذكر بالشقاء لاشتغاله بالكسب والمعاش والمرأة في خدرها<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

فقابل بين الجوع والعري دون الجوع والظما، وبين الظما والضحى دون الظما والجوع، فإن الجوع عري الباطن وذلة، والعري جوع الظاهر وذلة.  
فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره وجوع باطنه وظاهره، والظما حر الباطن، والضحى حر الظاهر فقابل بينهما<sup>(٥)</sup>.

(٢) مدارج السالكين (١/٢٣٦).

(٤) بدائع الفوائد (٣/٢٢٩).

(١) الصواعق المرسلة (١٣٧٢).

(٣) طريق الهجرتين (١٠٠).

(٥) روضة المحيين (٢٢٦).

والواقف مع القلب ربما يخيل إليه: أن الجوع يقابل بالظماً، والعري بالضحي. والداخل إلى بلد المعنى يرى هذا الكلام في أعلا الفصاحة والجلالة؛ لأن الجوع ألم الباطن، والعري ألم الظاهر، فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظماً مع الضحي؛ لأن الظماً موجب لحرارة الباطن؛ والضحي موجب لحرارة الظاهر فاقترضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

نفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضاً، فهو منع القلب والبدن بالهدى والفلاح<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

فذكره: كلامه الذي أنزله على رسوله، والإعراض عنه: ترك تدبره والعمل به. والمعيشة الضنك، فأكثر ما جاء في التفسير: أنها عذاب القبر، قاله ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عباس، وفيه حديث مرفوع<sup>(٣)</sup>. وأصل الضنك في اللغة<sup>(٤)</sup>: الضيق والشدة، وكل ما ضاق فهو ضنك، يقال: منزل ضنك وعيش ضنك، فهذه المعيشة الضنك، في مقابلة التوسيع على النفس

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢٤٠).

(٢) إغاثة اللهفان (٥٨).

(٣) روى الطبري (٢٢٨/ ١٦) بسنده عن ابن حجرية عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتدرون فيم أنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أتدرون ما المعيشة الضنك؟... عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده، إنه يسلط عليه تسعة وتسعون تيناً..»، فذكر حديثاً قال عنه ابن كثير بعد أن ذكر أن ابن حاتم رواه أيضاً: (رفعه منكر جداً) تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٨)، ورواه البزار باختصار يسير (٣/ ٥٨، ٥٩)، وقال الهيثمي: (فيه من لم أعرفه)، مجمع الزوائد (٧/ ٦٧).

وأشار محقق (كشف الأستار) بعد ذكره لقول الهيثمي السابق: (كأنه يعني: أبا حجرية) قلت: - والله أعلم - أن هذا وهم فإنني لم أجده فيما بين يدي من مصادر من الرواة عن أبي هريرة من اسمه (أبو حجرية)، وهو ثقة، وإنما هو (ابن حجرية) واسمه (عبد الرحمن)، كما في التهذيب (٦/ ١٦٠)، وأشار إلى رواية مسلم والأربعة عنه.

(٤) لسان العرب (٥/ ٢٦١٣)، مادة: «ضنك».

والبدن، بالشهوات واللذات والراحة، فإن النفس كلما وسعت عليها ضيقت على القلب حتى تصير معيشة ضنكاً، وكلما ضيقت عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح، فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة، وسعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة، فآثر أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومهما، وأشق البدن بنعيم الروح ولا تشق الروح بنعيم البدن، فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون، والله المستعان<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وقال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾. يتناول الذكر الذي أنزله، وهو الهدى الذي جاءت به الرسل، ويدل عليه سياق الكلام، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَلَيَّمْنَا نَسِي﴾ [طه: ١٢٦]. فهذا هو الإعراض عن ذكره، فإذا كان هذا حال المعرض عنه، فكيف حال المعارض له بعقله أو عقل من قلده، وأحسن الظن به، فكما أنه لا يكون مؤمناً إلا من قبله وانقاد له، فمن أعرض عنه وعارضه من أبعد الناس عن الإيمان به<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

والمقصود: أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره - وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى - فإن له معيشة ضنكاً، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحييه حياة طيبة، ويجزيه أجره في الآخرة، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا، والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(٢) الصواعق المرسله (٣/ ٨٤٥، ٨٤٦).

(١) الفوائد (١٦٥).

(٣) مفتاح دار السعادة (٤٦ - ٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٧٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿طه: ١٧٤ - ١٢٥﴾.

اختلف فيه: هل هو من عمى البصيرة، أو من عمى البصر؟<sup>(١)</sup>.

والذين قالوا: هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَوَّلُ وَيَأْتُونَآخِرًا﴾ [مریم: ٣٨]، وقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧]. ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَتٍ مِّنَ الْأُتَالِ يُنْظَرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَىٰ نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا تُكْذِبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣ - ١٥]، وقوله: ﴿وَرَدَّ الْمُحْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَافِقُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا: السياق لا يدل إلا عليه، لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ وهو لم يكن بصيراً في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق، فكيف يقول: وقد كنت بصيراً؟ وكيف يجاب بقوله: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَتُحْيِيهِمَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْشِئُهُمَا﴾ [طه: ١٢٦]. بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله، فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب، كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركه ذكره تركه في العذاب، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَهْدِ لَهُمْ بَدِيلٌ فَكَانَ مُعَذِّبًا لَهُمْ أَولَآئِكَ مِنْ دُونِهِمْ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقد قيل في هذه الآية أيضاً: إنهم عمي وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾، قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون<sup>(٢)</sup>.

ومن نصر أنه العمى والبكم والصم المضاد للبصر والسمع والنطق، قال

(١) انظر: الطبري (١٦/٢٢٩، ٢٣٠). (٢) تفسير الطبري (١٥/١٦٧).

بعضهم: هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمى عن رؤية ما يسرههم وسماعه.

ولهذا قد روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لا يرون شيئاً يسرههم».

وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد، وهذا مروى عن الحسن.

وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم، فيصيرون بأجمعهم عمياً بكماً صماً لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق وهذا منقول عن مقاتل.

والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم: أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجتهم عمى عنها، بل هم عمى عن الهدى، كما كانوا في الدنيا فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر، وأنه عمى البصر، فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذ.

وفصل الخطاب: أن الحشر هو الضم والجمع، ويراد به تارة: الحشر إلى موقف القيامة، كقول النبي ﷺ: «إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً»<sup>(١)</sup>. وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْوَحُشْ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. وكقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحْداً﴾ [الكهف: ٤٧].

ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾ [مريم: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. فهذا الحشر هو بعد

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه (٣٨٥/١١) في الرقاق، باب: الحشر، ومسلم (٧١٢/٥) في الجنة، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

حشرهم إلى الموقف، وهو حشرهم وضمهم إلى النار؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿يَوَلَّيْنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿[الصافات: ٢٠، ٢١]، ثم قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ وهذا الحشر الثاني. وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف، والحشر الثاني من الموقف إلى النار.

فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون. وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، فلكل موقف حال يليق به، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته، فالقرآن يصدق بعضه بعضاً ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]<sup>(١)</sup>.



## سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَالِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧].

فأخبر أن هذا الذي أضافه من نسبة الولد إلى الله من مشركي العرب والنصارى غير سائغ في العقول إذا تأمله المتأمل.

ولو أراد الله أن يفعل هذا لكان يصطفي لنفسه، ويجعل هذا الولد المتخذ من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء من عوارض البشر، المجبول على الثبات والبقاء، لا من جوهر هذا العالم الفاني الدائر الكثير الأوساخ والأقدار، ولما كان هذا الحجاج كما ترى في هذه القوة والجلالة أتبعه بقوله:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] (١).

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠، ١٩].

إن الوقف التام في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم يتدنى ﴿وَمَنْ عِنْدُ﴾. فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي: إن له من في السموات ومن في الأرض عبيداً وملكاً.

ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿وَمَنْ عِنْدُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾، يعني: أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني: لا يأنفون عنها، ولا يتعاضمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون - يقال: حَسَرَ واستحسر، إذا تعب وأعيا - بل عبادتهم وتسييحهم كالنفس لبني آدم.

فالأول: وصف لعبيد ربوبيته.

والثاني: وصف لعبيد إلهيته<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا آلَهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١ - ٢٣].

[انظر] كيف ساق الآية في الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لا تساويه، فسواها به مع أعظم الفرق.

فقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ إثبات لحقيقة الإلهية وإفراد له بالربوبية والإلهية.

وقوله: ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ نفي صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية، فإنها مسؤولة مربوبة مُدَبَّرَةٌ، فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان؟

فهذا الذي سيق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأً ومعقلاً في إنكار حكمته، وتعليل أفعاله بآياتها المحمودة وعواقبها السيئة، والله الموفق للصواب<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِّنْ قَبْلِكَ خَلْقًا أَفَّا يَرَىٰ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

سئل البخاري عن الخضر وإلياس: هل هما أحياء؟ فقال: كيف يكون هذا، وقد قال النبي ﷺ: «لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»<sup>(٣)</sup>؟

وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: لو كان الخضر حياً لوجب أن يأتي النبي ﷺ ويجاهد بين يديه، ويتعلم منه، وقد قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»<sup>(٤)</sup>.

وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، فأين كان الخضر يومئذٍ؟

قال أبو الفرج ابن الجوزي: والدليل على أن الخضر ليس بباقي الدنيا أربعة أشياء: القرآن، والسنة، وإجماع المحققين من العلماء والمعقول..

(١) مدارج السالكين (١/١٠٢). (٢) مفتاح دار السعادة (٢٩٥).

(٣) رواه البخاري (٦٠١)، ومسلم (٢٥٣٧). (٤) رواه مسلم (١٧٦٣).

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ خُلْدًا﴾، فلو دام الخضر كان خالداً<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].  
قال ابن عباس رضي الله عنه: بالشدة، والرخاء، والصحة، والسقم، والغنى، والفقر، والحلال، والحرام، وكلها بلاء.  
وقال ابن يزيد: نبلكم بما تحبون وما تكرهون؛ لننظر كيف صبركم، وشكركم فيما تحبون وما تكرهون.  
وقال الكلبي: بالشر، بالفقر، والبلاء، والخير بالمال، والولد، فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيئا لابتلاء والامتحان<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢].  
وسواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءاً، ويكون يكلؤكم مضمناً معنى يجيركم وينجيكم من بأسه، أو كانت (من) البدلية، أي: من يكلؤكم بدل الرحمن، أي: هو الذي يكلؤكم وحده لا كالي لكم غيره.  
وعلى كلا القولين فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم، وحفظهم، وحراستهم، مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره، هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه ﷻ، فإنه غني عن خلقه من كل وجه، وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه، وفي بعض الآثار يقول تعالى: «أنا الجواد، ومن أعظم مني جوداً وكرماً؟ أبيت أكلاً عبادي في مضاجعهم وهم يبارزونني بالعظائم»<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].  
وأصح الأقوال في الآية أن المعنى من قبل نزول التوراة.  
فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُون﴾ [الأنبياء: ٥٠].

(٢) عدة الصابرين (١٦٠).

(١) المنار المنيف (٦٨).

(٣) طريق الهجرتين (٢٩٤).

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾؛ ولهذا قطعت (قبل) عن الإضافة وبنيت؛ لأن المضاف منوي معلوم، وإن كان غير مذكور في اللفظ. وذكر سبحانه هؤلاء الثلاثة وهم أئمة الرسل وأكرم الخلق عليه محمد وإبراهيم وموسى.

وقد قيل: (من قبل)، أي: في حال صغره قبل البلوغ، وليس في اللفظ ما يدل على هذا، والسياق إنما يقتضي من قبل ما ذكر. وقيل: المعنى بقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: في سابق علمنا، وليس في الآية أيضاً ما يدل على ذلك، ولا هو أمر مختص بإبراهيم، بل كل مؤمن فقد قدر الله هداه في سابق علمه.

والمقصود قوله: «وكنّا به عالمين»، قال البغوي<sup>(١)</sup>: إنه أهل للهداية والنبوة. وقال أبو الفرج<sup>(٢)</sup>: أي: عالمين بأنه موضع لإيتاء الرشد. وقال صاحب الكشف: المعنى: علمه به أنه علم منه أحوالاً بديعة وأسراراً عجيبة، وصفات قد رضيها وحمدتها حتى أهله لمخالته ومخالصته، وهذا كقولك في خير من الناس: أنا عالم بفلان. فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف<sup>(٣)</sup>. وهذا كقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ آخَرْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الدخان: ٣٢]. حيث وضعنا هذا التخصيص في المحل الذي يليق به من الأماكن والأناسي<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أُنتَرُهَا عِبَادُكَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]. فاقسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل.

والتماثيل جمع تماثل، وهي الصور الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على

(١) تفسير البغوي (٢٩٧/٤) بحاشية الخازن.

(٢) هو أبو الفرج ابن الجوزي الإمام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ الإسلام، جمال الدين، عبد الرحمن بن علي بن محمد... الحنبلي، انظر ترجمته ومصادرها في: سير أعلام النبلاء (٣٦٥/٢١). وانظر كتابه: زاد المسير (٣٥٧/٥).

(٣) تفسير الكشف (١٣/٣، ١٤). (٤) شفاء العليل (٣٢، ٣٣).

تماثيل الأصنام؛ ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهمهم وإراداتهم على تماثيلهم.

فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبده، بحيث يكون عاكفاً عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها؛ ولهذا سماه النبي ﷺ عبداً لها ودعا عليه بالتعس والنعس، فقال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمٌّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانٌ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿[الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم، وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

وقال علي بن أبي طالب وقد سئل: «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟» فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة، وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»<sup>(٢)</sup>.

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري ؓ: «والفهم الفهم فيما أدلي إليك»<sup>(٣)</sup>. فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه، يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه<sup>(٤)</sup>.

□ □ □

والحرث هو البستان؛ وقد روي: أنه كان بستان عنب، وهو المسمى بالكرم، والنفس: رعي الغنم ليلاً.

فحكم داود بقيمة المتلف، فاعتبر الغنم فوجدتها بقدر القيمة، فدفعها إلى

(١) الفوائد (١٩٠). (٢) رواه البخاري (٣٠٤٧).

(٣) وهو الكتاب الذي شرحه ابن القيم رحمه الله من (١/٨٥) إلى (٢/١٨٣) من إعلام الموقعين، ط الكليات الأزهرية.

(٤) مدارج السالكين (٤١/١).

أصحاب الحرث؛ إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تعذر بيعها، ورضوا بدفعها، ورضي أولئك بأخذها بدلاً عن القيمة.

وأما سليمان فقضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل، بأن يعمروا البستان، حتى يعود كما كان، ولم يضيع عليهم مغله من حين الإلتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك، ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان، فيستوفوا من نماء غنمهم نظير ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النماءين، فوجدهما سواء، وهذا هو العلم الذي خصه الله به، وأثنى عليه بإدراكه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه.

وقد جُرِّبَ أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره<sup>(٢)(٣)</sup>.

□ □ □

فإن فيها من كمال التوحيد: التنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله - سبحانه - في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص

إعلام الموقعين (٤٠٣/١). (٢) الفوائد (١٩٥).

وجاء في فضل هذه الدعوة ما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له».

رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/٣٥، ٣٦)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، ورواه الترمذي (٤٩٥/٥) في الدعوات، باب: (٨٢)، ورواه الحاكم (١/٥٠٥)، (٢/٣٨٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، كما في صحيح الكلم رقم (١٢٢)، فانظره مفصلاً.

وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمّن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه.

فها هنا أربعة أمور، قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُمُ وَوَهَبْنَا لَهُمُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُمُ زَوْجَهُمُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

أي: رَغَبًا فيما عندنا، وَرَهَبًا من عذابنا، والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين.

و«الرغب والرهب» رجاء الرحمة، والخوف من النار، عندهم أجمعين وذكر - سبحانه - عباده الذين هم خواص خلقه، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، وجعل منها استعادتهم به من النار فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَكْثَرُ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ لَكُمْ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهُمْ كَلًّا فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٨﴾ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمُ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُونَ ﴿١٠٠﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ١٠٢].

وفي صحيح<sup>(٣)</sup> الحاكم من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، قال المشركون: فالملائكة وعيسى وعزير يُعبدون من دون الله.

(١) زاد المعاد (٢٠٨/٤). (٢) مدارج السالكين (٧٦/٢).

(٣) إطلاق (الصحيح) على مستدرک الحاكم، فيه تجاوز ومعلوم أنه احتوى على الضعيف وغيره، وانظر: ما ذكره ابن كثير عنه في الباعث الحثيث، ص (٢٣، ٢٤).

(٤) في المستدرک «فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها».

قال: فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾<sup>(١)</sup>، وهذا إسناد صحيح.

وقال علي بن المديني: ثنا يحيى بن آدم، ثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، قال: أخبرني أبو رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس أنه قال: آية لا يسأل الناس عنها، لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوا فلا يسألون عنها؟ فقل له: وما هي.

فقال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّوْنَ﴾، شق ذلك على قريش أو على أهل مكة، وقالوا: يشتم آلهتنا. فجاء ابن الزبيري فقال: ما لكم؟ قالوا: يشتم آلهتنا! قال: وما قال؟ قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّوْنَ﴾، قال: ادعوه لي. فلما دعي النبي ﷺ قال: يا محمد، هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله؟.

فقال: «لا بل لكل من عبد من دون الله».

قال: فقال ابن الزبيري: خصمت ورب هذه البنية - يعني: الكعبة - ألسنت تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عزيزاً عبد صالح، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة، وهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيزاً.

قال: فضج أهل مكة، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، قال: ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]. قال: هو الضجيج<sup>(٢)</sup>.

وهذا الإيراد الذي أورده ابن الزبيري لا يرد على الآية، فإنه سبحانه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، ولم يقل: (ومن تعبدون)، وما لما لا

(١) والحديث في المستدرک (٢/ ٣٨٤، ٣٨٥)، وصححه ووافقه الذهبي. وانظر: الطبري (١٧/ ٩٦، ٩٧).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ٣٢٨، ٣٢٩) برقم (٢٩٢١). وقال الشيخ أحمد شاکر: إسناده صحيح. والطبراني في الكبير (١٢/ ١٥٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٦٨، ٦٩) و(٧/ ١٠٤): وفيه عاصم بن بهدلة، وقد وثق، وضعفه جماعة. وقد وثقه الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وانظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٠)، وسيرة ابن هشام (١/ ٣٨٢)، والفقهاء والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ٧٠)، والواحدي في أسباب النزول ص (٢٢٩، ٢٣٠). وجاء في سننه (يحيى بن نوح)، والصواب (يحيى بن آدم)، والله أعلم.

يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة، والمسيح، وعزير، وإنما ذلك للأحجار ونحوها التي لا تعقل<sup>(١)</sup>.

وأيضاً فإن السورة مكية والخطاب فيها لعباد الأصنام، فإنه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ فلفظة ﴿إِنَّكُمْ﴾، ولفظة (ما) تبطل سؤاله وهو رجل فصيح من العرب لا يخفى عليه ذلك، ولكن إirاده إنما كان من جهة القياس والعموم المعنوي الذي يعم الحكم فيه بعموم علته، أي: إن كان كونه معبوداً يوجب أن يكون حصب جهنم، فهذا المعنى بعينه موجود في الملائكة وعزير والمسيح، فأجيب بالفارق وذلك من وجوه:

إحداها: أن الملائكة والمسيح والعزير ممن سبقت لهم من الله الحسنى، فهم سعداء لم يفعلوا ما يستوجبون به النار فلا يعذبون بعبادة غيرهم مع بغضهم ومعاداتهم لهم، فالتسوية بينهم وبين الأصنام أقبح من التسوية بين البيع والربا، والميتة والدكي، وهذا شأن أهل الباطل وإنما يسوون بين ما فرق الشرع والعقل والفطرة بينه، ويفرقون بين ما سوى الله ورسوله بينه.

الفرق الثاني: أن الأوثان حجارة غير مكلفة، ولا ناطقة، فإذا حصبت بها جهنم إهانة لها ولعابديها لم يكن في ذلك من لا يستحق العذاب، بخلاف الملائكة والمسيح وعزير فإنهم أحياء ناطقون، فلو حصبت بهم النار كان ذلك إيلاًماً وتعذيباً لهم.

الثالث: أن من عبد هؤلاء بزعمه فإنه لم يعبدهم في الحقيقة، فإنهم لم يدعوا إلى عبادتهم، وإنما عبد المشركون الشياطين وتوهموا أن العبادة لهؤلاء، فإنهم عبدوا بزعمهم من ادعى أنه معبود مع الله، وأنه معه إله وقد برأ الله سبحانه ملائكته والمسيح وعزيراً من ذلك، وإنما ادعى ذلك الشياطين، وهم بزعمهم يعتقدون أنهم يرضون بأن يكونوا معبودين مع الله، ولا يرضى بذلك إلا الشياطين؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمْعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ بِإِذَاكُمُ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٥١﴾ قَالُوا سُبْحَنكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ آخُذْ بِإِيتِكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠].

وقول الله تعالى ذكره: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلِداً سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾

(١) انظر: الروض الأنف للسيهلي (٣/ ٣١٧ - ٣١٨).

لَا يَسْقُونَهُمْ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَّ تَجْرِيزِهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿[الأنبياء: ٢٦ - ٢٩]﴾.

فما عبد غير الله إلا الشيطان.

وهذه الأجوبة منتزعة من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، فتأمل الآية تجدها تلوح في صفحات ألفاظها، وبالله التوفيق.

والمقصود: ذكر الحسنى التي سبقت من الله لأهل السعادة قبل وجودهم.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: ثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد، ثنا أبو عامر العقدي، ثنا عروة بن ثابت الأنصاري، ثنا الزهري عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، أن عبد الرحمن بن عوف مرض مرضاً شديداً أغمي عليه فأفاق فقال: أغمي عليّ؟ قالوا: نعم. قال: إنه أتاني رجلان غليظان فأخذا بيدي فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين، فانطلقا بي، فتلقاها رجل وقال: أين تريدان به؟ قال: نحاكمه إلى العزيز الأمين، فقال: دعاه فإن هذا ممن سبقت له السعادة وهو في بطن أمه.

وقال عبد الله بن محمد البغوي: ثنا داود بن رشيد، ثنا ابن عليه، حدثني محمد بن محمد القرشي عن عامر بن سعد، قال: أقبل سعد من أرض له فإذا الناس عكوف على رجل، فاطلع فإذا هو يسب طلحة والزبير وعلياً فنهاه فكأنما زاده إغراء! فقال: ويلك تريد أن تسب أقواماً هم خير منك لتنتهين أو لأدعون عليك.

فقال: كأنما يخوفني نبي من الأنبياء؟! فانطلق<sup>(١)</sup> فدخل داراً فتوضأ ودخل المسجد، ثم قال: اللهم إن كان هذا قد سب أقواماً قد سبقت لهم منك حسنى أسخطك سبه إياهم، فأرني اليوم آية تكون للمؤمنين آية.

وقال: تخرج بختية<sup>(٢)</sup> من دار بني فلان لا يردّها شيء حتى تنتهي إليه، ويتفرق الناس وتجعله بين قوائمها وتطأه حتى طفي.

قال: فأنا رأيت سعداً يتبعه الناس يقولون: استجاب الله لك يا أبا إسحاق، استجاب الله لك يا أبا إسحاق!

وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ

(١) أي: سعد رضي الله عنه ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا مختصراً في مجابي الدعوة، ص(٤٨).

(٢) هي الأنثى من الإبل، مختار الصحاح (٤٢)، وهو أعجمي معرب، كما في اللسان (٢١٩/١).

مِنْ حَرَجٍ قَلَّةٍ أَيْكُمْ يُرْزِقُهُمْ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴿الْحَجَّ: ٧٨﴾.  
أي: الله سماكم من قبل القرآن وفي القرآن، فسبقت تسمية الحق سبحانه لهم  
مسلمين قبل إسلامهم وقبل وجودهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَكُمُ الْمَصُورُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا  
لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]. وقال ابن عباس في رواية الوالبي<sup>(١)</sup> عنه في  
قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]. قال: سبقت لهم  
السعادة في الذكر الأول، وهذا لا يخالف قول من قال: إنه الأعمال الصالحة التي  
قدموها، ولا قول من قال: إنه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه سبق لهم  
من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد ﷺ فهو خير تقدم لهم  
من الله، ثم قدمه لهم على يد رسوله، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه، وقد قال تعالى:  
﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨].

وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق<sup>(٢)</sup>، فقال جمهور المفسرين من  
السلف ومن بعدهم: لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ  
أن الغنائم حلال لكم لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجة  
لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم وإن عملوا ما  
شاؤوا لعاقبهم.

وقال آخرون وهو الصواب: لولا كتاب من الله سبق بهذا كله لمسكم فيما  
أخذتم عذاب عظيم، والله أعلم<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ  
نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

والسجل: الورق المكتوب فيه، والكتاب: نفس المكتوب، واللام بمنزلة على،  
(أي: نطوي السماء كطي السجل على ما فيه من السطور المكتوبة)، ثم استدل على

(١) هو الإمام سعيد بن جبير رضي الله عنه. وانظر: تفسير الآية (٢) من سورة يونس.

(٢) راجع: الآية (٦٨) من الأنفال. (٣) شفاء العليل (٢٦ - ٢٨).

النظير بالنظير فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾<sup>(١٥)</sup> إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ ﴿[الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود، والذكر أم الكتاب الذي عند الله، والأرض الدنيا وعباده الصالحون أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء»<sup>(٢)</sup>.

فهذا هو الذكر الذي كتب فيه: أن الدنيا تصير لأمة محمد ﷺ والكتب المنزلة قد أطلق عليها الزبور في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٤٣)</sup> بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴿[النحل: ٤٣، ٤٤]، أي: أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور، والذكر هاهنا الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله ﷺ وهما التوراة والإنجيل<sup>(٣)</sup>.

وقد اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هي أرض الجنة، وهذا قول أكثر المفسرين.

وعن ابن عباس قول آخر: إنها الدنيا التي فتحها الله على أمة محمد ﷺ.

وهذا القول هو الصحيح، ونظيره قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أُسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

(٢) رواه البخاري (٧٤١٨).

(١) إعلام الموقعين (١/١٩٧).

(٣) شفاء العليل (٣٩).

وفي الصحيح، عن النبي ﷺ قال: «زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»<sup>(١)</sup>.

وقالت طائفة من المفسرين: المراد بذلك أرض بيت المقدس وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين. وليست الآية مختصة بها<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أصح القولين في هذه الآية: أنها على عمومها.

وفيها على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته.

أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عَجَّلَ قتلهم وموتهم خير لهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون: فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها.

وأما الأمم النائية عنه: فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وآخرة، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(٢) الروح (١٠٧).

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٣) جلاء الأفهام (١١٥، ١١٦) الطبعة المنيرية.

## سُورَةُ الْحَجِّ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُؤًا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَوْءٌ عَظِيمٌ﴾  
 ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ  
 حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ [الْحَجِّ: ٢، ١].  
 المرضع من لها ولد ترضعه.

والمرضعة من ألقمت الثدي للرضيع، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا  
 تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أبلغ من مرضع في هذا المقام، فإن المرأة قد  
 تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه  
 لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

وتأمل - رحمك الله تعالى - السر البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلى  
 قوله: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾، فإن الحامل قد تطلق على المهيئة للحمل وعلى من هي في  
 أول حملها ومباده، فإذا قيل: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾ لم يكن إلا لمن قد ظهر حملها وصلاح  
 للوضع كاملاً أو سقطاً، كما يقال: ذات ولد، فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق  
 فعل الرضاعة دون التهيؤ لها، وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل  
 وقبوله للوضع، والله سبحانه وتعالى أعلم<sup>(١)</sup>.

قوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ﴾ فهم سكارى من الدهش والخوف، وليسوا بسكارى  
 من الشراب، فسكرهم سكر خوف ودهش، لا سكر لذة وطرب<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ  
 مَّرِيدٍ﴾ [٣] كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ [الحج: ٣، ٤].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۚ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٨ - ٩].

إن هؤلاء المعارضين لنصوص الوحي بعقولهم ليس عندهم علم، ولا هدى، ولا كتاب مبين، فمعارضتهم باطلة، وهم فيها أتباع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير، فهذه حال كل من عارض آيات الله بمعقوله، ليس عنده إلا الجهل والضلال.

ورتب سبحانه هذه الأمور الثلاثة أحسن ترتيب، فبدأ بالأعم وهو العلم، وأخبر أنه لا علم عند المعارض لآياته بعقله، ثم انتقل منه إلى ما هو أخص، وهو الهدى، ثم انتقل إلى ما هو أخص، وهو الكتاب المبين.

فإن العلم أعم مما يدرك بالعقل والسمع والفطرة، وأخص منه الهدى الذي لا يدرك إلا من جهة الرسل، وأخص منه الكتاب الذي أنزله الله على رسوله، فإن الهدى قد يكون كتاباً، وقد يكون سنة.

وهذه الثلاثة متتفية عن هؤلاء قطعاً، أما الكتاب والهدى المأخوذ عن الرسل، فقد قالوا: إنه لا يفيد علماً ولا يقيناً، والمعقول يعارضه، فقد أقروا أنهم ليس معهم كتاب ولا سنة، وبقي العلم فهم يدّعونّه، والله تعالى قد نفاه عنهم.

ونحن نطالب هؤلاء المعارضين بواحدة من ثلاث: إما كتاب منزل، أو أثارة من علم يؤثر عن نبي من الأنبياء، أو معقول صحيح المقدمات، وقد اتفق العقلاء على صحة مقدماته، وهم يعلمون والله شهيد عليهم، بأنهم عاجزون عن هذا وهذا، فهل نترك ما علمناه من كتاب ربنا، وسنة نبينا، وما نزل به جبريل من رب العالمين، على قلب رسوله الأمين، بلسان عربي مبين، لوحى الشياطين، وشبه الملحدين، وتأويلات المعطلين؟!

□ □ □

فإن قيل: فما الفرق بين الصنف الأول الذي يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، والصنف الثاني الذي يجادل في الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، كما ذكرهم سبحانه صنفين؟

قيل: قد ذكر سبحانه ثلاثة أصناف:

صنفاً يجادل في الله بغير علم، ويتبع كل شيطان مريد، مكتوباً عليه إضلال من تولاه، وهذه حال المتبع لأهل الضلال.

وصنفاً يجادل في الناس بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيله، وهذه حال المتبوع المستكبر، الصاد عن سبيل الله. فالأول حال الأتباع، والثاني حال المتبوعين.

ثم ذكر حال من يعبد الله على حرف، وهذه حال المتبع لهواه الذي إن حصل له ما يهواه في الدنيا عبد الله، وإن أصابه ما يمتحن به في دنياه ارتد عن دينه.

وهذه حال من كان مريضاً في إرادته وقصده، وهي حال أهل الشهوات والأهواء؛ ولهذا ذكر ذلك في العبادة فأصلها القصد والإرادة، وأما الأولان فحال الضال والمضل، وذلك مرض في العلم والمعرفة، وهي حال أهل الشبهات والنظر الفاسد، والجدال بالباطل، والله سبحانه يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات، ولا صلاح للعبد إلا بمعرفة الحق، وقصده كما قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ② [الفاتحة: ٦، ٧].

فمن لم يعرف الحق كان ضالاً، ومن عرفه ولم يتبعه كان مغضوباً عليه، ومن عرفه واتبعه فقد هدى إلى الصراط المستقيم.

وأول الشر الضلال ومنتهاه الغضب، كما أن أول الخير الهدى ومنتهاه الرحمة والرضوان، فذكر سبحانه في آيات الحج ما يعرض في العلم من الضلال والإضلال، وما يعرض في الإرادة والعمل من اتباع الأهواء، كما جمع بينهما في قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

فقال أولاً: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾. وهذا يتضمن الجدل فيه بغير هدى ولا كتاب منير، فإن من جادل بغير ذلك فقد جادل بغير علم، فنفي العلم يقتضي نفي كل ما يكون علماً بأي طريقة حصل، وذلك ينفي أن يكون مجادلاً بهدى، أو كتاب منير، هذه حال الضال المتبع لمن يضلّه، فلم يحتاج إلى تفصيل، فبين أنه يجادل بغير علم، ويتبع كل شيطان مرید، كتب على ذلك الشيطان أن من اتبعه، فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير، وهذه حال مقلدة أئمة الضلال من الكفار وأهل الأهواء والبدع.

ثم ذكر حال المتبوع الذي يثني عطفه تكبراً، كما قال: ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [لقمان: ٧].

وذكر التفصيل في مجادلة المتبوع الداعي، وأنها في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، واكتفى في ذكر التابع بنفي العلم المستلزم، لنفي هذه الثلاثة، فإن مجادلة المتبوع أصل وهو أقعد<sup>(١)</sup> بها من مجادلة التابع، ومصدرها كبر، ومصدر مجادلة التابع ضلال وتقليد.

فذكر حال المتبوع على التفصيل، ولهذا ذكر فساد قصده وعلمه، وذكر من عقوبته أشد مما ذكر من عقوبة التابع، وهذا وأمثاله من أسرار القرآن التي حرمها الله على من عارض بينه وبين العقل، وقدم العقل عليه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ تُطْفِئَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْوَفُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥].

يقول سبحانه: إن كنتم في ريب من البعث، فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقاً جديداً كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ - ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّا نَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاها لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

(١) أي: أولى وأقرب. وانظر: أساس البلاغة (٣٧٢)، ولسان العرب (٦/٣٦٨٩).

(٢) الصواعق المرسله (٣/١٠٨٦ - ١٠٩١). (٣) إعلام الموقعين (١/١٨٨).

جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلاً على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يُخرج الموتى من القبور، كما أخرج النبات من الأرض<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

فالذي حق عليه العذاب هو الذي لا يسجد له سبحانه، وهو الذي أهانه بترك السجود، وأخبر أنه لا مكرم له، وقد هان على ربه حيث لم يسجد له<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

واختلفوا<sup>(٣)</sup> في جر «لؤلؤ» ونصبه، فمن نصبه ففيه وجهان:

أحدهما: أنه عطف على موضع قوله: من أساور.

والثاني: أنه منصوب بفعل محذوف دل عليه الأول، أي: ويحلّون لؤلؤاً.

ومن جره: أنه عطف على الذهب، ثم يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون لهم أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ.

[الثاني] ويحتمل أن تكون الأساور مركبة من الأمرين معاً: الذهب المرصع

(١) إعلام الموقعين (١/١٩٣). (٢) كتاب الصلاة (١٨٠).

(٣) انظر كتاب: السبعة في القراءات لابن مجاهد (٤٣٥).

باللؤلؤ، والله أعلم بما أراد<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]. وهذا لا يختص بمقام الصلاة قطعاً، بل المراد به الحرم كله، فالذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، هو الذي توعد من صد عنه، ومن أراد الإلحاد بالظلم فيه.

فالحرم ومشاعره كالصفا والمروة، والمسعى ومنى، وعرفة، ومزدلفة، لا يختص بها أحد، دون أحد بل هي مشتركة بين الناس، إذ هي محل نسكهم ومتعبدتهم، فهي مسجد من الله وقفه ووضعه لخلقه، ولهذا امتنع النبي ﷺ أن يبنى له بيت بمنى يظله من الحر، وقال: «مِنَى مُنَاخٌ مِنْ سَبَقٍ»<sup>(٢)(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وأما تقديم الرجال على الركبان ففيه فائدة جلية، وهي: أن الله شرط في الحج الاستطاعة ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدم الرجال اهتماماً بهذا المعنى وتأكيده. ومن الناس من يقول: قدمهم جبراً لهم؛ لأن نفوس الركبان تزدرهم وتوبخهم وتقول: إن الله لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم وربما توهموا أنه غير نافع لهم، فبدأ بهم جبراً لهم ورحمة<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

(١) حادي الأرواح (١٦٤).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث عائشة رضي الله عنها (٢٠٦/٦، ٢٠٧)، وأبو داود (٥٠١/٥) في المناسك، باب تحريم مكة، والترمذي (٢٢٨/٣) في الحج، باب: ما جاء أن منى مناخ من سبق. وقال: (حديث حسن صحيح)، وابن ماجه (١٠٠٠/٢) في المناسك، باب: النزول بمنى. وضعفه الألباني، كما في ضعيف ابن ماجه (٢٣٨).

(٣) زاد المعاد (٤٣٥/٣). (٤) بدائع الفوائد (٦٩/١).

قال جماعة من المفسرين<sup>(١)</sup>: ﴿حُرِّمَتْ لِلَّهِ﴾ هاهنا مغاضبه، وما نهى عنه، و«تعظيمها» ترك ملابستها.

قال الليث: حرمت الله ما لا يحل انتهاكها، وقال قوم: الحرمات هي الأمر والنهي.

وقال الزجاج: الحرمة: ما وجب القيام به، وحرمة التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات هاهنا المناسك، ومشاعر الحج زماناً ومكاناً.

والصواب: أن «الحرمات» تعم هذا كله، وهي جمع «حرمة» وهي ما يجب احترامه، وحفظه من الحقوق، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن، فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرُوا الْيَجْسَ مِنَ الْآوْثَانِ وَاصْبِرُوا قَوْلَ الزُّورِ ۖ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ذَخْطُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله، وتعلق بغيره. ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيهاً مركباً، ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكاً لا يرجى معه نجاة؛ فصور حاله بصورة حال من خَرَّ من السماء، فاختطفته الطير في الهوي، فتمزق مزقاً في حواصلها، أو عصفت به الريح، حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا ينظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفروق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطة، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منه، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد، والآلام المتراكمة، والطير الذي تخطف أعضائه، وتمزقه وتقلقه إلى مضان هلاكه، فكل شيطان له مِزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مِزعة من لحمه

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/١٥٣). (٢) مدارج السالكين (٢/٧٤).

وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق، هو هواء الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان، وأبعده من السماء<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعْتِيرِ ۚ إِنَّكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۚ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۚ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ ۚ وَالمُعْتَرَّ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَّن يَنَالَهُ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٦، ٣٧].

فأخبر أنه إنما سخرها لمن يذكر اسمه عليها، وأنه إنما يناله التقوى، وهو التقرب إليه بها، وذكر اسمه عليها، فإذا لم يذكر اسمه عليها كان ممنوعاً من أكلها، وكانت مكروهة لله، فأكسبتها كراهيته لها، حيث لم يذكر عليها اسمه، أو ذكر عليها اسم غيره، وصف الخبث، فكانت بمنزلة الميتة.

وإذا كان هذا في متروك التسمية، وما ذكر عليه اسم غير الله، فما ذبحه عدوه المشرك به الذي هو أخبث البرية أولى بالتحريم؛ فإن فعل الذابح وقصده وخبثه لا ينكر أن يؤثر في المذبوح، كما أن خبث الناحك ووصفه وقصده يؤثر في المرأة المنكوحة.

وهذه أمور إنما يصدق بها من أشرق فيه نور الشريعة وضياؤها، وبأشر قلبه بشاشة حكمها، وما اشتملت عليه من المصالح في القلوب والأبدان، وتلقاها صافية من مشكاة النبوة، وأحكم العقد بينها وبين الأسماء والصفات التي لم يطمس نور حقائقها ظلمة التأويل والتحريف<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

وفي القراءة الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ﴾<sup>(٣)</sup>، فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله. ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وأكثر

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٣٤، ٢٣٥). (٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٦٠، ١٦١).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمر: (إن الله يدفع)، (ولولا دفع) بغير ألف فيهما. وقرأ نافع: (إن الله يدفع)، (ولولا دفع الله) بالألف فيهما. وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي: (إن الله يدفع) بالألف، (ولولا دفع الله) بغير ألف. كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد (٤٣٧).

ذَكَرًا كَانَ دَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَدَفَاعَهُ أَعْظَمُ، وَمَنْ نَقَصَ نَقَصَ، ذَكَرًا بِذِكْرِ وَنَسِيَانًا  
بِنَسِيَانٍ<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾  
[الحج: ٣٩].

وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية<sup>(٢)</sup>، وهذا غلط لوجوه:  
أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها  
من القتال بمكة.

الثاني: أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم،  
فإنه قال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].  
وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. نزلت في  
الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين<sup>(٣)</sup>.

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. والخطاب  
بذلك كله مدني، فأما الخطاب (يا أيها الناس) فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد وغيره، ولا ريب أن الأمر

(١) الوابل الصيب (١٠٠).

(٢) قال القرطبي رحمه الله تعالى: «وهي مكية سوى ثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج: ١٩ - ٢١] إلى تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد. وعن ابن عباس أيضاً: أنهن أربع آيات، إلى قوله: ﴿عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].

وقال الضحاك وابن عباس أيضاً: هي مدنية - وقاله قتادة - إلا أربع آيات: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ إلى ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٥]، فهن مكيات وعد النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات.

وقال الجمهور: السورة مختلطة، منها مكِّي ومنها مدني، وهذا هو الأصح؛ لأن الآيات تقتضي ذلك؛ لأن «يا أيها الناس» مكِّي، و«يا أيها الذين آمنوا» مدني. اهـ. تفسير القرطبي (٤٣٩٣/٥).

(٣) وهم من الصحابة الأبرار «حمزة وعلي وعبيدة»، ومن أعدائهم الأشقياء «شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة»، رواه البخاري (٣٤٦/٧) في المغازي، باب: قتل أبي جهل، و(٢٩٧/٨) في تفسير سورة الحج.

بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة، فأمر به في مكة بقوله: ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ﴾ [الفرقان: ٥٢]، أي: بالقرآن جهاداً كبيراً، فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، وجهاد الحجة، وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى في (مستدركه) من حديث الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتْلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾. وهي أول آية نزلت في القتال. وإسناده على شرط (الصحيحين)<sup>(١)</sup>.

وسياق السورة يدل على أن فيها المكي والمدني، فإن قصة إلقاء الشيطان في أمانة الرسول مكية<sup>(٢)</sup>، والله أعلم<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

قال الزجاج: تأويل هذا: لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم - في كل شريعة نبي - المكان الذي يصلى فيه، فلولا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كان يصلى فيها في شريعته، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد المساجد. وقال الأزهري: أخبر الله سبحانه أنه لولا دفعه بعض الناس عن الفساد ببعضهم؛ لهدمت متعبدات كل فريق من أهل دينه وطاعته في كل زمان، فبدأ بذكر الصوامع والبيع؛ لأن صلوات من تقدم من بني إسرائيل وأصحابهم كانت فيها قبل نزول القرآن؛ وأخرت المساجد لأنها حدثت بعدهم.

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله (٢١٦/١)، والترمذي (٣٠٤/٥) في التفسير، باب: ومن سورة الحج، والحاكم (٦٦/١)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) إن كان هذا إشارة إلى قصة الغرانيق فهي قصة مكذوبة، قال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وقال ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة، وانظر في إبطالها - إن رغبت - كتاب «الغرانيق قصة دخيلة على السيرة النبوية» لمؤلفه صالح أحمد الشامي، نشره المكتب الإسلامي. [الشامي].

(٣) زاد المعاد (٧٠/٣)، (٧١).

وقال ابن زيد: الصلوات صلوات أهل الإسلام تنقطع إذا دخل عليهم العدو. قال الأخفش: وعلى هذا القول: الصلوات لا تهدم، ولكن تحل محل فعل آخر، كأنه قال: تركت صلوات.

وقال أبو عبيدة: إنما يعني مواضع الصلوات.

وقال الحسن: يدفع عن مصلّيات أهل الذمة بالمؤمنين. وعلى هذا القول لا يحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول؛ وهذا ظاهر اللفظ ولا إشكال فيه بوجه: فإن الآية دلت على الواقع، ولم تدل على كون هذه الأمكنة - غير المساجد - محبوبة مرضية له، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة التي كانت محبوبة له قبل الإسلام، وأقرّ منها ما أقرّ بعده وإن كانت مسخوطة له، كما أقرّ أهل الذمة وإن كان يبغضهم ويمقتهم، ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم، وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين وإن كان يبغضها، وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أقرّوا عليها شرعاً وقدرأ: فهو يحب الدفع عنها وإن كان يبغضها كما يحب الدفع عن أربابها وإن كان يبغضهم، وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى، وهو مذهب ابن عباس في الآية.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله - هو ابن موسى - عن إسرائيل، عن السدي، عن حدثنا عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿هَلَدِمَتِ صَوْمِعُ وَيَبَعُ﴾ قال: الصوامع التي يكون فيها الرهبان، والبيع: مساجد اليهود، والصلوات: كنائس النصارى، والمساجد: مساجد المسلمين<sup>(١)</sup>.

قال ابن أبي حاتم وأخبرنا الأشج، ثنا حفص بن غياث، عن داود، عن أبي العالية قال: ﴿هَلَدِمَتِ صَوْمِعُ﴾ قال: صوامع وإن كان يشرك به! وفي لفظ: إن الله يحب أن يذكر ولو من كافر!

وفي تفسير شيان<sup>(٢)</sup> عن قتادة: الصوامع للصائبين، والبيع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للمسلمين<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/١٧٤ - ١٧٨)، والدر المنثور (٦/٦٠).

(٢) شيان بن عبد الرحمن النحوي، الإمام الحافظ الثقة. انظر: ترجمته ومصادرها في السير للذهبي (٧/٤٠٦).

(٣) أحكام أهل الذمة (٢/٦٦٦ - ٦٦٨).

قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۝ [الحج: ٥٣، ٥٤].

ذكر ﷺ أنواع القلوب:

فذكر القلب المريض وهو الضعيف المنحل الذي لا تثبت فيه صورة الحق، والقلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه، فهذان القلبان شقيان معذبان. ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به.

قال الكلبي: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ فترق للقرآن قلوبهم، وقد بين سبحانه حقيقة الإخبات ووصف المخبتين في قوله: ﴿وَنَشَرَّ الْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ الْمَقِيصُ الصَّلَوةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ [الحج: ٣٤، ٣٥].

فذكر للمخبتين أربع علامات: وجل قلوبهم عند ذكره، والوجل: خوف مقرون بهيبة ومحبة، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهراً وباطناً، وإحسانهم إلى عبادته بالإنفاق مما آتاهم، وهذا إنما يتأتى للقلب المخبت.

قال ابن عباس: المخبتين: المتواضعين.

وقال مجاهد: المطمئنين إلى الله.

وقال الأخفش: الخاشعين.

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: الخاضعين.

قال الزجاج: اشتقاقه من الخبت وهو المنخفض من الأرض. وكل مخبت متواضع<sup>(٢)</sup>.

فالإخبات سكون الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله.

فإن قيل: فإذا كان معناه التواضع والخشوع، فكيف عدي بـ (إلى) في قوله: ﴿وَأَحْسَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣]. قيل: ضمن معنى أنابوا واطمأنوا وتابوا، وهذه عبارات السلف في هذا الموضع.

والمقصود: أن القلب المخبت ضد القاسي والمريض، وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مخبتاً إليه وبعضها قاسياً، وجعل للقسوة آثاراً وللإخبات آثاراً.

(١) الطبري (١٧/١٦١ و ١٩١، ١٩٢).

(٢) انظر أيضاً في معنى: الإخبات، لسان العرب (٢/١٠٨٧)، والمفردات لأصفهاني (١٤١).

فمن آثار القسوة تحريف الكلم عن مواضعه<sup>(١)</sup>؛ وذلك من سوء الفهم وسوء القصد وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب، ومنها نسيان ما ذكر به، وهو ترك ما أمر به علماً وعملاً، ومن آثار الإخبات وجل القلوب لذكره سبحانه، والصبر على أقداره، والإخلاص في عبوديته، والإحسان إلى خلقه<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

واللام [في ليجعل] على بابها وهي لام الحكمة والتعليل، أخبر الله سبحانه أنه جعل ما ألقاه الشيطان في أمانة الرسول محنة واختباراً لعباده، فافتتن به فريقان وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم.

وعلم المؤمنون أن القرآن والرسول حق وأن إلقاء الشيطان باطل، فأمنوا بذلك وأخبت له قلوبهم، فهذه غاية مطلوبة مقصودة بهذا القضاء والقدر<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]. وفيه قولان:

أحدهما: أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا في عامة كل ليل ونهار.

والقول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة.

وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة، فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة، إلا أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان ولا يتكون فيه النبات وكل موضع لم تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه

(١) قال الله تعالى ذكره: ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ لِيَتَقَرَّبُوا إِلَهُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ...﴾ الآية [المائدة: ١٣].

(٢) شفاء العليل (١٩٢).

(٣) شفاء العليل (١٠٦).

كذلك؛ لفرط حره وبسسه والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات، هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة، ويكون فيها اعتدالان خريفي وربيعي<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ ۚ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّلِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۗ﴾ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿[الحج: ٧٣، ٧٤].

حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقهم، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدر على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه، فيستنقذونه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه، واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟.

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله، وتقييح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات، وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات، وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، وإجابة الدعوات، فأعطوها صوراً وتمائيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإله الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك، وتعاونوا عليه، وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلهيتهم، أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً، واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك، ولم يقدرُوا عليه، ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: ﴿ضَعُفَ الطَّلِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

(١) مفتاح دار السعادة (٢٢٨، ٢٢٩).

قيل: الطالب العابد، والمطلوب المعبود، فهو عاجز متعلق بعاجز، وقيل: هو تسوية بين السالب والمسلوب، وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز، وعلى هذا فقيل: الطالب: الإله الباطل، والمطلوب: الذباب يطلب منه ما استلبه منه، وقيل: الطالب: الذباب، والمطلوب: الإله، ...

والصحيح: أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد والمعبود المستلب والمستلب، فمن جعل هذا إلهاً مع القوي العزيز، فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ولا عظمه حق تعظيمه<sup>(١)</sup>.

فأقام سبحانه حجة التوحيد وبَيَّنْ إفك أهل الشرك والإلحاد بأعذب ألفاظ وأحسنها، لم يستكرهها غموض، ولم يُشْنِها تطويل، ولم يعبها تقصير، ولم تزر بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز ما لا يتوهم متوهم ولا يظن ظان أن يكون أبْلَغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر، العظيم الشرف، البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

فما قَدَّرَهُ مَنْ عَبَدَ مِنْ دُونِهِ مَنْ لَا يَخْلُقُ ذَبَاباً وَاحِداً... ولما كان هذا من جهلهم بالله وترك تعظيمه الذي ينبغي له، قال كثير من المفسرين في معنى ذلك: ما عظموه حق عظمتهم.

وقال بعضهم: ما عرفوه حق معرفته.

وقال بعضهم: ما عبدوه حق عبادته.

وقال آخرون: ما وصفوه حق صفته.

ولما كان أهل العلم والإيمان قد قاموا من ذلك بحسب قدرتهم وطاقاتهم التي أعانهم بها، ووقفهم بها لمعرفة وعبادته وتعظيمه لم يتناولهم هذا الوصف؛ فإن التعظيم له سبحانه والمعرفة والعبادة ووصفه به نفسه قد أمر به عباده وأعانهم عليه ورضي منهم بمقدورهم من ذلك، وإن كانوا لا يقدرونه قدره ولا يقدر أحد من العباد قدره، فإنه إذا كانت السموات السبع في يده كالخردلة في يد أحدنا، والأرضون السبع في يده الأخرى كذلك، فكيف يقدره حق قدره من أنكر أن يكون له يدان فضلاً عن أن يقبض بهما شيئاً؟ فلا يد عند المعطلة ولا قبض في الحقيقة،

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٣٥ - ٢٣٧). (٢) الصواعق المرسله (٢/ ٤٦٦، ٤٦٧).

وإنما ذلك مجاز لا حقيقة له، وللجهمية والمعتلة نفاة الصفات من هذا الذم أوفر نصيب، وللمتفلسفة وأفراخهم وأتباعهم ذنوب مثل ذنوب أصحابهم وأكثر<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

فأخبر تعالى أنه اجتباهم، والاجتباء كالاصطفاء، وهو افتعال من: اجتبى الشيء يجتبيه إذا ضمه إليه وحازه إلى نفسه، فهم المجتبون الذين اجتباهم الله إليه، وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين؛ ولهذا أمرهم تعالى أن يجاهدوا فيه حق جهاده فيبذلوا له أنفسهم، ويفردوه بالمحبة والعبودية، ويختاروه وحده إلهاً معبوداً محبوباً على كل ما سواه، كما اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألستهم وجوارحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم، فيؤثرونه في كل حال على من سواه، كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحباءه وآثرهم بذلك على من سواهم.

ثم أخبرهم تعالى أنه يسر عليهم دينه غاية التيسير، ولم يجعل عليهم فيه من حرج البتة، لكمال محبته لهم ورأفته ورحمته وحنانه بهم.

ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحنفاء أبيهم إبراهيم، وهي إفراده تعالى وحده بالعبودية، والتعظيم، والحب، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والتفويض، والاستسلام؛ فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره.

ثم أخبر تعالى أنه نوه بهم وأثنى عليهم قبل وجودهم، وسماهم عباده المسلمين قبل أن يظهرهم، ثم نوه بهم وسماهم كذلك بعد أن أوجدهم؛ اعتناءً بهم ورفعاً لشأنهم وإعلاءً لقدرهم.

ثم أخبر تعالى أنه فعل ذلك ليشهد عليهم رسوله، ويشهدوا هم على الناس، فيكونوا مشهوداً لهم بشهادة الرسول، شاهدين على الأمم بقيام حجة الله عليهم، فكان هذا التنويه وإشارة الذكر لهذين الأمرين الجليلين ولهاتين الحكمتين العظيمتين. والمقصود: أنهم إذا كانوا بهذه المنزلة عنده تعالى، فمن المحال أن يحرمهم

كلهم الصواب في مسألة فيفتي فيها بعضهم بالخطأ، ولا يفتي فيها غيره بالصواب ويظفر فيها بالهدى من بعدهم، والله المستعان<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، فحقُّ جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأمانى ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون كلمة الله هي العليا.

واختلفت عبارات السلف في حقِّ الجهاد، فقال ابن عباس: هو است فراغ الطاقة فيه، وألا يخاف في الله لومة لائم.

وقال مقاتل: اعملوا لله حق عمله، واعبدوه حقَّ عبادته.

وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى.

ولم يصب من قال: إن الآيتين منسوختان<sup>(٢)</sup> لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق.

وحقُّ تقاته وحقُّ جهاده: هو ما يطيقه كل عبد في نفسه، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة، والعجز، والعلم، والجهل، فحق التقوى، وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء، وتأمل كيف عقب الأمر بذلك قوله: ﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

والحرج: الضيق، بل جعله واسعاً يسع كل أحد، كما جعل رزقه يسع كل حي وكلف العبد بما يسعه العبد، ورزق العبد ما يسع العبد، فهو يسع تكليفه، ويسعه رزقه، وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما.

(١) إعلام الموقعين (٤/١٦٧، ١٦٨).

(٢) انظر: الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي (٤٤).

قال النبي ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة»<sup>(١)</sup>، أي: بالملة، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، وقد وسع الله ﷻ على عباده غاية التوسعة في دينه، ورزقه، وعفوه، ومغفرته، وبسط عليهم التوبة ما دامت الروح في الجسد، وفتح لهم باباً لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مصيبة مكفرة.

وجعل بكل ما حرم عليهم عوضاً من الحلال أنفع لهم منه، وأطيب، وألذ، فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يضيق عنه.

وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسراً قبله، ويسراً بعده، (فلن يغلب عسر يسرين).

فإذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده، فكيف يكلفهم ما لا يسعهم فضلاً عما لا يطيقونه ولا يقدرُونَ عليه<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

وقوله: ﴿مَلَّةَ أَيْكُمُ الْإِبْرَاهِيمَ﴾.

و«ملة» منصوب على إضمار فعل، أي: اتبعوا والزموا ملة إبراهيم، ودل على المحذوف ما تقدم من قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾، وهذا هو الذي يقال له: الإغراء<sup>(٣)</sup>.

وقيل: منصوب انتصاب المصادر، والعامل فيه مضمون ما تقدم قبله.

وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (١/١٩٢) عن حبيب بن ثابت مرسلًا، والخطيب في تاريخه (٧/٢٠٩)، وضعفه الألباني، كما في غاية المرام (٢٠) حديث رقم (٨). ويغني عنه ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (٣/٣٥٥) (المحققة) عن ابن عباس ؓ قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: (الحنفية السمحة)، والبخاري في الأدب المفرد (١/٣٨٥)، والطبراني في الكبير (٧/٢٢٧) رقم (١١٥٧٢)، وأحمد في الزهد مرسلًا (٢٨٩ و ٣١٠).

والبخاري معلقاً في الصحيح، كتاب الإيمان، باب: الدين يسر (١/١١٦)، قال الحافظ ابن حجر: (إسناده حسن)، وكذا قال الألباني، كما في الصحيحة رقم (٨٨١)، وتمام المنة، ص (٤٥)، والله أعلم.

(٢) زاد المعاد (٣/٨، ٩).

(٣) الإغراء هو: (أمر المخاطب بلزوم ما يحمد به). انظر: الألفية بشرح ابن عقيل (٣/٣٠١).

مسلماً وما كان من المشركين»<sup>(١)(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾  
[الحج: ٧٨].

أي: متى اعتصمتم به تولاكم، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما  
العدوان اللذان لا يفارقان العبد. وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج. فالنصر  
على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال  
الاعتصام بالله<sup>(٣)</sup>.

\*\*\*

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه (٤٠٧/٣) عن عبد الرحمن بن أبيزى، والدارمي (٢/٢٠٢) برقم (٢٦٩١)، والطبراني في الدعاء (٩٢٦/٢) برقم (٢٩٤)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٢) برقم (٣٣). قال النووي: (إسناده صحيح)، الأذكار (٦٨). وقال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح) مجمع الزوائد (١١٦/٦).

(٢) جلاء الأفهام (١٥٤). (٣) مدارج السالكين (١/١٧٩، ١٨٠).

## سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوحِهِمْ خَفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٧].

علق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه. وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

والفردوس: اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات.

وأصل الفردوس: البستان، والفرايس: البساتين. قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب. وقال الليث: الفردوس: جنة ذات كروم مفردس، أي: معرش.

وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار، وهو اختيار المبرد وقال: الفردوس - فيما سمعت من كلام العرب، الشجر الملتف والأغلب عليه العنب، وجمعه: الفرايس. قال: ولهذا سمي باب الفرايس بالشام، وأنشد لجرير:

فقلت للركب إذ جد المسير بنا يا بعد ما بين أبواب الفرايس

(١) الجواب الكافي (٢٢٧).

وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية. واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العرب، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين، قال حسان:

وإن ثواب الله كل مخلد جنان من الفردوس فيها يخلد<sup>(١)</sup>

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَاتًّا ءَاخِرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿[المؤمنون: ١٢ - ١٦].

فاستوعب سبحانه ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفة بل تراباً وماء، إلى حين بعثه يوم القيامة، فأول مراتب خلقه أنه سلاله من طين، ثم بعد ذلك سلاله من ماء مهين، وهي النطفة التي استلت من جميع البدن، فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم يقلب الله سبحانه تلك النطفة علقه: وهي قطعة سوداء من دم، فتمكث كذلك أربعين يوماً أخرى، ثم يصيرها سبحانه مضغة: وهي قطعة لحم أربعين يوماً، وفي هذا الطور تقدر أعضاؤه وصورته وشكله وهيئته<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿[المؤمنون: ٥١ - ٥٣].

إن الله سبحانه ذم الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبوراً كل حزب بما لديهم فرحون، والزُّبُر: الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله، وما بعث الله به رسوله. فأمر تعالى الرسل بما أمر به أممهم أن يأكلوا من الطيبات، وأن يعملوا صالحاً، وأن يعبدوه وحده، وأن يطيعوا أمره وحده، وأن لا يتفرقوا في الدين، فمضت الرسل وأتباعهم على ذلك ممثلين لأمر الله قابلين لرحمته، حتى نشأت خلوف قَطَّعُوا أمرهم بينهم زبوراً كل حزب بما لديهم فرحون، فمن تدبر هذه الآيات ونزلها على الواقع تبين له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان<sup>(٣)</sup>.

(١) حادي الأرواح (٨٨، ٨٩)، وراجع الآية برقم (١٠٧) من سورة الكهف.

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٢٢٤).

(٣) تحفة المودود (٢١٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠ - ٦١].

روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «لا، يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات»<sup>(١)</sup>.

وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً.

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمَرٌ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨ - ٧١].

[جاء هذا] في إثبات نبوة رسوله ﷺ، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول، وتأمل حال القائل، فإن كون القول للشيء كذباً وزوراً يعلم من نفس القول تارة وتناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، فالكذب باد على صفحاته وباد على ظاهره وباطنه، ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب والفجور والخداع لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يتأتى منه من القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق المبرأ من كل فاحشة وغدر وكذب وفجور، بل قلب هذا وقصده وقوله وعمله يشبه بعضه بعضاً، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضاً، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول، وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ تتبين لهم حقيقة الأمر وأن ما جاء به في أعلى مراتب الصدق<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨) (٢) الجواب الكافي (٤٧).

(٣) الصواعق المرسلة (٤٦٩/٢)، (٤٧٠).

وأخبر سبحانه أن الحق لو اتبع أهواء العباد فجاء شرع الله ودينه بأهوائهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

ومعلوم أن عند النفاة<sup>(١)</sup> يجوز أن يزد شرع الله ودينه بأهواء العباد، وأنه لا فرق في نفس الأمر بين ما ورد به وبين ما تقتضيه أهواؤهم إلا مجرد الأمر، وأنه لو ورد بأهوائهم جاز وكان تعبدًا ودينًا.

وهذه مخالفة صريحة للقرآن وأنه من المحال أن يتبع الحق أهواءهم، وأن أهواءهم مشتملة على قبح عظيم لو ورد الشرع به لفسد العالم أعلاه وأسفله وما بين ذلك، ومعلوم أن هذا الفساد إنما يكون لقبح خلاف ما شرعه الله وأمر به، ومنافاته لصالح العالم علويه وسفليه، وأن خراب العالم وفساده لازم لحصوله ولشرعه، وأن كمال حكمة الله وكمال علمه ورحمته وربوبيته يأبى ذلك ويمنع منه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلاً، يوصل إلى عابديه النفع ويدفع عنهم الضرر، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه، بل إن قدير على قهره والتفرد بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه. فلا بد من أحد أمور ثلاثة:

- إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.
- وإما أن يعلو بعضهم على بعض.
- وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه، فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد، من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره، كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره.

فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان كذلك يستحيل أن يكون له إلهان معبودان<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿[المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

والهمزات: جمع همزة كتمرات وتمرّة. وأصل الهمز الدفع، قال أبو عبيد عن الكسائي:

همزته، ولمزته، ولهزته، ونهزته - إذا دفعته.

والتحقيق: أنه دفع بنخز وغمز، يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوسوس والإغواء إلى القلب.

قال ابن عباس والحسن: همزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم.

وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم، وهذا قول مجاهد، وفسرت بنخنقهم وهو الموتة التي تشبه الجنون. وظاهر الحديث<sup>(٢)</sup>: أن الهمز نوع غير النفخ والنفث.

وقد يقال - وهو الأظهر -: إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصابتهم لابن إدم، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعاً خاصاً، كنظائر ذلك.

ثم قال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾، قال ابن زيد: في أموري.

وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن.

وقال عكرمة: عند النزع والسياق، فأمره أن يستعيز من نوعي شر إصابتهم بالهمز وقربهم ودنوهم منه.

فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه، وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]. فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) الصواعق المرسلة (٢/٤٦٣، ٤٦٤).

(٢) هو قوله ﷺ: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»، رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

(٣) إغاثة اللهفان (١/٩٥، ٩٦).

قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها. وتأمل قوله أولاً: ﴿رَبِّ﴾ استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه تبارك وتعالى، فقال: (ارجعونني) ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال له: ﴿كَلَّا﴾ لا سبيل لك إلى الرجعي وقد عمّرت ما يتذكر فيه من تذكّر. ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث وأن يفسح له في المهلة ليتذكر ما فات، أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله لسانه، وأنه لو رد لعاد لما نهى عنه وأنه من الكاذبين. فحكمة أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل فإنه لا فائدة في ذلك، ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

فتره سبحانه نفسه عن ذلك كما نزهها عن الشريك والولد، والصاحبة وسائر العيوب والنقائص من السنّة والنوم واللغوب والحاجة واكتراثه بحفظ السماوات والأرض، وتقديم الشفعاء بين يديه بدون إذنه كما يظنه أعداؤه المشركون يُخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئاً منها، فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه، فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثاً وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه، فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته، ويعرف المبطلون منهم أنهم كانوا كاذبين، ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم.

فمن أنكر ذلك فقد أنكر إلهيته وربوبيته وملكه الحق وذلك عين الجحود والكفر به سبحانه، كما قال المؤمن لصاحبه الذي حاوره في المعاد وأنكره: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]<sup>(٢)</sup>.

## سُورَةُ النُّورِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

والصواب: القول: بأن هذه الآية محكمة يعمل بها لم ينسخها شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم، ولم يأت من ادعى نسخها بحجة البتة، والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى.

فإنهم أشكل عليهم قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، هل هو خبر أو نهى، أو إباحة؟ فإن كان خبراً فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكح عفيفة، وإن كان نهياً فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفاف، وإباحة له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهاً يصح حملها عليه.

فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة، وهذا فاسد، فإنه لا فائدة فيه، ويصان كلام الله - تعالى - عن حمله على مثل ذلك، فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية، فأى فائدة في الإخبار بذلك؟

ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه.

ثم قالت طائفة: هذا عامُّ اللفظ خاصُّ المعنى، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة، وهي «عناق» البغي وصاحبها فإنه أسلم، واستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نكاحها، فنزلت هذه الآية<sup>(١)</sup>.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧١/١٨)، وأبو داود (٤٨/٦) في النكاح، باب: في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾، والترمذي (٣٠٧/٥) تفسير سورة النور، وقال: «حسن غريب»، والنسائي (٦٦/٦) في النكاح، باب: تزويج الزانية، والحاكم (١٦٦/٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

وهذا أيضاً فاسد، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه، ولو كان ذلك لبطل الاستدلال به على غيرها.

وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]. وهذا أفسد من الكل، فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين، ولا تُنَاقِضُ إحداهما الأخرى، بل أَمَرَ سبحانه بإنكاح الأيامي، وحرم نكاح الزانية، كما حرم نكاح المعتدة والمحرمة، وذوات المحارم، فأين الناسخ والمنسوخ في هذا؟

فإن قيل: فما وجه الآية؟

قيل: وجهها - والله أعلم - أن المتزوج أَمَرَ أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أٌبِيحَ له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة<sup>(١)</sup>، والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد عُلقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به، فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله، أو لا يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه، لم يصح النكاح، فيكون زانياً، فظهر معنى قوله: ﴿لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، وتبين غاية البيان، وكذلك حكم المرأة.

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة، ومقتضى العقل، فإن الله - سبحانه - حرم على عبده أن يكون قرناناً<sup>(٢)</sup> ديوثاً زوج بغي، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانته، ولهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا: زوج قعبة، فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك. فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية، والله الموفق<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦١﴾ وَالْخَمْسَةُ أَن لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

(١) في قوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُم بِأُجُورِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ﴾ [النساء: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [المائدة: ٥].

(٢) القرآن: الذي يُشارِكُ في امرأته كأن يقرب به غيره، وهو نعت سوء في الرجل الذي لا غيره له. لسان العرب (٦/٣٦١٢).

(٣) إغاثة اللفهان (١/٦٥، ٦٦).

﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿النور: ٦ - ٩﴾.

ثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد: أن عويمراً العجلاني قال لعاصم بن عدي: أرايت لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، أيقتلته فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فسل لي رسول الله ﷺ.

فسأل رسول الله ﷺ، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ.

ثم إن عويمراً سأل رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقال: «قد نزل فيك وفي صاحبك، فاذهب فائت بها».

فتلاعنا عند رسول الله ﷺ، فلما فرغا قال: كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها، فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله ﷺ. قال الزهري: فكانت تلك سنة المتلاعنين<sup>(١)(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]. فحكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفترى الكاذب، وإن كان خبره مطابقاً. وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله، كما أخبر الله تعالى به عنه. فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذباً، فأَي توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه<sup>(٣)</sup>؟

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(١) رواه البخاري (٥٢٥٩)، ومسلم (١٤٩٢). (٢) زاد المعاد (٤/١٨٠).

(٣) مدارج السالكين (١/٣٦٥). (٤) إغاثة اللهفان (١/٤٩).

قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

وقد فسرنا الآية بأن الكلمات الخبيثات للخبيثين، والكلمات الطيبات للطيبين، وفسرنا بأن النساء الطيبات للرجال الطيبين، والنساء الخبيثات للرجال الخبيثين، وهي تعم ذلك وغيره. فالكلمات، والأعمال، والنساء الطيبات لمناسبتها من الطيبين، والكلمات، والأعمال، والنساء الخبيثة لمناسبتها من الخبيثين.

فإن الله ﷻ جعل الطيب بحذافيه في الجنة، وجعل الخبيث بحذافيه في النار. فجعل الدور ثلاثة: داراً أخلصت للطيبين، وهي حرام على غير الطيبين، وقد جمعت كل طيب وهي الجنة، وداراً أخلصت للخبيث والخبائث، ولا يدخلها إلا الخبيثون، وهي النار، وداراً امتزج فيها الطيب والخبيث، وخلط بينهما وهي هذه الدار، ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط، وذلك بموجب الحكمة الإلهية.

فإذا كان يوم ميعاد الخليقة، ميز الله الخبيث من الطيب، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، فعاد الأمر إلى دارين فقط: الجنة، وهي دار الطيبين، والنار، وهي دار الخبيثين، وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم، أنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور، وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هي عين عذابهم وآلامهم، فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام.

حكمة بالغة، وعزة باهرة قاهرة، ليري عباده كمال ربوبيته، وكمال حكمته وعلمه وعدله ورحمته، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين، لا رسله البررة الصادقون.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعُثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِبَيْنِ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩].<sup>(١)</sup>

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

لما كان غض البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة، ويحرم إذا خيف منه الفساد، ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة، لم يأمر سبحانه بغضه مطلقاً، بل أمر بالغض منه. وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال، لا يباح إلا بحقه، فلذلك عم الأمر بحفظه.

وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

□ □ □

وجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج. ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى. فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما يشاء خيراً منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب. فيبعث رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك اشتياقاً إليه، وكثيراً ما يتعب ويتعب رسوله ورائده؛ كما قيل:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر  
رأيت الذي لا كلّه أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر  
فإذا كفّ الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته، فإن النظر يولد المحبة. فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه، ثم تقوى فتصير صباية، ينصب إليه القلب بكليته. ثم تقوى فتصير غراماً يلزم القلب، كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه. ثم يقوى فيصير عشقاً، وهو الحب المفرط، ثم يقوى فيصير شغفاً، وهو الحب الذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله. ثم يقوى فيصير تتيماً، والتتيم التعبد، ومنه «تيمه الحب» إذا عبده، و«تيم الله» عبد الله. فيصير القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون هو عبداً له. وهذا كله جناية النظر. فحينئذ يقع القلب في الأسر، فيصير أسيراً بعد أن كان

ملكاً، ومسجوناً بعد أن كان مطلقاً، يتظلم من الطرف ويشكوه. والطرف يقول: «أنا رائدك، ورسولك وأنت بعثتي». وهذا إنما تبلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لا بد له من التعلق بمحبوب. فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلا بد أن يتعبد قلبه لغيره.

الفائدة الثانية: نور القلب وصحة الفراسة.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِالْأَرْجُلِ مَنْ يُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِمْ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فمنعهن من الضرب بالأرجل، وإن كان جائزاً في نفسه؛ لئلا يكون سبباً إلى سمع الرجال صوت الخلخال فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهن<sup>(٢)</sup>.

وهذه الآية في سورة مدنية<sup>(٣)</sup>، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه. وأتى بأداة «لعل» المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح. فلا يرجو الفلاح إلا الثابون، جعلنا الله منهم<sup>(٤)</sup>.

فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه<sup>(٥)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٢) وَلَيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢، ٣٣].

فأمرهم بالاستغفار إلى وقت الغنى، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر، وأخبر أنه تعالى يغنيهم، فما محل كل من الآيتين؟

فالجواب: أن قوله: ﴿وَلَيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ في حق الأحرار، أمرهم الله تعالى أن يستغفروا حتى يغنيهم الله من فضله، فإنهم إن

(١) إغاثة اللهفان (١/٤٧).

(٢) إعلام الموقعين (٣/١٨١).

(٣) قال القرطبي: «مدنية بالإجماع» (٦/٤٥٥٠).

(٤) مدارج السالكين (١/١٧٨).

(٥) مدارج السالكين (٣٠٥، ٣٠٦).

تزوجوا مع الفقر التزموا حقوقاً لم يقدروا عليها وليس لهم من يقوم بها عنهم .  
وأما قوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ . فإنه سبحانه أمرهم فيها أن ينكحوا الأيامي وهن النساء اللواتي لا أزواج لهن . هذا هو المشهور من لفظ الأيم عند الإطلاق وإن استعمل في حق الرجل بالتقييد، كما أن العزب عند الإطلاق للرجل، وإن استعمل في حق المرأة . ثم أمرهم سبحانه أن يزوجوا عبيدهم وإماءهم إذا صلحوا للنكاح، فالآية الأولى في حكم تزويجهم لأنفسهم، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم .

وقوله في هذا القسم: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ يعم الأنواع الثلاثة التي ذكرت فيه، فإن الأيم تستغني بنفقة زوجها وكذلك الأمة . وأما العبد فإنه لما كان لا مال له وكان ماله لسيدته فهو فقير ما دام رقيقاً فلا يمكن أن يجعل لنكاحه غاية وهي غناه ما دام عبداً، بل غناه إنما يكون إذا عتق واستغنى بهذا العتق، والحاجة تدعوه إلى النكاح في الرق، فأمر سبحانه بإنكاحه وأخبر أنه يغنيه من فضله، إما بكسبه وإما بإنفاق سيده عليه وعلى امرأته، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغنى الذي ينتظر بنكاح الحر، والله أعلم .

وفي المسند وغيره مرفوعاً<sup>(١)</sup>: «ثلاثة حق على الله عونهم: المتزوج يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، وذكر الثالث»<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْتَ تَحَصُّنًا لِّلْبَنَاءِ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣] .  
فهذا نهى عن إكراههم على كسب المال بالبغياء، كما قيل: إن عبد الله بن أبي رأس المنافقين كان له إماء يكرههن على البغياء<sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] .

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤٣٧/٢)، والترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨) .

(٣) رواه مسلم (٣٠٢٩) .

(٢) روضة المحيين (٢٩٦، ٢٩٧) .

قال أبيُّ بن كعب: مثل نوره في قلب المسلم.

وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلبه من معرفته ومحبه والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم، ثم تقوى مادته فتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وسائر الخلق له منكر.

فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا.

منهم من نوره كالشمس، وآخر كالقمر، وآخر كالنجوم، وآخر كالسراج، وآخر يعطى نوراً عل إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ أخرى، إذ كانت هذه حال نوره في الدنيا، فأعطي على الجسر بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا، بل كان نوره ظاهراً لا باطناً أعطي نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب.

□ □ □

وقد فُسر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بكونه منور السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض. وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به. ومنه اشتق له اسم النور، الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله.

فالأول كقوله ﷺ: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى، إذا جاء لفصل القضاء.

ومنه قول النبي ﷺ في الدعاء المشهور<sup>(١)</sup>: «أعوذ بنور وجهك الكريم: أن تُضِلَّنِي، لا إله إلا أنت».

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وعند مسلم (٥/٥٦٧) الذكر، باب: الأدعية من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «اللهم لك أسلمت... اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني...»، والإمام أحمد (١/٣٠٢)، وهو عند البخاري مختصراً (١٣/٣٨٠) في التوحيد، باب: «وَهُوَ الْمَرِيضُ الْحَكِيمُ».

وفي الأثر الآخر: «أعوذ بوجهك، أو بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»<sup>(١)</sup>.

فأخبر ﷺ: أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله، كما أخبر تعالى: أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي معجم الطبراني والسنة له، وكتاب عثمان بن سعيد الدارمي وغيرها: عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه»<sup>(٢)</sup>.

وهذا الذي قاله ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السماوات والأرض.

وأما من فسرها بأنه مُنَوِّر السماوات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود.

والحق أنه نور السماوات والأرض بهذه الاعتبار كلها.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «قام بيننا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجاب النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»<sup>(٣)</sup>.

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر ﷺ قال: «سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنى أراه؟!»<sup>(٤)</sup>.

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معناه: كان ثمَّ نور، وحال دون رؤيته نور، فأنى أراه؟

قال: ويدل عليه: أن في بعض الألفاظ الصحيحة: «هل رأيت ربك؟ فقال:

(١) وأثر مشهور في قصة الطائف، رواها ابن إسحاق بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا (٢٨/٢)، لكن الدعاء وأوله: «اللهم أشكو إليك...» رواه دون سند. قال الهيثمي: «رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقيّة رجاله ثقات» (٣٥/٦)، وانظر: فقه السيرة (١٣٣).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٠٠/٩)، قال الهيثمي: «فيه أبو عبد السلام... مجهول...»، وعبد الله بن مكرّر أو مكرز على الشك لم أر من ذكره.

(٣) رواه مسلم (١٧٩). (٤) رواه مسلم (١٧٨).

رأيت نوراً»<sup>(١)</sup>.

وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس، حتى صححه بعضهم فقال: «نور إني أراه» على أنها ياء النسب، والكلمة كلمة واحدة، وهذا خطأ لفظاً ومعنى. وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ: أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه، وكان قوله: «أنى أراه» كالإنكار للرؤية حاروا في الحديث، ورده بعضهم باضطراب لفظه.

وكل هذا عدول عن موجب الدليل.

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له: إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج. وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك.

وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل: رآه بعيني رأسه. وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين، حيث قال: إنه ﷺ رأى ربه ﷻ. ولم يقل: بعيني رأسه، ولفظ أحمد كلفظ ابن عباس ﷺ.

ويدل على صحته: ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر ﷺ: قوله ﷺ في الحديث الآخر: «حجابه النور»، فهذا النور هو - والله أعلم - النور المذكور في حديث أبي ذر ﷺ: «رأيت نوراً».

□ □ □

وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان:

إحدهما: طريقة التشبيه المركب، وهي أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به. وعلى هذا عامة أمثال القرآن.

فتأمل صفة المشكاة، وهي كُوَّة لا تنفذ لتكون أجمع للضوء، قد وضع فيها مصباح. وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً، من زيت شجرة في وسط القراح، لا شرقية ولا غربية، بحيث تصيبها الشمس في إحدى طرفي النهار، بل هي في وسط القراح، محمية بأطرافه، تصيبها الشمس أعدل إصابة. والآفات إلى الأطراف دونها. فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار،

(١) رواه مسلم (١٧٨).

فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وصفه في قلب عبده المؤمن، وخصّه به.

والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقليل: المشكاة صدر المؤمن، والزجاجة: قلبه. شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها. وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحم ويحسن، ويتحنن، ويشفق على الخلق برقته، وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه. ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء، وبصلابته يشتد في أمر الله ويتصلب في ذات الله تعالى، ويغلظ على أعداء الله تعالى، ويقوم بالحق لله تعالى.

وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إلى الله أرقها وأصلبها وأصفها»<sup>(١)</sup>، والمصباح هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة: هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق. وهي مادة المصباح التي يتقد منها. والنور على النور نور الفطرة الصحيحة، والإدراك الصحيح ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نوراً على نور. ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه من الأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع، والفطرة والوحي فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان. فهذا علامة النور على النور.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفَةٌ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿[النور: ٣٩ - ٤٠].

[وهؤلاء هم] أهل الجهل والظلم، الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتباع أهوائهم، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٦٩١): أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير) وإسناده قوي.

وهؤلاء قسمان:

أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى، وهم أهل الجهل والضلال. فهؤلاء أهل الجهل المركب، الذين يجهلون الحق ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالونه ويوالون أهله: وهم ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

فهم لا اعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائئ السراب، الذي يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما هو إليه. ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان. كما هو حال من أمّ السراب فلم يجده ماءً، بل انضاف إلى ذلك: أنه وجد عنده أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين ﷺ، فحسب له ما عنده من العلم والعمل، فوقاه إياه بمثاقيل الذر. وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه، فجعله هباءً منثوراً، إذ لم يكن خالصاً لوجهه، ولا على سنة رسوله ﷺ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوماً نافعة كذلك هباءً منثوراً، فصارت أعماله وعلومه حشرات عليه..

و«السراب» ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة، يسرب على وجه الأرض، كأنه ماء يجري.

و«القيعة» والقاع: هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد. فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله: بسراب يراه المسافر في شدة الحر فيؤمه، فيخيب ظنه، ويجده ناراً تتلظى.

فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس، واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء، وإذا أتوه وجدوا الله عنده، فأخذتهم زبانية العذاب فعتلوهم إلى نار الجحيم: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع والأعمال التي كانت لغير الله تعالى صيرها الله تعالى حميماً، وسقاهاهم إياه، كما أن طعامهم: ﴿مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ① لَا يُسْتَنُّ وَلَا يَقْنَىٰ مِنْ جُوعٍ [الغاشية: ٦، ٧]. وهو تلك العلوم، والأعمال الباطلة، التي كانت في الدنيا كذلك لا تسمن ولا تغني من جوع.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ② الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وهم الذين عنى الله

بقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].  
 وهم الذين عنى بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

القسم الثاني من هذا الصنف: أصحاب الظلمات.  
 وهم المنغمسون في الجهل، بحيث قد أحاط بهم من كل وجه، فهم بمنزلة  
 الأنعام، بل هم أضل سبيلاً.  
 فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة، بل بمجرد التقليد، واتباع الآباء  
 من غير نور من الله تعالى.

فظلمات: جمع ظلمة، وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع  
 الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به  
 رسله صلوات الله وسلامه عليهم. والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من  
 الظلمات إلى النور.

فإن المعرض عن ما بعث الله به محمداً ﷺ من الهدى ودين الحق يتقلب في  
 خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره  
 إلى الظلمة، وقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم، وإذا قابلت  
 بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمداً ﷺ من النور جدَّ في الهرب منه، وكاد نوره  
 يخطف بصره. فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى. كما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم  
 فإذا جاء إلى زبالة الأفكار، ونحاتة الأذهان، جال وصال، وأبدى وأعاد،  
 وقعقع وفرقع. فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحجر في جحرة الحشرات.  
 قوله: ﴿فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ﴾ «اللجي» العميق، منسوب إلى لجة البحر. وهو معظمه.  
 وقوله تعالى ذكره: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ تصوير لحال هذا  
 المعرض عن وحيه.

فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها  
 أمواج بعضها فوق بعض.

والضمير الأول في قوله: ﴿يَغْشَاهُ﴾ راجع إلى البحر. والضمير الثاني في قوله:  
 ﴿مِّنْ فَوْقِهِ﴾ عائد إلى الموج.

ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب.

فها هنا ظلمات: ظلمة البحر اللجي، وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله، إذا أخرج من في هذا البحر يده لم يكدر يراها. واختلف في معنى (لم يكدر يراها)<sup>(١)</sup>:

والصحيح: أنها فعل يقتضي المقاربة. ولها حكم سائر الأفعال، ونفي الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها. فإنها لم توضع لنفيه، وإنما استفيد من لوازم معناها، فإنها إذا اقتضت مقاربة الفعل لم يكن واقعاً، فيكون منفيّاً باللزوم.

(١) فقال كثير من النحاة: هو نفي لمقاربة رؤيتها، وهو أبلغ من نفيه الرؤية، وأنه قد ينفي وقوع الشيء ولا تنفي مقاربه. فكأنه قال: لم يقارب رؤيتها بوجه.

قال هؤلاء: «كاد» من أفعال المقاربة، لها حكم سائر الأفعال في النفي والإثبات. فإذا قيل: كاد يفعل فهو إثبات مقاربة الفعل. فإذا قيل: لم يكدر يفعل، فهو نفي لمقاربة الفعل. وقالت طائفة أخرى: بل هذا دال على أنه إنما يراها بعد جهد شديد. وفي ذلك إثبات رؤيتها بعد أعظم العسر، لأجل تلك الظلمات.

قالوا: لأن «كاد» لها شأن ليس لغيرها من الأفعال. فإنها إذا أثبتت نفي، وإذا نفت أثبتت، فإذا قلت: ما كدت أصل إليك. فمعناه: وصلت إليك بعد الجهد والشدة. فهذا إثبات للوصول. وإذا قلت: كاد زيد يقوم فهي نفي لقيامه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾ [الحج: ١٩]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١]. وأنشد بعضهم في ذلك لغزاً:

أنحوي هذا العصر: ما هي لفظة جرت في لسان جرهم وثمود  
وإذا استعملت في صورة النفي أثبتت فإن أثبتت قامت مقام جحود؟

وقالت فرقة ثالثة، منهم أبو عبد الله بن مالك وغيره: إن استعمالها مثبتة يقتضي نفي خبرها، كقولك: كاد زيد يقوم. واستعمالها منفية يقتضي نفيه بطريق الأولى. فهي عنده تنفي الخبر، سواء كانت منفية أو مثبتة. فلم يكدر زيد يقوم أبلغ عنده في النفي من لم يقم، واحتج بأنها إذا نفيت وهي من أفعال المقاربة فقد نفت مقاربة الفعل، وهو أبلغ من نفيه. وإذا استعملت مثبتة فهي تقتضي مقاربة اسمها لخبرها. وذلك يدل على عدم وقوعه. واعتذر عن مثل قوله تعالى: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]. وعن مثل قوله: وصلت إليك وما كدت أصل، وسلمت وما كدت أسلم، بأن هذا وارد على كلامين متباينين، أي: فعلت كذا بعد أن لم أكن مقارباً له. فالأول يقتضي وجود الفعل. والثاني يقتضي أنه لم يكن مقارباً له، بل كان آيساً منه. فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان.

وذهبت فرقة رابعة: إلى الفرق بين ماضيها ومستقبلها. فإذا كانت في الإثبات فهي لمقاربة الفعل، سواء كانت بصفة الماضي أو المستقبل، وإن كانت في طرف النفي، فإن كانت بصيغة المستقبل كانت لنفي الفعل ومقاربه نحو قوله: ﴿لَوْ يَكْدُ رَيْهَا﴾، وإن كانت بصيغة الماضي فهي تقتضي الإثبات، نحو قوله: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾. فهذه أربعة طرق للنحاة في هذه اللفظة.

وأما إذا استعملت منفية فإن كانت في كلام واحد فهي لنفي المقاربة، كما إذا قلت: لا يكاد البطل يفلح، ولا يكاد البخيل يسود، ولا يكاد الجبان يفرح، ونحو ذلك.

وإن كانت في كلامين اقتضت وقوع الفعل بعد أن لم يكن مقارباً. كما قال ابن مالك<sup>(١)</sup>.

فهذا التحقيق في أمرها.

والمقصود: أن قوله: ﴿لَوْ يَكْدُ يَرْهَأُ﴾، إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة، وهو الأظهر. فإذا كان لا يقارب رؤيتها فكيف يراها؟ قال ذو الرمة:

إذا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ، لَمْ يَكْدُ رَسِيسَ الْهُوَى مِنْ حَبِّ مَيَّةٍ يَبْرَحُ  
أَي: لَمْ يَقَارِبِ الْبِرَاحَ وَهُوَ الزَّوَالُ، فَكَيْفَ يَزُولُ؟

□ □ □

فشبه سبحانه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيهِ من بعيد، فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمله ورجاه.

وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج، الذي قد غشيه السحاب من فوقه.

فيا له تشبيهاً ما أبدعه، وأشد مطابقتها لحال أهل البدع والضلال، وحال من عبد الله ﷻ على خلاف ما بعث به رسوله ﷺ وأنزل به كتابه.

وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح، ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة بالزور.

وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم. فهي سراب لا حاصل لها، وظلمات لا نور فيها.

وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه التي تلقاها من مشكاة النبوة، فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد. ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة. ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلين في القرآن في غير موضع لأوليائه وأعدائه<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

(١) راجع: شرح ابن عقيل على الألفية (١/٣٢٢).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٦ - ١٢).

فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاث المنعم عليهم، وهم أهل النور، والضالين، وهم أصحاب السراب، والمغضوب عليهم: وهم أهل الظلمات المتراكمة، والله أعلم.

فالمثل الأول من المثليين: لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع.  
والمثل الثاني: لأصحاب العلم الذي لا ينفع، والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق.

فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين، وليطابق بينهما وبين المثليين فيعرف عظمة القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأخبر سبحانه، أن الموجب لذلك: أنه لم يجعل لهم نوراً، بل تركهم على الظلمة التي خلفوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور، فإنه سبحانه وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

فتأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشي مع اشتراكها في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها.

فنبه على الاشتراك والاختلاف فنشير إلى يسير منه: فالطير كلها تشترك في الريش والجناح وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت، واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحصان والبغل وتتفاوتها في ما وراء ذلك، واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف وتتفاوتها في غير ذلك، واشتراك ذوات القرون فيها وتتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال، واشتراك حيوانات الماء في كونها سابحة تأوي فيها وتتكون فيها وتتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن عن حصره، واشتراك الوحوش في البعد عن الناس وعن مساكنهم وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره، واشتراك الماشي منها على بطنه في

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٠٥ - ٢٠٩).

ذلك وتفاوت نوعه، واشتراك الماشي على رجلين في ذلك وتفاوت نوعه أعظم تفاوت.

وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحيل على جلب مصالحه ودفع مضاره يعجز عن كثير منها نوع الإنسان.

فمن أعظم الحكم الدلالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله، بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته، وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَآ حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَآ حُمِّلَتْ وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

أصله فإن تتولوا، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً. والمعنى: أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها، وحملت طاعته والانقياد له والتسليم.

كما ذكره البخاري في صحيحه عن الزهري قال: «من الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»<sup>(٢)</sup>.

فإن تركتم أنتم ما حملتموه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه. فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم، وإنما حمل أداء الرسالة إليكم<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَوْدِعَكُمْ اللَّهُ مَلَكَتِ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ [النور: ٥٨].

أمر تعالى ممالك المؤمنين ومن لم يبلغ منهم الحلم أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة؛ لئلا يكون دخولهم هجماً بغير استئذان فيها ذريعة إلى اطلاعهم على عوراتهم وقت إلقاء ثيابهم عند القائلة والنوم واليقظة، ولم يأمرهم بالاستئذان

(١) شفاء العليل (٢٣١، ٢٣٢).

(٢) فتح الباري (١٣/٥١٢) في التوحيد، باب: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ...﴾ الآية.

(٣) الرسالة النبوية (٤٦، ٤٧).

في غيرها، وإن أمكن في تركه وجود هذه المفسدة لندورها وقلة الإفضاء إليها فجعلت كالمقدمة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢].

فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه إذن فيه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ [النور: ٦٣]. وفيه قولان للمفسرين<sup>(٣)</sup>:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضاً، بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي: دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنى: لا تجعلوا دعاءكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً. إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بُدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي: دعاؤه إياكم<sup>(٤)</sup>.

وقد يقال - وهو أحسن من القولين -: إن المصدر هنا لم يصف إضافته إلى فاعل ولا مفعول، وإنما أضيف إضافة الأسماء المحضة، ويكون المعنى: لا تجعلوا الدعاء المتعلق بالرسول المضاف إليه كدعاء بعضكم بعضاً، وعلى هذا فيعم الأمرين معاً، ويكون النهي عن دعائهم له باسمه كما يدعو بعضهم بعضاً وعن تأخير إجابته ﷺ، وعلى كل تقدير فكما أمر الله سبحانه بأن يميز عن غيره في خطابه ودعائه إياهم، قياماً للأمة بما يجب عليهم من تعظيمه وإجلاله، فتمييزه بالصلاة عليه عند ذكر اسمه من تمام هذا المقصود<sup>(٥)</sup>.

❁ ❁ ❁

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٨٧).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(١) إعلام الموقعين (١٨١، ١٨٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٧٧).

(٥) جلاء الأفهام (٢٣٥).

## سُورَةُ الْفُرْقَانِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].  
البركة نوعان أيضاً.

أحدهما: بركة هي فعله - تبارك وتعالى - ، والفعل منها «بارك» ويتعدى بنفسه تارة وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة، والمفعول منها «مبارك» وهو ما جعل كذلك فكان مباركاً بجعله - تعالى - .

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل منها «تبارك»، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له ﷻ، فهو سبحانه المبارك وعبد ورسوله المبارك، كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١].  
فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته «تبارك» فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].  
وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به ولا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعظيم ونحوهما. فجاء بناء «تبارك» على بناء «تعالى» الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك «تبارك» دال على كمال بركته وعظمها وسعتها، وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعظيم.

وقال آخر: معناه: أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه. وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه، وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، ومن هنا قيل: معناه: تعالى وتعظيم، وقيل: تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة. وقيل: تبارك أي: باسمه يبارك في كل شيء. وقيل: تبارك: ارتفع، والمبارك: المرتفع. ذكره البغوي<sup>(١)</sup>. وقيل: تبارك أي: البركة تكتسب وتنال بذكره، وقال ابن عباس: جاء بكل بركة. وقيل: معناه: ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. ذكره البغوي أيضاً.

وحقيقة اللفظة أن البركة: كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وضفاً وفعلاً منه - تبارك وتعالى -، وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين<sup>(٢)</sup> لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل «تعالى» و«تقدس» و«تعظم». ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عالياً ولا قدوساً ولا عظيماً هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس فكذلك «تبارك» لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى؟ هذا لازم وهذا متعدد، فعلمت أن من فسر «تبارك» بمعنى: «ألقي البركة» و«بارك في غيره» لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً فتبارك من باب «مجد»، والمجد كثرة صفات الجلالة والسعة والفضل.

وبارك من باب «أعطى وأنعم» ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسّر من فسّر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين، فقال: مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه.

وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب «الفتح المكي»<sup>(٣)</sup>، وبيننا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه فهو المبارك، ومن ألقي عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركاً ورسوله مباركاً وبيته مباركاً والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة وما حول المسجد الأقصى مبارك وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة<sup>(٤)</sup>.

وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه

(١) تفسير البغوي (٢/٢٤٠). (٢) تفسير الطبري (١٨/١٧٩).

(٣) هذا من الكتب التي لم تصلنا - في حدود علمي - ولعل الله يمن بظهورها.

(٤) هي أربعة مواضع [الأعراف: ١٣٧]، [الإسراء: ١]، [والأنبياء: ٧١، ٨١]، والله أعلم.

من الصلاة: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»<sup>(١)</sup>. فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعني: ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفاً وملكاً، وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفاً وملكاً فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محموداً فيهبه حمداً من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفاً وملكاً وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه ومن عز من عباده فباعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفاً وملكاً، وكذلك البركة فهو تبارك في ذاته الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركاً: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ الْكُفْرُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه. وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهاً: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»<sup>(٢)</sup>. وقال في حديث الشفاعة الطويل: «فأخبرُ ساجداً لربي فيفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن»، وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»، فدل على أن الله ﷻ أسماء وصفات استأثرت بها في علم الغيب عنده دون خلقه لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك فلا نغلو فيه ولا نجفو عنه، وبالله التوفيق<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَافُرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

(١) رواه مسلم (٥٩٢)

(٢) رواه أبو داود (١٤٢٧) والترمذي، (٣٥٦٦)، والنسائي (١٧٤٦)، وابن ماجه (١١٧٩).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٥ - ١٨٧).

أي: لو كان رسولاً لخالق السماوات والأرض، لما أحوجه أن يمشي بيننا في الأسواق في طلب المعيشة ولأغناه عن أكل الطعام، ولأرسل معه ملكاً من الملائكة، ولألقى إليه كنزاً يغنيه عن طلب الكسب<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ (٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (٨) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا [الفرقان: ١٧ - ١٩].

وهذه الآيات تحتاج إلى تفسير وبيان، فقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ عام في كل عابد ومن عبده من دون الله. وأما قوله: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾، فقال مجاهد، فيما رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح، عنه قال: «هذا خطاب لعيسى وعزير، والملائكة»<sup>(٢)</sup>. وروى عنه ابن جريج نحوه، وأما عكرمة والضحاك والكلبي، فقالوا: هو عام في الأوثان وعبدتها. ثم يأذن - سبحانه - لها في الكلام، فيقول: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾، قال مقاتل: يقول سبحانه: «أنتم أمرتموهن بعبادتكم أم هم ضلوا السبيل، أي: أم هم أخطأوا الطريق؟ فأجاب المعبودون بما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير، وَمَنْ عَبَدَهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، ولهذا قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله [تنزيهاً لك يا ربنا وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون]، ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ نوالهم، بل أنت ولينا من دونهم، وقال ابن عباس، ومقاتل: «نزهوا الله وعظموه أن يكون معه إله». وفيها قراءتان:

أشهرهما: (نَتَّخِذُ) بفتح النون وكسر الخاء، على البناء للفاعل، وهي قراءة السبعة.

(٢) تفسير الطبري (١٨/١٨٩).

(١) الصواعق المرسله (٣/٨٩٧).

والثانية: (تُتَخَذُ) بضم النون وفتح الخاء، على البناء للمفعول، وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع<sup>(١)</sup>.

فإن قيل: فقد صحت القراءة لفظاً ومعنى، فأيهما أحسن وأبلغ في المعنى المقصود، والبراءة مما لا يليق بهم؟ فإنهم على قراءة الضم يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء، وعلى قراءة الجمهور: يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم، ولا يحسن منهم أن يتخذوا ولياً من دونه، بل أنت وحدك ولينا ومعبدونا، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئاً، فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك؟ وهذا المعنى أجل من الأول وأكبر، فتأمل.

والمقصود: أنه على القراءتين: فهذا الجواب من الملائكة، ومن عبد من دون الله من أوليائه، وأما كونه من الأصنام فليس بظاهر. وقد يقال: إن الله - سبحانه - أنطقها بذلك، تكذيباً لهم، ورداً عليهم، وبراءة منهم. كقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]. وفي الآية الأخرى: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

ثم ذكر المعبدون سبب ترك العابدين بالإيمان بالله - تعالى - بقولهم: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتُهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨].

قال ابن عباس: «أطلت لهم العمر، وأفضلت عليهم، ووسعت لهم في الرزق». وقال الفراء: ولكنك متعتهم بالأموال والأولاد، حتى نسوا ذكرك، وكانوا قوماً بوراً، أي: هلكت فاسدين. قد غلب عليهم الشقاء والخذلان، والبوار: الهلاك والفساد، يقال: بارت السلعة، وبارت المرأة، إذا كسدت ولم يحصل لها من يتزوجها.

قال قتادة: والله ما نسي قوم ذكر الله ﷻ إلا باروا وفسدوا. والمعنى: ما أضللناهم ولكنهم ضلوا. قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾، أي: كذبكم المعبدون، بقولكم فيهم: إنهم آلهة، وإنهم شركاء، أو بما تقولون: إنهم أمروكم بعبادتهم، ودعوكم إليها.

وقيل: الخطاب للمؤمنين في الدنيا، أي: فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولونه، مما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الله من التوحيد والإيمان.

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/٤٧٢٦، ٤٧٢٧).

والأول أظهر. وعليه يدل السياق، وَمَنْ قَرَأَهَا بِالْيَاءِ - آخر الحروف - فالمعنى: فقد كذبوكم بقولهم، ثم قال: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ إخباراً عن حالهم يومئذ، وأنهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم، ولا نصرها من الله. قال ابن زيد: ينادي مناد يوم القيامة حين يجتمع الخلائق: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]. يقول: مَنْ عَبْدٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ، لا ينصر اليوم من عبده، والعابد لا ينصر إلهه: ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦].

فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن، فواسوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين، إذا سمعوا النداء: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩ - ٦٢] (١).

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض فامتنح الرسل والمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم، وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم، وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم وينصرونهم، ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاثلونهم؟

وامتنح العلماء بالجهال، هل يعلمونهم، وينصحونهم، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم، وإرشادهم، ولوازم ذلك؟ وامتحن الجهال بالعلماء، هل يطيعونهم، ويهتدون بهم؟

وامتنح الملوك بالرعية، والرعية بالملوك.

وامتنح الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء، وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع، والأتباع بالسادة، وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به، وامتحن الرجل بامرأته وامرأته به، وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين.

وامتنح الأمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم. ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم، من أتباع الرسل، فتنة لأغنيائهم

ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، هؤلاء.

وقالوا لنوح عليه السلام: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣].

فإذا رأى الشريف الرئيس المسكين الدليل قد سبقه إلى الإيمان ومتابعة الرسول حمي وأنف أن يسلم، فيكون مثله، وقال: أسلم فأكون أنا وهذا الوضع على حد سواء؟

قال الزجاج: كان الرجل الشريف ربما أراد الإسلام، فیمتنع منه، لثلا يقال: أسلم قبله من دونه، فيقيم على كفره، لثلا يكون للمسلم السابقة عليه في الفضل. ومن كون بعض الناس لبعضهم فتنة: أن الفقير يقول: لِمَ لَمْ أَكُنْ مِثْلَ الْغَنِيِّ؟ ويقول الضعيف: هَلَا كُنْتُ مِثْلَ الْقَوِيِّ؟ ويقول المبطل: هَلَا كُنْتُ مِثْلَ الْمَعَاظِي؟ وقال الكفار: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال مقاتل: نزلت في افتتان المشركين بفقراء المهاجرين، نحو: بلال وخباب، وصهيب، وأبي ذر، وابن مسعود، وعمار، كان كفار قريش يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين تبعوا محمداً من موالينا وأرادلنا؟ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِرْقًا مِّنْ بَيْنِ قَوْمٍ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [١٦] فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءَ حَتَّى أَسْأَلْتُمْ دِزِينَ وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ [١٧] إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ [المؤمنون: ١٠٩ - ١١١]. فأخبر سبحانه أنه جزاهم على صبرهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

قال الزجاج: أي: أتصبرون على البلاء، فقد عرفتم ما وجد الصابرون. قلت: قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر هاهنا وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ [النحل: ١١٠].

فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحصنة له ومخلصة، من الذنوب كما يخلص الكبر خبث الذهب والفضة، فالفتنة كبر القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]. فالفتنة قسمت الناس، إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث، فمن صبر

عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۚ﴾ (٢٧) ﴿يَوَلَّيْنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (٢٨) ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۚ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

فكل من اتخذ غير الرسول، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول ﷺ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا، هذا الخليل كنى عنه باسم فلان. إذا لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان.

فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول واللعنة. كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به.

وكل هذا دخل في قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾. وإن كان بعض الهجر أهون من بعض<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(٢) الرسالة التبوكية (٥٥).

(١) إغائة اللفهان (٢/ ١٦٠ - ١٦٢).

(٣) الفوائد (٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

أنزل الله سبحانه الكتاب شفاء لما في الصدور، وهدى، ورحمة للمؤمنين، ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني، وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها، مطابقة لمعانيها المرادة منها، كما وصف - سبحانه - به كتابه في قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

فالحق: هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن: هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق فهي تفسيره وبيانه.

والتفسير أصله في الظهور والبيان، وباقيه<sup>(١)</sup> في الاشتقاق الأكبر: الإسفار ومنه أسفر الفجر إذا أضاء ووضح، ومنه السفر لبروز المسافر من البيوت وظهوره، ومنه السُّفر الذي يتضمن إظهار ما فيه من العلم وبيانه، فلا بد من أن يكون التفسير مطابقاً للمفسر مفهماً له، وكلما كان فهم المعنى منه أوضح وأبين كان التفسير أكمل وأحسن، ولهذا لا تجد كلاماً أحسن تفسيراً، ولا أتم بياناً، من كلام الله - سبحانه -، ولهذا سمّاه سبحانه بياناً، وأخبر أنه يسهّر للذكر، وتيسيره للذكر يتضمن أنواعاً من التيسير:

أحدها: تيسير ألفاظه للحفظ.

الثاني: تيسير معانيه للفهم.

الثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال.

ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب، لم يكن ميسراً له، بل كان معسراً عليه، فهكذا إذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني، أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير، وهو منافي للتيسير؛ فإنه لا شيء أعسر على الأمة من أن يراد منهم أن يفهموا كونه - سبحانه - لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصلاً به، ولا منفصلاً عنه، ولا مابيناً له، ولا محايثاً، ولا يرى بالأبصار عياناً، ولا له وجه، ولا يد، من قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) أشار محقق الصواعق إلى أن في نسخة: «وتلاقيه»، وقال: ولعلها يلاقيه.

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٣٣٠ - ٣٣٢).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

فشبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد، وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهدى، وتتبع الطريق؛ فلا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل، فلا يستجيبون، ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وما ينفعهم. والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتتجنبه، وما ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوباً تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما أعطى وجعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار. فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشd وإلى الطريق مع الدليل، أضل وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦].

فأخبر تعالى: أنه بسط الظل ومدّه، وأنه جعله متحركاً تبعاً لحركة الشمس، ولو شاء لجعله ساكناً لا يتحرك، إما بسكون المظهر له، والدليل عليه، وإما بسبب آخر. ثم أخبر أنه قبضه - بعد بسطه - قبضاً يسيراً، وهو شيء بعد شيء، لم يقبضه جملة. فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته، وكمال حكمته.

فندب الرب سبحانه عباده إلى رؤية صنعته وقدرته، وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته. ولو شاء ربنا لجعله لاصقاً بأصل ما هو ظل له، من جبل وبناء وشجر وغيره. فلم ينتفع به أهله، فإن كان الانتفاع به تابعاً لمدّه وبسطه، وتحوله من مكان إلى مكان. وفي مدّه وبسطه، ثم قبضه شيئاً فشيئاً: من المصالح والمنافع ما لا يخفى ولا يحصى، فلو كان ساكناً دائماً، أو قبض دفعة واحدة: لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس، فمد الظل وقبضه شيئاً فشيئاً لازم لحركة الشمس، على ما قدرت عليه من مصالح العالم.

وفي دلالة الشمس على الظلال: ما تعرف به أوقات الصلوات، وما مضى من

اليوم، وما بقي منه . وفي تحركه وانتقاله: ما يبرد به ما أصابه من حر الشمس، وينفع الحيوانات والشجر والنبات، فهو من آيات الله الدالة عليه .

وفي الآية وجه آخر، وهو: أنه سبحانه مد الظل حين بنى السماء، كالقبة المضروبة، ودحى الأرض تحتها، فألقت القبة ظلها عليها فلو شاء - سبحانه - لجعله ساكناً مستقراً في تلك الحال . ثم خلق الشمس ونصبها دليلاً على ذلك الظل، فهو يتبعها في حركتها، يزيد بها، وينقص، ويمتد ويتقلص . فهو تابع لها تبعية المدلول للدليله .

وفيها وجه آخر، وهو: أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تلقي الظلال، فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه . وقوله تعالى: ﴿قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ كأنه يشعر بذلك . وقوله: ﴿قَبَضْنَا يَسِيرًا﴾ يشبه قوله: ﴿ذَلِكَ خَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] . وقوله: ﴿قَبَضْنَاهُ﴾ بصيغة الماضي لا ينافي ذلك . كقوله تعالى: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهُ﴾ [النحل: ١] . والوجه في الآية: هو الأول<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ (٥١) فَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢] .

فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار، بالحجة، والبيان، وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين، إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥] .

هذا من ألطف خطاب القرآن، وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائماً مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه . وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه، يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له - سبحانه - كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك، غير مهتمين به، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه .

وعبارات السلف على هذا تدور.

ذكر ابن أبي خاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك.

وقال ليث عن مجاهد قال: يظاهر الشيطان على معصية الله، ويعينه عليها. وقال زيد بن أسلم: ظهيراً، أي: موالياً.

والمعنى: أنه يوالي عدوه على معصيته والشرك به، فيكون مع عدوه معيناً له على مساخط ربه. فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلهه قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان، ومع نفسه وهواه وقربانه.

ولهذا صدر الآية بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، وهذه العبادة: هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديتهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته، ومساخطه، بخلاف وليه - سبحانه -، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه.

وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله، وبالله التوفيق<sup>(١)</sup>.

□ □ □

[وقد] نفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضرر القاصر والمتعدي، فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم، وهذا في القرآن كثير بين أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر، فهو يدعى للنفع والضرر دعاء المسألة ويدعى خوفاً ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

[الفرقان: ٦١، ٦٢].

فذكر تعالى خلق الليل والنهار وأنهما خِلْفَةٌ، أي: يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما. وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار، كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا

(٢) بدائع الفوائد (٣/٢، ٣).

(١) الفوائد (٧٩، ٨٠).

يحاذيه، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حيثاً حتى يزيله عن سلطانه، ثم يجيء الآخر عقبيه فيطلبه حيثاً حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما دائماً يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه<sup>(١)</sup>.

[والآية] تعظيم وثناء منه - تعالى - على نفسه بجعل هذا البروج والشمس والقمر في السماء، وقد اختُلف في البروج المذكورة في هذه الآية فأكثر السلف على أنها القصور أو الكواكب العظام.

قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا موسى، حدثنا شجاع، حدثنا ابن إدريس عن أبيه عن عطية: ﴿جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾، قال: قصوراً فيها حرس.

حدثنا موسى، حدثنا أبو بكر، حدثنا أبو معاوية ووكيع عن إسماعيل عن يحيى بن رافع قال: قصوراً في السماء.

حدثنا موسى، حدثنا أبو بكر، حدثنا وكيع عن سفيان بن أبي نجيع عن مجاهد قال: النجوم يعني: بروجاً.

وكذلك قال عكرمة: حدثنا أبو أحمد، حدثنا يعلى، حدثنا إسماعيل عن أبي صالح: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ قال: النجوم الكبار<sup>(٢)</sup>، وهذا موافق لمعنى اللفظة في اللغة، فإن العرب تسمي البناء المرتفع برجاً.

قال - تعالى -: ﴿أَيَنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال الأخطل:

كَأَنَّهَا بُرْجٌ رُومِيٌّ يُشِيدُهُ      بَانَ يَجُصُّ وَأَجْرٌ وَأَخْجَارٌ

قال الأعمش: كان أصحاب عبد الله يقرأونها: [تبارك الذي جعل في السماء قصوراً].

وأما المتأخرون من المفسرين فكثير منهم يذهب إلى البروج الاثني عشر التي تنقسم عليها المنازل، كل برج منزلتان وثلاث، وهذه المنازل الثمانية والعشرون يبدو منها للناظر أربعة عشر منزلاً أبداً ويخفى منها أربعة عشر منزلاً، كما أن البروج يظهر منها أبداً ستة ويخفى ستة، والعرب تسمي أربعة عشر منزلاً منها شامية، وأربعة عشر يمانية، فأول الشامية السرطان وآخرها السماك الأعزل، وأول اليمانية

(١) مفتاح دار السعادة (٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) انظر: الدر المنثور (٦/٢٦٩)، وتفسير الطبري (١٩/٢٩).

العقر وأخرها الرشا. إذا طلع منها من المشرق غاب رقبه من المغرب وهو الخامس عشر، وبها تنقسم فصول السنة الأربع، فلربيع منها: الحمل والثور والجوزاء ومنازلها الشرطين والبطين والثريا والديران والهقعة والهنة والذراع، وللصيف منها: السرطان والأسد والسنبلة ومنازلها الثرة والطرف والجبهة والزبرة والضرفة والعواء والسماك، وللخريف منها: الميزان والعقرب والقوس ومنازلها الغفر والزبان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة، وللشتاء منها: الجدي والدلو والحوت ومنازلها سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية، والفرع المقدم ويسمى الأول، والفرع المؤخر ويسمى الثاني، والرشا ولما كان نزول القمر في هذه المنازل معلوماً بالعيان والمشاهدة ونزول الشمس فيها إنما هو بالحساب لا بالرؤية، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٨، ٣٩].

فخص القمر بذكر تقدير المنازل دون الشمس، وإن كانت مقدرة المنازل لظهور ذلك للحس في القمر وظهور تفاوت نوره بالزيادة والنقصان في كل منزل مُنْزَلٍ.

ولذلك كان الحساب القمري أشهر وأعرف عند الأمم وأبعد من الغلط وأصح للضبط من الحساب الشمسي، ويشارك فيه الناس دون الحساب الشمسي، ولهذا قال تعالى في القمر: ﴿وَقَدَرُوا مَنَازِلَ لِّلْعَلَمَاءِ عَدَدَ السِّينِ وَالْحِسَابِ﴾. ولم يقل ذلك في الشمس، ولهذا كانت أشهر الحج والصوم والأعياد ومواسم الإسلام إنما هي على حساب القمر وسيره ونزوله في منازل، لا على حساب الشمس وسيرها حكمة من الله ورحمة وحفظاً لدينه لاشتراك الناس في هذا الحساب، وتعدر الغلط والخطأ فيه، فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخليط ما دخل في دين أهل الكتاب، فهذا الذي أخبرنا - تعالى - به من شأن المنازل وسير القمر فيها وجعل الشمس سراجاً، وضياء يبصر به الحيوان ولولا ذلك لم يبصر الحيوان، فأين هذا مما يدعيه الكذابون من علم الأحكام التي كَذَّبَهَا أضعافُ صدقها<sup>(١)</sup>؟

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

إن الله - سبحانه - مدح عباده الذين ذكرهم في هذه الآيات بأحسن أوصافهم وأعمالهم، فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

ف«سلاماً» هنا صفة لمصدر محذوف هو القول نفسه، أي: قالوا قولاً سلاماً، أي: سداداً وصواباً وسليماً من الفحش والخنا، ليس مثل قول الجاهلين الذين يخاطبونهم بالجهل. فلو رفع السلام هنا لم يكن فيه المدح المذكور، بل كان يتضمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون سلموا عليهم، وليس هذا معنى الآية ولا مدح فيه، وإنما المدح في الإخبار عنهم بأنهم لا يقابلون الجهل بجهل مثله، بل يقابلونه بالقول السلام فهو من باب دفع السيئة بالتي هي أحسن التي لا يلغاها إلا ذو حظ عظيم، وتفسير السلف وألفاظهم صريحة بهذا المعنى.

وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها والطفها وأحكمها وأوقرها، فقال: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي: بسكينة ووقار. والهَوْنُ بفتح الهاء من الشيء الهين وهو مصدر هان هوناً، أي: «سهل»، ومنه قولهم: يمشي على هيئته ولا أحسبها إلا مولدة<sup>(١)</sup>. ومع هذا فهي قياس اللفظة فإنها على بناء الحالة والهيئة، فهي فعلة من الهون وأصلها هَوْنَةٌ فقلبت واوها ياءً لانكسار ما قبلها، فاللفظة صحيحة المادة والتصريف، وأما الهَوْن بالضم فهو الهوان فأعطوا حركة الضم القوية للمعنى الشديد وهو الهوان، وأعطوا حركة الفتح السهلة للمعنى السهل وهو الهَوْن.

فوصف مشيهم بأنه مشيٌ حلم ووقار وسكينة لا مشي جهل وعنف وتبختر، ووصف نطقهم بأنه سلام فهو نطق حلم وسكينة ووقار لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة، فلهذا جمع بين المشي والنطق في الآية فلا يليق بهذا المعنى الشريف العظيم الخطير أن يكون المراد منه سلام عليكم، فتأمل<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

قال مجاهد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون. وإن سفه عليهم حلموا.

(١) لسان العرب (٨/٤٧٤١).

(٢) بدائع الفوائد (٢/١٥٨، ١٥٩).

«والهون» بالفتح في اللغة: الرفق واللين. و«الهون» بالضم: الهوان. فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان. والمضموم: صفة أهل الكفران. وجزاؤهم من الله النيران<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].  
والغرام: الشر الدائم واللازم والعذاب.

قال بشر:

وَيَوْمَ النَّسَارِ وَيَوْمَ الْجَفَا رِكَانًا عَذَابًا وَكَانَا غَرَامًا  
وقال الأعشى:

إِنْ يُعَاقَبْ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُغْطَ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي  
وقال أبو عبيدة: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كان هلاكاً ولزاماً لهم<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير الناس النمط الأوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلو المعتدين.

وقد جعل الله - سبحانه - هذه الأمة وسطاً، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط، والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها، فخير الأمور أوسطها<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَيَخَذْ فِيهِ مِهْكًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(٢) روضة المحبين (٥٨).

(٤) الجواب الكافي (٢٢٦).

(١) مدارج السالكين (٣٢٧/٢).

(٣) إغاثة اللهفان (١٨٢/١).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح. وهو حقيقة التوبة، قال ابن عباس رضي الله عنه: «ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» <sup>(١)</sup> [الفتح: ١، ٢].

واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا أو في الآخرة؟ على قولين: فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها. فبدلهم بالشرك إيماناً، وبالزنا عفة وإحصاناً، وبالكذب صدقاً، وبالخيانة أمانة، فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالاً صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية. وقال سعيد بن المسيب، وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهام مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا. وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها. فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: إن لي ذنباً ما أراها هاهنا»، قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه <sup>(٢)</sup>.

فهذا حديث صحيح. ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر. فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار. ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطى مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه. وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات. إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته. فأين

(١) أخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه، كما في الدر المنثور (٢٧٩/٦).

(٢) رواه مسلم (١٩٠).

في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟ والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عُرفت عُرف لطف الاستدلال به ودقته. وهي أن الذنب لا بد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه. فلا بد إذاً من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث. ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كير الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه، فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح. وهي أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطي مكان كل سيئة حسنة. فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله. وإزالة النار بدل منها، وهي الأصل. فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول.

يوضحه: أن التائب قد بدل كل سيئة بدمه عليها حسنة. إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة. والتوبة من كل ذنب حسنة. فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار. فتأمل، فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة. وقد تكون دونها. وقد تكون فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها.

يوضحه: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعاً، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب،

كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه. كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة، فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله: ﴿يَذِلُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، ولم يقل: مكان كل واحدة واحدة. فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل، وأما في الحديث: فإن الذي عُدب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأعطي مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبي ﷺ عن كبار ذنوبه، ولما انتهى إليها ضحك، ولم يبين ما يفعل الله بها، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة. ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله: «أخْبِئُوا عَنْهُ كِبَارَهَا»، فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها. فيكون تبديلها أعظم موقعاً عنده من تبديل الصغائر. وهو به أشد فرحاً واغتراباً.

والثاني: ضحك النبي ﷺ عند ذكر ذلك، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقر به على نفسه من الذنوب، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها. وإنما عرضت عليه الصغائر، فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع. لا إله إلا هو الرحمن الرحيم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]. التوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد. وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته. فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة: رجع إليه في المعاد بالثواب. وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾. قال البغوي وغيره: ﴿يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ يعود إليه بعد الموت، متاباً حسناً يفضل عن غيره.

فالتوبة الأولى: وهي قوله: «ومن تاب»: - رجوع عن الشرك.

والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجزاء متضمن معنى الأوامر، والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها، فليجعل توبته إلى الله وحده، ولوجهه خالصاً، لا لغيره.

والتأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه، ورجع إليه، والمعنى: فليعلم توبته إلى مَنْ؟ ورجوعه إلى مَنْ؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره.

ونظير هذا - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لَكَ تَعْلَقًا مَّا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ﴾ [المائدة: ٦٧]. أي: اعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته<sup>(١)</sup>.

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولاً بالقصد والعزم على فعلها. ثم إذا قوي العزم وصار جازماً: وُجد به فعل التوبة.

فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها.

والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها، والمعنى: فمن تاب إلى الله قصداً ونية وعزماً فتوبته إلى الله عملاً وفعلًا، وهذا نظير قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»<sup>(٢)(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾

[الفرقان: ٧٢].

قال محمد بن الحنفية: «الزور ههنا الغناء»، وقاله ليث عن مجاهد. قال الكلبي: لا يحضرون مجالس الباطل. واللغو في اللغة: كل ما يلغى ويطرح.

والمعنى: لا يحضرون مجالس الباطل. وإذا مروا بكل ما يلغى من قول وعمل أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه، أو يميلوا إليه. ويدخل في هذا: أعياد المشركين - كما فسرهما به السلف - والغناء، وأنواع الباطل كلها.

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٠٧/٦).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٦٩٥٣/١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٣) مدارج السالكين (٣١٤/١)، (٣١٥).

قال الزجاج: «لا يجالسون أهل المعاصي، ولا يمالئونهم عليها، ومروا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه، والاختلاط بأهله».

وقد روي: أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: مر بلهو فأعرض عنه فقال رسول الله ﷺ: «إن أصبح ابن مسعود لكريماً»<sup>(١)</sup>.

وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥].

وهذه الآية وإن كان سبب نزولها خاصاً، فمعناها عام، متناول لكل من سمع لغواً فأعرض عنه، وقال بقلبه أو لسانه لأصحابه: «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم».

وتأمل كيف قال سبحانه: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾، ولم يقل: بالزور لأن «يشهدون» بمعنى: يحضرون، فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور، فكيف بالتكلم به، وفعله؟ والغناء من أعظم الزور، والزور: يقال على الكلام الباطل، وعلى العمل الباطل، وعلى العين نفسها. كما في حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به، فقال: «هذا الزور» فالزور: القول، والفعل، والمحل. وأصل اللفظ من الميل. ومنه الزُّور، بالفتح ومنه: زرت فلاناً، إذا ملت إليه، وعدلت إليه، فالزور: ميل عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولاً وفعلًا<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صمّاً، لم يسمعه، وعمياناً: لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به.

وقال ابن عباس: لم يكونوا عليه صمّاً وعمياناً، بل كانوا خائفين خاشعين. وقال الكلبي: يخرون عليها سمعاً وبصراً.

(١) رواه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير (٣/٣٤٤) عن إبراهيم بن ميسرة، أن ابن مسعود مر بلهو فلم يقف...، فذكره. قال الألباني: ضعيف، إبراهيم بن ميسرة تابعي ثقة، فهو مرسل، ومحمد بن مسلم، وهو الطائفي صدوق يخطئ. الضعيفة برقم (١١٦٧). وانظر: التهذيب (٩/٤٤٤)، والثقات لابن حبان (٧/٣٩٩)، والدر المنثور (٦/٣٨٣).

(٢) إغاثة اللهفان (١/٢٤١، ٢٤٢).

وقال الفراء: وإذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى، كأنهم لم يسمعه، فذلك الخرور، وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني.

والمعنى على ما ذكر: لم يصيروا عندها صمّاً وعمياناً.

وقال الزجاج: المعنى: إذا تليت عليهم خروا سجداً وبكياً سامعين مبصرين كما أمروا به.

وقال ابن قتيبة: أي لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعمي لم يروها<sup>(١)</sup>.

قلت: هاهنا أمران: ذكر الخرور، وتسليط النفي عليه، وهل هو خرور القلب أو خرور البدن للسجود؟ وهل المعنى: لم يكن خرورهم عن صمم وعمه فلهم عليها خرور بالقلب خضوعاً، أو بالبدن سجوداً، أو ليس هناك خرور وعبر به عن القعود؟<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْقِبَاتٍ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

قال سعيد بن منصور حدثنا حزم قال: سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؟ فقال: يا أبا سعيد ما هذه القرّة أعين، أفي الدنيا أم في الآخرة؟ قال: لا، بل والله في الدنيا.

قال: وما هي؟

قال: والله أن يرى الله العبد من زوجته، من أخيه، من حميمه، طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولداً أو والدأ أو حميماً، أو أخاً، مطيعاً لله ﷻ<sup>(٣)</sup>.

وإمام بمعنى: قدوة، وهو يصلح للواحد وللجمع كالأمة والأسوة، وقد قيل: هو جمع أمم كصاحب وصحاب، وراجل ورجال، وتاجر وتجار، وقيل: هو مصدر كقتال وضراب، أي: ذوي إمام.

(٢) الفوائد (٨٠).

(١) تفسير غريب القرآن (٣١٥).

(٣) تحفة الودود (١٣٤).

والصواب: الوجه الأول، فكل من كان من المتقين وجب عليه أن يأتهم بهم، والتقوى واجبة، والالتزام بهم واجب، ومخالفتهم فيما أفتوا به مخالف للالتزام بهم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥].

قال محمد بن علي بن الحسين: الغرفة: الجنة، بما صبروا. قال: على الفقر في الدنيا.

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشني في زمرة المساكين يوم القيامة. قالت عائشة: ولم يا رسول الله؟ قال: إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً، يا عائشة! لا تردّي المسكين ولو بشق تمرّة، يا عائشة أحبي المساكين وقربهم فإن الله يقربك يوم القيامة»<sup>(٢)</sup>.

قلت: أما الآية فالصبر فيها يتناول صبر الشاكر على طاعته وصبره عن معصيته، وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه. ولو كان المراد بها الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر، فإن القرآن كما دلّ على جزاء الصابرين، دلّ على جزاء الشاكرين أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، بل قد أخبر أن رضاه في الشكر، ورضاه أكبر من جزائه بالجنات وما فيها، وإذا جرى الله الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدل ذلك على أنه لا يجزي الشاكرين الغرفة بما شكروا.

وأما الحديث فإنه لا يحتج بإسناده فإنه من رواية محمد بن ثابت الكوفي عن الحارث بن النعمان، والحارث هذا لم يحتج به أصحاب الصحيح، بل قال فيه البخاري: منكر الحديث، ولذلك لم يصحح الترمذي حديثه هذا ولا حسنه ولا سكت عنه، بل حكم بغرابته<sup>(٣)</sup>.

إن الحديث لو صح لم يدل على مطلوبهم فإن المسكنة التي يحبها الله من عبده

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٧٠).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٤٩٩) في الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة... والحديث صححه الألباني - حفظه الله تعالى - كما في الصحيحة برقم (٣٠٨)، وفي إرواء الغليل (٣/ ٣٥٨)، فانظره مفصلاً.

(٣) راجع: الإرواء كما سبق بيانه.

ليست مسكنة فقر المال، بل مسكنة القلب، وهي انكساره وذله وخشوعه وتواضعه لله، وهذه المسكنة لا تنافي الغنى ولا يشترط لها الفقر، فإن انكسار القلب لله ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته أفضل وأعلى من مسكنة عدم المال، كما أن صبر الواجد عن معاصي الله طوعاً واختياراً وخشية من الله ومحبة له أعلى من صبر الفقير العاجز، وقد أتى الله جماعة من أنبيائه ورسله الغنى والملك ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة لله<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُذُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

[أي]: لولا أنكم تدعونه وتعبّدونه، أي: أي شيء يعبأ بكم لولا عبادتكم إياه فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل<sup>(٢)</sup>.  
وأصح الأقوال في الآية: أن معناها: ما يصنع بكم ربي لولا عبادتكم إياه، فهو سبحانه لم يخلقكم إلا لعبادته<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(٢) جلاء الأفهام (٨١).

(١) عدة الصابرين (١٧٥، ١٧٦).

(٣) مفتاح دار السعادة (٤١٨).

## سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ أَلَا تَقْدَرُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَأَنَّهُمْ عُدُوِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٧].

لا تصلح الموالاة إلا بالمعاداة، فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخللة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإن ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].  
[انظر تفسيرها عند الآية (٨٠) من سورة الإسراء (ج ٢، ص ١٤٩)].

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩) [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

والسليم: هو السالم، وجاء على هذا المثل لأنه للصفات، كالطويل والقصير والظريف.

فالسليم: القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضاً فإنه ضد المريض، والسقيم والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم.

والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره. فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله. فسلم في محبته مع تحكيمه لرسوله، في خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. هذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

(١) الجواب الكافي (٢٦٤).

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة، وتوكلاً، وإنابة، وإخباتاً، وخشياً، ورجاءً، وخلص عمله وأمره كله لله، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله.

ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الائتتمام والافتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب، وهي العقائد. وأقوال اللسان، وهي الخبر عما في القلب وأعمال القلب، وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله، إلى ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قوة ولا عمل.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فعلة - وإن صغرت - إلا ينشر لها ديوانان: لم؟ وكيف؟ أي: لم فعلت؟ وكيف فعلت؟

فالأول: سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودد والتقرب إلى الرب ﷻ، وابتغاء الوسيلة إليه ومحل هذا السؤال: أنه، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟.

والثاني: سؤالك عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التبعّد، أي: هل كان ذلك العمل بما شرعته لك على لسان رسولي، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه؟ فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة، فإن الله - سبحانه - لا يقبل عملاً إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص،

وهوى يعارض الاتباع. فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة<sup>(١)</sup>.

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء:

من شرك يناقض التوحيد.

وبدعة تخالف السنة.

وشهوة تخالف الأمر.

وغفلة تناقض الذكر.

وهوى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفراداً لا تنحصر<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ تُسَوِّىكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾

[الشعراء: ٩٧، ٩٨].

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ تُسَوِّىكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾، ومعلوم أنهم ما سووهم به - سبحانه - في الخلق، والرزق، والإماتة والإحياء، والمُلْك والقُدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوى التراب برب الأرباب؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب، وكيف يسوى الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم، بالغني بالذات، القادر بالذات، الذي غناه، وقدرته ومملكه، وجوده، وإحسانه، وعلمه، ورحمته، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته؟<sup>(٣)</sup>.

□ □ □

وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة

(٢) الجواب الكافي (١٧٩).

(١) إغاثة اللهفان (١/٧، ٨).

(٣) الجواب الكافي (١٩٧).

والعبودية والتعظيم، ومع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله.

فحقيق لمن تصلح نفسه، وأحب سعادتها ونجاتها: أن يستيقظ لهذه المسألة علماً وعملاً، وتكون أهم الأشياء عنده، وأجلّ علومه وأعماله. فإن الشأن كله فيها والمدار كله عليه، والسؤال يوم القيامة عنها. قال تعالى: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَشْتَلَنَّهُ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

قال غير واحد من السلف: هو عن قول: «لا إله إلا الله»، وهذا حق فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها.

فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها، ولوازمها وحقوقها.

قال أبو العالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم الرسل؟ فالسؤال عما إذا كانوا يعبدون: هو السؤال عنها نفسها. والسؤال عما إذا أجابوا المرسلين سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها: هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كله إليها.

وأمر هذا شأنه حقيق بأن تنهي عليه الخناصر، ويعض عليه بالنواجذ، ويقبض فيه على الجمر ولا يؤخذ بأطراف الأنامل ولا يطلب على فضلة، والله الموفق لا إله غيره ولا رب سواه<sup>(١)</sup>.



## سُورَةُ النَّملِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦].

فهو ميراث العلم والنبوة لا غير، وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم، وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثير سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصاً به. وأيضاً فإن كلام الله يصاب عن الإخبار بمثل هذا فإنه بمنزلة أن يقال: «مات فلان وورثه ابنه»، ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه. وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

وأيضاً فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٥] وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ [النمل: ١٥، ١٦]، وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه وما كان لأبيه من أعلى المواهب، وهو العلم والنبوة: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، وكذلك قول زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [٥] يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا [مريم: ٥، ٦].

فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله، وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله، فيسأل الله العظيم ولدًا يمنهم ميراثه ويكون أحق به منهم، وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله، فبعداً لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه، ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء منه منزهون عنه، والحمد لله على توفيقه وهدايته<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يشبه من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول، وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية، وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ وَالظَّلِيلِ فَهُمْ يُرْزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

ثم قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ النَّمْلِ﴾ [النمل: ١٨]، فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي معروف بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكناً لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: وهم لا يشعرون، فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النملة، حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكاً من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: «نهى عن قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد»<sup>(١)</sup>. وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح، فهلاً نملة واحدة»<sup>(٢)</sup>؟

وذكر هشام بن حسان: «أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين فجلس عليه ثم تشهد، ثم قال: لتنتهن أو ليحرقن عليكم ونفعل قال: فذهبن». وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة.

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣٣٢/١ و ٣٤٧)، أبو داود (١٧٨/١٤) في الأدب، باب: في قتل الذر، وابن ماجه (١٠٧٤/٢) في الصيد، باب: ما نهى عن قتله، ورواه غيرهم، وصححه الألباني، كما في الإرواء (١٤٢/٨). و«الصرد» هو طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم نصفه أبيض ونصفه أسود. انظر: النهاية لابن الأثير (٢١/٣).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١).

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم»<sup>(١)</sup>. ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره. وقال: الإمام أحمد حدثنا<sup>(٢)</sup>.

قال: «خرج سليمان بن داود يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا وإما أن تهلكنا. فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم». «ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها. قال: فرفعت ذلك من الأرض فطافت في مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعت فعاتت تحاول حمله فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم فرفعت فطافت فلم تجده فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مراراً فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضواً عضواً، قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية، فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب».

والنمل من أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل، ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة فأمر بإلقائها في قارورة وبسد فم القارورة وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعدما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات، فقالت: نعم ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقترضت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاءً لنفسي. فعجب سليمان من شدة حرصها.

وهذا من أعجب الهداية والعطية، ومن حرصها، أنها تكدُّ طول الصيف وتجمع للشتاء علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه، وهي على ضعفها

(١) لم أهد إليه في كتاب الزهد، وإنما وقفت على الذي بعده.

(٢) وفي الزهد حدثنا عبد الله حدثنا أبي حدثنا وكيع حدثنا مسعر عن زيد العمي عن أبي الصديق الناجي... فذكره. الزهد، ص (٨٣).

شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها، ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيه إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه؟ فهي تدرك بالشَّم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه من فتات الخبز من أو غيره فتحمله وتذهب به وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاؤوا كخيطة أسود يتبع بعضهم بعضاً، حتى يتساعدوا على حمله ونقله، وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيراً فلا، ولها صدق الشم وبعد الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائداً يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلصة من الحب شيئاً لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في غسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيراً ويملأه ماءً، ثم يضع فيه ذلك الشيء فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه فيتسلق في الحائط، ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقي نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك. وأحمى صانع مرة طوقاً بالنار ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلققه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزاً له وهو أبعد مكان في المحيط<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۚ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ۚ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحُطْ بِهِ ۖ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِيَّ يَقِينٍ ۖ إِنَّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۚ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ

(١) شفاء العليل (٦٩، ٧٠).

لِلشَّيْطَانِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾  
[النمل: ٢٠ - ٢٤].

وهذا الهدهد من أهدي الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره، ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقدته وتوعده، فلما جاءه بדרه بالعدر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه فقال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾، وفي ضمن هذا: أَنِّي أَتَيْتُكَ بِأَمْرٍ قَدْ عَرَفْتَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ بِحَيْثُ أَحَطْتُ بِهِ وَهُوَ خَيْرٌ عَظِيمٌ بِهِ شَأْنٌ فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَحِثُّكَ مِنْ سَبِيلٍ يَنْبَغِي يَقِينٌ﴾.

والنبا: هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته ثم وصفه بأنه نبا يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبا استفزعت قلب المخبر لتلقي الخبر وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج.

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التأكيد فقال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ﴾، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجل الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْطَانِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وحذف أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيداناً بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها.

ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدّهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصّدّ حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السماوات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض.

وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض، قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء أمانة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك

بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض - جلت قدرته ولطف علمه -، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠].

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، فهو الإله لهم وحده. فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه. وإن لم يكن معه رب فعل هذا، فكيف تجعلون معه إلهاً آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية: «إله مع الله فعل هذا» حتى يتم الدليل. فلا بد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله. فكيف تعبدون آلهة أخرى سواء؟ فعلم أن إلهية ما سواء باطلة، كما أن ربوبية ما سواء باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنى: «هل مع الله إله آخر؟» من غير أن يكون المعنى: «فعل هذا»، فقوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى، ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير، أي: فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلهاً آخر لا يخلق شيئاً وهو عاجز؟ وهذا كقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]، وهو كثير في القرآن، وبه تتم الحجة كما تبين<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

(١) شفاء العليل (٧٠، ٧١).

(٢) مدارج السالكين (١/٤١٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].  
هل السلام من الله؟ فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه؟ أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعاً؟  
فالجواب عنه: أن الكلام يحتمل الأمرين ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح.  
فيرجح كونه داخلياً في جملة القول لأمرين:  
منها: اتصاله به وعطفه عليه من غير فاصل. وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعاً على كل واحد منهما. هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع، ولهذا إذا قلت: الحمد لله، وسبحان الله، فإن التسييح هنا داخل في المقول.  
ومنها: أنه إذا كان معطوفاً على المقول كان عطف خبر على خبر، وهو الأصل. ولو كان منقطعاً عنه كان عطفًا على جملة الطلب، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب.  
ومنها: أن قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾، ظاهر في أن المسلم هو القائل: الحمد لله ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة، ولم يقل: سلام على عبادي.

ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور:

أحدها: مطابقته لنظائره في القرآن، من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى، كقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠].  
ومنها: أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون، والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم، وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم.  
أما الأول: فقال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١]. وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله، ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيهاً مطلقاً كما نزه نفسه عما يقول ضلال خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم، المخالفون لهم، وإذا سلموا من كل ما رماهم أعدائهم لزم سلامة كل ما جاؤوا به من الكذب والفساد.

وأعظم ما جاؤوا به: التوحيد ومعرفة الله، ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به

نفسه على ألسنتهم، وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد: فهو الحق المحض. وما خالفه فهو الباطل والكذب المحال.

□ □ □

وقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾، فإنه يتضمن حمده بما هو من نعوت الكمال وأوصاف الجلال، والأفعال الحميدة، والأسماء الحسنی وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ما جاؤوا به من كل باطل.

فقابل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه، فهذا يشهد بكون السلام هنا من الله تعالى، كما هو في آخر الصفات. وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره، فمنه قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، وقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، ونظائره كثيرة جداً.

وفصل الخطاب في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعاً وتنظمها انتظاماً واحداً. فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس له فيه إلا البلاغ، والكلام كلام الرب تبارك وتعالى، فهو الذي حمد نفسه، وسلم على صفوة عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك. فإذا قال الرسول: «الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى»، كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد الرب به نفسه وسلم به هو على عباده، فهو سلام من الله ابتداءً، ومن المبلغ بلاغاً، ومن العباد: اقتداء وطاعة.

فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به. فالدين كله في هذين المقامين<sup>(٢)</sup>.

فأمر - سبحانه - بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، فإن كون العبد

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٠ - ١٧٢). (٢) مدارج السالكين (٢/ ١٢٧).

على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد. فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده وكافي من قام به. فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: ٨٠].

وقوله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقوله: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

فوصف الكافر بأنه ميت، وأنه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك أن القلب الحي هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل، ولا إرادة للحق وكرهية للباطل، بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) طريق الهجرتين (٢٣٩).

(٢) شفاء العليل (١٠٤).

## سُورَةُ الْقَصَصِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿فَالْقَظْفَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به ليكون لهم عدواً وحزناً، وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزناً لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرتة من أن لا يكون له فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته ويكون في قبضته وتحت تصرفه. فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾ [القصص: ٤١].

فهذا جعل كوني قدرتي، أي: قدرنا ذلك وقضينا، وجعل العبد إماماً يدعو إلى النار أبلغ من جعله يزني ويسرق ويقتل، وجعله كذلك أيضاً لفظ مجمل يراد به أنه جبره وأكرهه عليه واضطره إليه، وهذا محال في حق الرب تعالى، وكماله المقدس يأبى ذلك وصفات كماله تمنع منه كما تقدم، ويراد به أنه مكنه من ذلك وأقدره عليه من غير أن يضطره إليه ولا أكرهه ولا أجبره فهذا حق<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم، وأنه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه لئلا يقولوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك؛ فدلّت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعاً الذين يقولون: إن أعمالهم قبل البعثة ليست قبيحة لذاتها بل إنما قبحت بالنهي فقط، والذين يقولون: إنها قبيحة ويستحقون عليها العقوبة عقلاً بدون البعثة فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين، ودلت على القول الوسط الذي اخترناه ونصرناه: أنها قبيحة في نفسها ولا يستحقون العقاب إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة، فلا تلازم بين ثبوت الحسن والقبح العقليين وبين استحقاق الثواب والعقاب، فالأدلة إنما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها ولم تقتض توقف الحسن والقبح بكل اعتبار عليها وفرق بين الأمرين<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وهذا يدل على أن ما قدمت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم. ولولا قبحه لم يكن سبباً لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها، وهو عدم مجيء الرسول إليهم. فمنذ جاء الرسول انعقد السبب، ووجد الشرط، فأصابهم سيئات ما عملوا، وعوقبوا بالأول والآخر<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

فقسم الناس إلى مستجيبين للرسول، ومتبع هواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة، وعدل عنها إلى خلافها فقد اتبع هواه، وهذا أكثر من أن يذكر. والمقصود: أن الواجب على الخلق بعد وفاته هو الواجب عليهم في حياته سواء، ففرض من سمع كلامه أن يأخذ به، ومن خفي عليه قوله سأل من يعرفه، فإذا سمعه ففرض عليه أن يأخذ به فإن خفي عليه، فغاية قول غيره أن يسوغ له الأخذ به؛ فيكون سائغ الاتباع بعد خفاء السنة لا واجب الإتيان، ولا سيما مع ظهور السنة وبالله التوفيق<sup>(٣)</sup>.

(٢) مدارج السالكين (١/٢٣٢، ٢٣٣).

(١) مفتاح دار السعادة (٤٤٩).

(٣) الصواعق المرسلّة (٤/١٥٢٦، ١٥٢٧).

فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما، إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما يأت به الرسول، فهو من الهوى<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِيلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

فإنها وصف لطائفة من مؤمني أهل الكتاب قدموا على رسول الله ﷺ مكة فآمنوا به فغيرهم المشركون، وقالوا: قبحتم من وفد بعثكم قومكم لتعلموا خبر الرجل ففارقتم دينكم وتبعتموه ورغبتم عن دين قومكم، فأخبر عنهم بأنهم خاطبوهم خطاب متاركة وإعراض وهجر جميل، فقالوا: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِيلِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وكان رفع (السلام) متعیناً لأنه حكاية ما قد وقع، ونصب (السلام) في آية الفرقان متعیناً لأنه تعليم وإرشاد لما هو الأكمل والأولى للمؤمن أن يعتمد عليه إذا خاطبه الجاهل.

فتأمل هذه الأسرار التي أدناها يساوي رحلة، والله المحمود وحده على ما من به وأنعم<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤].

فهذا من دعاء المسألة يبيكتهم الله ﷻ ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم، وليس المراد اعبدوهم، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الكهف: ٥٢].

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].  
ليس المراد هاهنا بالاختيار الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل

(١) إعلام الموقعين (١/ ٨١).

(٢) ذكره ابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام (١/ ٤١٨).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ١٥٩، ١٦٠).

المختار، وهو سبحانه كذلك، ولكن ليس المراد بالاختيار هاهنا هذا المعنى، وهذا الاختيار داخل في قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، فإنه لا يخلق إلا باختياره، ودخل في قوله تعالى: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ فإن المشيئة هي الاختيار.

وإنما المراد بالاختيار هاهنا: الاجتهاء والاصطفاء، فهو اختيار بعد الخلق، والاختيار العام اختيار قبل الخلق، فهو أعم وأسبق، وهذا أخص، وهو متأخر، فهو اختيار من الخلق، والأول اختيار للخلق.

وأصبح القولين أن الوقف التام على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، ويكون ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفيًا، أي: ليس هذا الاختيار إليهم، بل هو إلى الخالق وحده، فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، ومحال رضاه، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار؛ لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع، وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع، فقلوه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

أي: على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجهه وأستأمله.

قال الفراء: أي: على فضل عندي أني كنت أهله ومستحقاً له إذ أعطيته. وقال

مقاتل: يقول: على خير علمه الله عندي.

وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود (النبي) فيما أوتي من

الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَكُمْ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]،

ولم يقل: هذا من كرامتي، ثم ذكر قارون وقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾،

يعني: أن سليمان رأى ما أوتي من فضل الله عليه ومنته وأنه ابتلي به فشكره،

وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَيْنَ أَدْقَتْهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾

[فصلت: ٥٠]، أي: أنا أهله وحقيق به فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه<sup>(١)</sup>.

ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً

وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨].

فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضا الله سبحانه عمن آتاه ذلك

وشرف قدره وعلو منزلته عنده، لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر مما آتى قارون،

فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته، علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة لا

محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

قال البخاري في صحيحه: يقال: كل شيء هالك إلا وجهه: إلا ملكه، وقال:

إلا ما أريد به وجهه<sup>(٣)</sup>.

وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: فأما السماء والأرض فقد زالتا لأن

أهلها صاروا إلى الجنة وإلى النار، وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب، لأنه سقف

الجنة، والله ﷻ عليه فلا يهلك ولا يبيد، وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

(٢) شفاء العليل (٣٧).

(١) الفوائد (٢٠٠).

(٣) رواه البخاري معلقاً (٣٦٤/٨) في التفسير، أول سورة القصص، والطبري (١٢٧/٢٠).

وَجَهَنَّمَ، فذلك أن الله ﷻ أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. وقالت الملائكة: هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء، فأخبر الله تعالى عن أهل السماوات وأهل الأرض أنهم يموتون فقال: كل شيء هالك - يعني: ميت - إلا وجهه لأنه حي لا يموت فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت، انتهى كلامه.

وقال في رواية أبي العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب الإصطخري ذكره أبو الحسين في (كتاب الطبقات) قال: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: «هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة والتمسكين بعروتها المعروفين بها المقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب نبينا ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق، وساق أقوالهم إلى أن قال: وقد خلقت الجنة وما فيها، وخلقت النار وما فيها، خلقهما الله ﷻ وخلق الخلق لهما، ولا يفيان ولا يفنى ما فيهما أبداً.

فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، وبنحو هذا من متشابه القرآن؟ قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك. وهما من الآخرة لا من الدنيا، والحدور العين لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة ولا أبداً. لأن الله ﷻ خلقهن للبقاء لا للفناء، ولم يكتب عليهن الموت، فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع، وقد ضل عن سواء السبيل. وخلق سبع سماوات بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، والماء فوق السماء العليا السابعة، وعرش الرحمن ﷻ فوق الماء، وأن الله ﷻ على العرش، والكرسي موضع قدميه، وهو يعلم ما في السماوات والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى، وما في قعر البحر ومنبت كل شجرة وشجرة، وكل زرع وكل نبات، ومسقط كل ورقة وعدد كل كلمة وعدد الحصى والتراب والرمل ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم، ويعلم كل شيء لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو على العرش فوق السماء السابعة ودونه حجب من نار ونور وظلمة، وما هو أعلم بها.

فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَلِّ الْوَهْدِ﴾ [ق: ١٦]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، ونحو هذا من متشابه القرآن، فقل: إنما يعني بذلك: العلم، لأن الله ﷻ على العرش فوق السماء السابعة العليا، يعلم ذلك كله، وهو بائن من خلقه، لا يخلو من علمه مكان<sup>(١)</sup>.



(١) حادي الأرواح (٤٩ - ٥١).

## سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ لَا يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَكُونُونَ لُغَاةً يُهْلِكُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٦].

فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لا بد أن يمتحن خلقه ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره.

وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل. وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم وعاقبة أمرهم وما صاروا إليه.

وافتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك، وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة وهو تبيين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم، بل بمعلومه إذا وجد وتحقق. والفتنة هي التي أظهرته وأخرجته إلى الوجود فحيث حسن وقوع الجزاء عليه.

ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله وأتباعهم. ظنه وحسابه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة، فإن بين يديه من الفتنة والمحنة والعذاب أعظم وأشق مما فر عنه.

فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنت،

وإما أن لا يقول بل يستمر على السيئات، فمن قال: آمنا، امتحنه الرب تعالى وابتلاه لتحقيق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه، وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء، ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربه تعالى ويفوته، بل هو في قبضته وناصيته بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلي به من قال: آمنت.

فمن آمن به وبرسله فلا بد أن يتلى من أعدائه وأعداء رسله بما يؤلمه ويشق عليه، ومن لم يؤمن به وبرسله فلا بد أن يعاقبه فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين.

فلا بد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد ثم ينقطع ويعقبه أعظم اللذة، والكافر يحصل له اللذة والسرور ابتداء ثم ينقطع ويعقبه أعظم الألم والمشقة، وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات فيلتذون بها ابتداء ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها، والذين يصبرون عنها يتألمون بفقدائها ابتداء ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه وتركوه منها.

فالألم واللذة أمر ضروري لكل إنسان، لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير والآجل الدائم العظيم بون، ولهذا كان خاصة العقل النظر في العواقب والغايات. فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه البتة فظنه أكذب الحديث، فإن الإنسان خلق عرضة للذة والألم وللسرور والحزن والفرح والغم، وذلك من جهتين: من جهة تركيبه وطبيعته وهيئته، فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجه، بل لا بد أن يبغى بعضها على بعض فيخرج عن حد الاعتدال. فيحصل الألم.

ومن جهة بني جنسه فإنه مدني بالطبع لا يمكنه أن يعيش وحده، بل لا يعيش إلا معهم وله ولهم لذاذات ومطالب متضادة ومتعارضة لا يمكن الجمع بينها، بل إذا حصل منها شيء فات منها أشياء، فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته وهم يريدون منه ذلك، فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب ما فاته من إرادته وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وسعوا في تعطيل مراداته، كما لم يوافقهم على مراداتهم فيحصل له من الألم والتعذيب بحسب ذلك.

فهو في ألم ومشقة وعناء وافقهم أو خالفهم، ولا سيما إذا كانت موافقتهم على

أمر يعلم أنها عقائد باطلة وإرادات فاسدة وأعمال تضره في عواقبها، ففي موافقتهم أعظم الألم وفي مخالفتهم حصول الألم.

فالعقل والدين والمروءة والعلم تأمره باحتمال أخف الألمين تخلصاً من أشدهما، وبإيثار المنقطع منهما لينجو من الدائم المستمر.

فمن كان ظهيراً للمجرمين من الظلمة على ظلمهم، ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم، ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم، أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلاً وآجلاً أضعاف أضعاف ما فر منه. وسنة الله في خلقه أن يعذبهم بإنذار من إيمانهم وظاهرهم، وإن صبر على ألم مخالفتهم ومجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة وآجلة تزيد على لذة الموافقة بأضعاف مضاعفة. وسنة الله في خلقه أن يرفعه عليهم ويذلهم له بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه، وإذا كان لا بد من الألم والعذاب فذلك في الله وفي مرضاته ومتابعة رسله أولى وأنفع منه في الناس ورضائهم وتحصيل مراداتهم.

ولما كان زمن التألم والعذاب فصبره طويل فأنفاسه ساعات وساعته أيام وأيامه شهور وأعوام، سأل سبحانه الممتحنين فيه بأن لذلك الابتلاء أجلاً ثم ينقطع، وضرب لأهله أجلاً للقاءه يسليهم به ويسكن نفوسهم ويهون عليهم أثقاله، فقال: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ لَاقٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه وأجل لقاء المبتلي سبحانه وإثابته هان عليه ما هو فيه، وخف عليه حمله.

ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه، وكان العامل إذا علم أن ثمرة علمه وتعبه يعود عليه وحده لا يشركه فيه غيره، كان أتم اجتهاداً وأوفر سعياً، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

وأيضاً فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه، فإنه غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم، بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم ونهاهم عما يعود مضرتهم وعنته عليهم في معاشهم ومعادهم. فكانت ثمرة هذا الابتلاء والامتحان مختصة بهم، واقتضت حكمته أن نصب

ذلك سبباً مفصلاً إلى تميز الخبيث من الطيب والشقي من الغوي ومن يصلح له ممن لا يصلح. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

فابتلاهم سبحانه بإرسال الرسل إليهم بأوامره ونواهيه واختياره، فامتاز برسله طيبهم من خبيثهم وجيدهم من رديئهم، فوقع الثواب والعقاب على معلوم أظهره ذلك الابتلاء والامتحان.

ثم لما كان الممتحن لا بد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به، وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه؛ لأنه لما آمن به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنِيبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

ثم ذكر سبحانه ابتلاء العبد بأبويه وما أمر به من طاعتهما وصبره على مجاهدتهما له على أن لا يشرك به، فيصبر على هذه المحنة والفتنة ولا يطيعهما بل يصاحبهما على هذه الحال معروفاً، ويعرض عنهما إلى متابعة سبيل رسله. وفي الإعراض عنهما وعن سبيلهما والإقبال على من خالفهما وعلى سبيله من الامتحان والابتلاء ما فيه..

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

ثم ذكر سبحانه حال من دخل في الإيمان على ضعف عزم وقلة صبر وعدم ثبات على المحنة والابتلاء، وأنه إذا أُوذِيَ في الله كما جرت به سنة الله واقتضت حكمته من ابتلاء أوليائه بأعدائه وتسليطهم عليهم بأنواع المكاره والأذى لم يصبر على ذلك وجزع منه وفر منه ومن أسبابه، كما يفر من عذاب الله، فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب الله لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله.

وهذا يدل على عدم البصيرة وأن الإيمان لم يدخل قلبه ولا ذاق حلاوته حتى سوى بين عذاب الله له على الإيمان بالله ورسوله، وبين عذاب الله لمن لم يؤمن به وبرسوله.

وهذا حال من يعبد الله على حرف واحد لم ترسخ قدمه في الإيمان وعبادة الله، فهم من المفتونين المعذبين وإن قرَّ من عذاب الناس له على الإيمان. ثم ذكر حال هذا عند نصرة المؤمنين، وأنهم إذا نصروا لجأ إليهم وقال: كنت معكم والله سبحانه يعلم من قلبه خلاف قوله.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

ثم ذكر سبحانه ابتلاء نوح بقومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وابتلاء قومه بطاعته فكذبوه فابتلاهم بالغرق<sup>(١)</sup>.

والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها ومن يصلح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح، ولیمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان؛ إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

يقول تعالى: انظروا كيف بدأت الخلق فاعتبروا بالإعادة بالابتداء<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكُبُونَ

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٣ - ١٨).

(١) شفاء العليل (٢٤٥ - ٢٤٧).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ١٩٧).

أَتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾  
[العنكبوت: ٤١].

فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياءهم أضعف منهم، فهم في ضعفهم، وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتاً، وهو أوهن البيوت وأضعفها.

وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء ضعفاً كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُقَصَّرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]. وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيئًا﴾ [هود: ١٠١].

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله ولياً يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده. وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه، وحصوله على ضد مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم ذلك بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؟

فالجواب: أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتاً، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه، يفيدهم عزاً وقدرة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر،

والاعتبار والتقدير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس.

وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر<sup>(١)</sup>.

وقد أخبر سبحانه عن أمثاله التي يضربها لعباده، يدلهم على صحة ما أخبر به، أن أهل العلم هم المتفعمون بها المختصون بعلمها.

وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه بكى، ويقول: لست من العالمين<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

**قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].**

ف قيل: المعنى: أنكم في الصلاة تذكرون الله، وهو ذاكر من ذكره، ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه. وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهم.

وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية رضي الله عنه **﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾** قال: هو قوله تعالى: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾** [البقرة: ١٥٢]. فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه.

وقال ابن زيد وقتادة: معناه: ولذكر الله أكبر من كل شيء.

وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ القرآن: **﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾**؟ ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء المتقدم: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق» الحديث<sup>(٣)</sup>.

وكان شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه يقول: الصحيح أن معنى الآية: أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله تعالى أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

(١) بدائع الفوائد (٩/٤). (٢) مفتاح دار السعادة (١/٥١).

(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١٩٥/٥)، والترمذي (٣٣٧٧).

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس: أنه سئل: أي العمل أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر.

وفي السنن عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله تعالى»<sup>(١)</sup>. رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْتَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُبُ بِمِثْلِكَ إِذَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧ - ٤٩].  
إنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم.

وسواء كان المعنى: أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بخبرين.  
أحدهما: أنه آيات بينات.

الثاني: أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم. أو كان المعنى: أنه آيات بينات في صدورهم، أي: كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم. والقولان متلازمان ليسا بمختلفين، وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم، فتأمل<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ذكر هذا جواباً لطلبهم آية تدل على صدقه، فأخبر أنه يكفيهم من كل آية، فلو كان ما تضمنه من الإخبار عنه وعن صفاته وأفعاله واليوم الآخر يناقض العقل لم يكن دليلاً على صدقه فضلاً عن أن يكون كافياً. والمقصود أن الله سبحانه تمم

(١) رواه أبو داود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢).

(٢) الوابل الصيب (٩٤، ٩٥) دار البيان. (٣) مفتاح دار السعادة (٥٤).

الدين وأكملة بنبيه وما بعثه به فلم يحوج أمته إلى سواه، فلو عارضه العقل وكان أولى بالتقديم منه لم يكن كافياً للأمة ولا كان تاماً في نفسه.

في مراسيل أبي داود: أن الرسول ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة فيها شيء من التوراة فقال: «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم، أنزل على نبي غير نبينهم»، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢)(١).

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والمراد الجنة عند أهل التفسير، قالوا: وإن الآخرة يعني: الجنة لهي دار الحياة التي لا موت فيها، فقال الكلبي: هي حياة لا موت فيها.

وقال الزجاج: هي دار الحياة الدائمة. وأهل اللغة على أن الحيوان بمعنى: الحياة.

قال أبو عبيدة وابن قتيبة: «الحياة: الحيوان»، قال أبو عبيدة: الحياة والحيوان الحي - بفتح الحاء - واحد.

قال أبو علي: يعني: أنها مصادر، فالحياة فعلة كالجلبة، والحيوان كالنزوان والغليان، والحي كالعي، قال العجاج:

كُنَّا بِهَا إِذَا الْحَيَاةُ حَيٌّ

أي: إذا الحياة حياة، أما أبو زيد فخالفهم. وقال: الحيوان: ما فيه روح، والموتان والموات: ما لا روح فيه.

والصواب: أن الحيوان يقع على ضربين:

أحدهما: مصدر كما حكاه أبو عبيدة.

والثاني: وصف كما حكاه أبو زيد على قول أبي زيد: الحيوان مثل الحي خلاف الميت.

(١) لم أتمد إليه بهذا اللفظ، لكن جاء هذا المعنى في أحاديث أخر بلفظ: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟...»، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣/٣٨٧)، والدارمي (١/٩٥) قريب منه، في العلم، باب: ما يتقي من تفسير حديث النبي ﷺ، وابن أبي عاصم في السنة (١/٢٧) ورواه غيرهم، والحديث حسنه الألباني، كما في السنة (١/٢٧)، والمشكاة (١/٦٣) وحسنه، وفصل تخريجه في الإرواء (٦/٣٤).

(٢) الصواعق المرسله (٣/٨٢٦، ٨٢٧).

ورجح القول الأول بأن الفعلان بابه المصادر كالنزوان والغليان بخلاف الصفات فإن بابها فعلان كسكران وغضبان.

وأجاب من رجع القول الثاني بأن فعلان قد جاء في الصفات أيضاً، قالوا: رجل ضميان للسريع الخفيف، وزفيان قال في الصحاح: ناقة زفيان سريعة، وقوس زفيان سريعة الإرسال للسهم.

فيحتمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ معنيين:

أحدهما: أن حياة الآخرة هي الحياة لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها، أي: لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار فيكون الحيوان مصدراً على هذا.

الثاني: أن يكون المعنى: أنها الدار التي لا تفنى ولا تنقطع ولا تبید كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا، فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا. فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهديهم سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

## سُورَةُ الرُّومِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا بِرُءُوسِهِمْ فِي يَوْمِ ذِي الْقَعْدَةِ﴾ [الرُّوم: ١-٤].

روى الترمذي في جامعه عن ابن عباس: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم، لأنهم أولياؤهم أهل الأوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر رضي الله عنه، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «أما إنهم سيغلبون»، فذكروه لهم فقالوا: اجعلوا بيننا وبينكم أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا.

فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «ألا جعلت إلى دون العشرة».

قال سعيد بن جبیر: والبضع ما دون العشرة.

قال: ثم ظهرت الروم بعد. قال فذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا بِرُءُوسِهِمْ فِي يَوْمِ ذِي الْقَعْدَةِ﴾ الآيات<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ﴾ [الرُّوم: ١٤، ١٥].

قال صاحب السماع<sup>(٢)</sup>: جاء في التفسير أنه السماع، ولو كان حراماً لما كان من أفضل نعيم الجنة.

(١) الفروسية (٤).

(٢) مناظرة بين مبيح السماع المحرم وبين صاحب القرآن المقسط.

قال صاحب القرآن: لو أمسكتكم عن استدلالكم لصحة ما ذهبتم إليه؛ لكان أستر له وأروج عند من قل نصيبه من البصيرة والعلم، ولكن يأبى الله إلا أن يكشفه ويهتكه على ألسنتكم.

ولا ريب أنه قال بعض السلف<sup>(١)</sup>: إن الحبرة ههنا السماع الحسن في الجنة، وإن الحور العين يغنين بأصوات لم يسمع خلائق بأحسن منها، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له.

وذكر أبو نعيم في صفة الجنة<sup>(٢)</sup> من حديث سعيد بن أبي مریم: حدثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط. إن مما يغنين: نحن الخيرات الحسان، نحن أزواج قوم كرام، ينظرون بقرّة أعيان. وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يمتنه، نحن الآمات فلا يخفنه، نحن المقيمات فلا يظعنه»، تفرد به سعيد بن أبي مریم<sup>(٣)</sup>.

وروي من طريق الوليد بن أبي ثور: حدثني سعد الطائي عن عبد الرحمن بن سابط عن ابن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: فذكر حديثاً فيه: «أنه تجتمع الحور العين في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات حسان لم يسمع الخلائق مثلهن: نحن الخالدات فلا نبید، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، ونحن المقيمات فلا نظعن، طوبى لمن كان لنا وكنا له<sup>(٤)</sup>.

وروي من طريق ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن عون بن الخطاب عن ابن

(١) وهو أحد القولين اللذين ذكرهما ابن جرير في تفسيره (٢٧/٢١، ٢٨).

(٢) صفة الجنة (٢٧٨/٣).

(٣) سعيد بن أبي مریم هو «سعيد بن الحكم» ثقة ثبت فقيه من كبار العاشرة، التهذيب (١٧/٤، ١٨)، والحديث رواه الطبراني في الأوسط والصغير (٢٥٩/١، ٢٦٠)، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح» مجمع الزوائد (٤١٩/١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٥٥٧).

(٤) صفة الجنة (٢١٩/٣، ٢٢٠)، والبيهقي في «البعث والنشور» برقم (٢٢٤) من وجه آخر، والحديث ضعفه العراقي، كما في تعليقه على الإحياء (٥٢٥/٤)، والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم (١٩٨٢).

لأنس بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحور العين يغنين في الجنة: نحن الحور الحسان خلقنا لأزواج كرام»<sup>(١)</sup>.

ومن طريق يزيد بن واقد عن رجل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة جذوعها من ذهب وفروعها من زبرجد ولؤلؤ، فتهب لها ريح فتصفق فما سمع السامعون بصوت شيء قط ألد منه»<sup>(٢)</sup>.

ومن طريق خالد بن معدان عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثنتان من الحور العين تغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزامير الشيطان»<sup>(٣)</sup>.

وروى الترمذي: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا أبو معاوية، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن أصواتاً لم يسمع الخلائق مثلها، قال: يقلن: نحن الخالدات فلا نبئ، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له»<sup>(٤)</sup>. وقال: حديث غريب.

وروى الطبراني من حديث سليمان بن أبي كريمة - وفيه كلام - عن هشام بن حسان عن الحسن عن أمه عن أم سلمة، قالت: قلت: يا رسول الله، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة. قلت: يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير، بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي، مجامرهن الدرر وأمشاطهن الذهب، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً، ألا ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً، ألا ونحن

(١) صححه الألباني كما في صحيح الجامع برقم (١٥٩٨)، وانظر: تخريجه مفصلاً في صفة الجنة (٣/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٢) صفة الجنة (٣/ ٢٨٢)، وقال محققه: إسناده ضعيف جداً، فيه مسلمة بن علي هو ابن خلف الخشني، ضعفه جداً غير واحد.

(٣) صفة الجنة (٣/ ٢٨٢، ٢٨٣)، والطبراني في الكبير (٨/ ١١٣) برقم (٧٤٧٨)، وحسنه الحافظ العراقي كما في الإحياء (٤/ ٥٢٦) في باب: صفة الحور العين والولدان.

(٤) رواه الترمذي (٤/ ٦٠٠) كتاب صفة الجنة، باب: ما جاء في كلام الحور العين. وقال: «غريب»، أي: ضعيف.

الراضيات فلا نسخط أبداً طوبى لمن كنا له وكان لنا...»<sup>(١)</sup> الحديث.

فيقال لكم: هل يلزم من كون الشيء ينعم الله به عباده في الآخرة أن يكون مباحاً لهم في الدنيا؟ فإن قلتم: لا يلزم ذلك؛ بطل استدلالكم. وإن قلتم: يلزم؛ قيل لكم: فالله سبحانه ينعمهم في الآخرة بلباس الحرير وأساور الذهب فجوزوا لهم لباس ذلك في الدنيا وخالفوا دينه وأمره، وأيضاً فإن الله ﷻ ينعمهم في الجنة بالخمير، فجوزوا لهم شربها في الدنيا على طرد قولكم، وأيضاً فإنهم في الجنة يأكلون ويشربون في صحاف الذهب والفضة، وقد قال ﷻ: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»<sup>(٢)</sup>، وطرد قولكم: إنها كما هي للمسلمين في الآخرة تكون مباحة لهم في الدنيا، وقد قال النبي ﷺ: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»<sup>(٣)</sup>. وقال في صحاف الذهب والفضة: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة». فأخبر أنه من استعمل هذه الأمور في الدنيا من المطعم والملبوس وغيرهما لم يستعملها في الآخرة، فإما أن يستعملها أهل الجنة ويحرمها هو وإن دخلها، كما روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثنا حسن - يعني: ابن علي بن حسن البراد - عن حميد الخراط عن محمد بن كعب قال: من شربها في الدنيا لم يشربها في الآخرة. قال: قلت: فإنه تاب حتى أدخله الله الجنة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]. قال: ينسيهم الله ذكرها أو أن ذلك وعيد له بأنه لا يدخل الجنة.

فإن هذه الأمور يستعملها أهل الجنة فمن لم تحصل له في الآخرة لم يكن من أهل الجنة. وهما تأويلان للسلف في هذه الأحاديث.

فلو قيل: إن هذا السماع اللذيذ الموعود به في الجنة، إنما هو لمن نزه سمعه في الدنيا عن سماع الغناء والملاهي اعتباراً بنظيره من اللباس وشرب الخمر واستعمال

(١) رواه الطبراني في الكبير (٣٦٧/٢٣) برقم (٨٧٠). وانظر: تفسير الطبري (٥٧/٢٣). وفيه سليمان بن أبي كريمة «ضعيف».

(٢) رواه البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧).

(٣) هذان حديثان أولهما: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة...»، رواه مسلم (٢٠٠٣)، والجزء الثاني: «من لبس الحرير... إلخ»، رواه البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣).

آية الذهب والفضة، لكان هذا أشبه بالصواب وأصح من استدلالكم على إباحته في الدنيا باستعمال أهل الجنة له<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩].

فدل بالنظير على النظير وقرب أحدهما من الآخر جداً بلفظ الإخراج، أي: يخرجون من الأرض أحياء كما يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٠ - ٢٥].

ونوع سبحانه الآيات في هذه السور، فجعل خلق السماوات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم؛ لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالة.

وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون. فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكر والبصيرة، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلاهيته وحكمته ورحمته.

وجعل المنام بالليل، والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون، وهو سمع الفهم.

وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم، كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم، فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه.

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٤٦ - ٢٥٥). (٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٦).

وجعل إراءهم البرق وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون. فإن هذه أمور مرئية بالإبصار مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته وإمكان ما أخبر به من إحياء الخلائق بعد موتهم، كما أحيا هذه الأرض بعد موتها.

وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل، فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت آية له، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤]. فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

أي: إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصح لسواي، فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمي حق تعظيمي، ولا أفردني بما أنا مفرد به وحدي دون خلقي، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَاقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

فبين سبحانه أن إقامة الوجه وهو إخلاص القصد، وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفاً مقبلاً عليه معرضاً عما سواه هو فطرته التي فطر عليها عباده، فلو خُلُوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك ولا اختاروا سواه؛ ولكن غيرت الفطر وأفسدت، كما قال النبي ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟ ثم يقول أبو هريرة: اقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾»<sup>(٣)</sup>.

(١) مفتاح دار السعادة (٢٠٣، ٢٠٤). (٢) الجواب الكافي (٢٠٧).

(٣) رواه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في مقامي هذا، إنه قال: كل مال نحلته عبداً فهو له حلال، وإنني خلقت عبادي حنفاء فأنتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»<sup>(١)</sup>، فأخبر سبحانه أنه إنما فطر عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره.

وهذا من الحق الذي خلقت له، وبه قامت السموات والأرض وما بينهما، وعليه قام العالم ولأجله خلقت الجنة والنار، ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره.

فكونه سبحانه أهلاً أن يعبد ويحب ويحمد ويشنى عليه أمر ثابت له لذاته، فلا يكون إلا كذلك. كما أنه الغني القادر الحي القيوم السميع البصير فهو سبحانه الإله الحق المبين، والإله هو الذي يستحق أن يؤله محبة وتعظيماً وخشية وخضوعاً وتذلاً وعبادة، فهو الإله الحق ولو لم يخلق خلقه، وهو الإله الحق ولو لم يعبدوه؛ فهو المعبود حقاً، الإله حقاً المحمود حقاً.

ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه ولم يحمده ولم يؤلهوه، فهو الله الذي لا إله إلا هو قبل أن يخلقهم، وبعد أن خلقهم، وبعد أن يفنيهم، لم يستحدث بخلقهم لهم ولا بأمره إياهم استحقاق إلهية وحمد؛ بل إلهيته وحمده ومجده وغناه أوصاف ذاتية له يستحيل مفارقتها له لحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله.

فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرهم أنه أهل أن يعبد، وإن لم يرسل إليهم رسولاً ولم ينزل عليهم كتاباً ولو لم يخلق جنة أو ناراً؛ علموا أنه لا شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته، ولا أقبح من الإعراض عنه.

وجاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك وتكميله وتفضيله وزيادته حسناً إلى حسنه.

فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا، وتوافقا وظهر أنهما من مشكاة واحدة؛ فعبدوه وأحبوه ومجّدوه وحمدوه بداعي الفطر وداعي الشرع وداعي العقل، فاجتمعت لهم الدواعي ونادتهم من كل جهة، ودعتهم إلى وليهم وإلههم وفاطرهم، فأقبلوا إليه

بقلوب سليمة لم يعارض خبره عندها شبهة توجب ريباً وشكاً، ولا أمره شهوة توجب رغبتها عنه وإيثارها سواء، فأجابوا دواعي المحبة والطاعة إذ نادى بهم: حي على الفلاح، وبذلوا أنفسهم في مرضاة مولا هم الحق بذل أخى السماح، وحمدوا عند الوصول إليه مسراهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح، فدينهم دين الحب وهو الدين الذي لا إكراه فيه، وسيرهم سير المحبين وهو الذي لا وقفة تعتريه<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وقوله: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَىٰ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

وهذا يعم جميع الناس، فعلم أن الله سبحانه فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة، وأيضاً فإنه أضاف الفطرة إليه إضافة مدح لا إضافة ذم؛ فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة كدين الله وبيته وناقته، وأيضاً فإنه قال: ﴿فَأَفَقَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وأيضاً فإن هذا تفسير السلف، قال ابن جرير: يقول: فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك الله يا محمد لطاعته، وهي الدين ﴿حَنِيفاً﴾ يقول: مستقيماً لدينه وطاعته ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ﴾، يقول: صنعة الله التي خلق الناس عليها، ونصب فطرة على المصدر من معنى قوله: ﴿فَأَفَقَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾؛ لأن المعنى: فطر الله الناس على ذلك فطرة.

وقوله: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ يقول: لا تغيير لدين الله، أي: لا يصلح ذلك، ولا ينبغي أن يفعل، قال ابن نجيج: عن مجاهد ﴿لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لدين الله، ثم ذكر أن مجاهداً أرسل إلى عكرمة يسأله عن قوله: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، قال: هو الخصا، فقال مجاهد: أخطأ، لا تبديل لخلق الله، إنما هو الدين ثم قال: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُ﴾، وروي عن عكرمة: لا تبديل لخلق الله قال: لدين الله، وهو قول سعيد بن جبير، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وابن زيد.

وعن ابن عباس وعكرمة ومجاهد: هو الخصا<sup>(٢)</sup> ولا منافاة بين القولين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا أَمْرُهُمْ فَبْتَكُنْ ءَإِذَا كُنتَ أَتَقَرُّمُ وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلْيُعَذِّبْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]. فتغيير ما فطر الله عباده من الدين تغيير لخلقه، والخصا وقطع آذان

(١) مفتاح دار السعادة (٤٢١ - ٤٢٣).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (٤٠/٢١ - ٤٢)، وقد حاولت ضبط المنقول منه بقدر استطاعتي.

الأنعام تغيير لخلقه أيضاً، ولهذا شبه النبي ﷺ أحدهما بالآخر، فأولئك يغيرون الشريعة وهؤلاء يغيرون الخلق، فذلك يغير ما خلقت عليه نفسه وروحه، وهذا يغير ما خلق عليه بدنه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

نزل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث من تلك الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة بعضها آخذ برقاب بعض.

وكلما أحدث الناس ظلماً وفجوراً؛ أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم وأهويتهم ومياهم وأبدانهم وخلقهم وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم.

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم، وقد روى الإمام أحمد بإسناده: أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها: هذا كان ينبت أيام العدل. وهذه القصة ذكرها في «مسند» على أثر حديث رواه.

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم، حكماً قسطاً وقضاء عدلاً.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون: «إنه بقية رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل»، وكذلك سلط الله ﷻ الريح على قوم<sup>(٢)</sup> سبع ليال وثمانية أيام، ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام، وفي نظيرها عظة وعبرة.

وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لا بد منه، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سبباً لمنع الغيث من

(١) شفاء العليل (٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا عَادَ فَأَتَوْا عَلَى يُرْيَجٍ صَرَمَرٍ عَلِيٍّ ۖ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

السماء والقحط والجذب، وجعل ظلم المساكين والبخس في المكايل والموازن وتعدي القوي على الضعيف سبباً لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا، ولا يعطفون إن استعطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم، فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها؛ فتارة بقحط وجذب، وتارة بعدو، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزاً؛ لتحقق عليهم الكلمة وليصير كل منهم إلى ما خلق له.

والعاقِل يُسَيِّرُ بصيرته بين أقطار العالم؛ فيشاهده، وينظر مواقع عدل الله وحكمته، وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البوار صائرون، والله بالغ أمره لا معقب لحكمه ولا راد لأمره، وبالله التوفيق<sup>(١)</sup>.

□ □ □

قال مجاهد: إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد؛ فيحبس الله بذلك القطر؛ فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، ثم قرأ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، ثم قال: أما والله ما هو بحركم هذا؛ ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر.

وقال عكرمة: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، أما إني لا أقول لكم: بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء. وقال قتادة: أما البر فأهل العمود، وأما البحر فأهل القرى والريف.

وقال ابن زيد: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، قال: الذنوب. قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها، فيكون اللام في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ لام العاقبة والتعليل وعلى الأول، فالمراد بالفساد: النقص والشر، والآلام التي يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة. كما قال بعض السلف: كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة. والظاهر - والله أعلم - أن الفساد المراد به:

(١) زاد المعاد (٤/٣٦٣، ٣٦٤).

الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، فهذا حالنا وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].  
فهذا حق أحقه على نفسه فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ الحق ولفظ على<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

(٢) بدائع الفوائد (٢/١٦٢).

(١) الجواب الكافي (٨٩، ٩٠).

## سُورَةُ لُقْمَانَ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرْفًا فَلْيَسِّرْهُ يَعْذَابِ الْأَعْمَى﴾ [لقمان: ٦، ٧].

قال الواحدي وغيره: أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث: الغناء، قاله ابن عباس في رواية سعيد بن جبير، ومقسم عنه، وقاله عبد الله بن مسعود في رواية أبي الصهباء عنه، وهو قول مجاهد وعكرمة.

وروى ثور بن أبي فاخثة عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾، قال: هو الرجل يشتري الجارية تغنيه ليلاً ونهاراً.

وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد: «هو اشتراء المغني والمغنية بالمال الكثير، والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل، وهذا قول مكحول، وهذا اختيار أبي إسحاق أيضاً.

وقال: أكثر ما جاء في التفسير: أن لهو الحديث ههنا هو الغناء؛ لأنه يلهي عن ذكر الله تعالى. قال الواحدي: قال أهل المعاني: ويدخل في كل من اختار اللهو والغناء والمزامير والمعازف على القرآن، وإن كان اللفظ قد ورد بالشراء فلفظ الشراء يذكر في الاستبدال والاختيار وهو كثير في القرآن. قال: ويدل على هذا ما قاله قتادة في هذه الآية: لعله أن لا يكون أنفق مالاً، قال: وبحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق.

قال الواحدي: وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء. ثم ذكر كلام الشافعي في رد الشهادة بإعلان الغناء.

قال: وأما غناء القينات: فذلك أشد ما في الباب، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه، وهو ما روي: أن النبي ﷺ قال: «ومن استمع إلى قنية صب في أذنيه الآنك

يوم القيامة»<sup>(١)</sup>. الآنك: الرصاص المذاب.

وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

ففي مسند الإمام أحمد ومسند عبد الله بن الزبير الحميدي وجامع الترمذي من حديث أبي أمامة والسياق للترمذي: أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمرتهم حرام»، في مثل هذا نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد بن زحر عن علي بن يزيد الألهاني عن القاسم، فعبيد الله بن زحر ثقة، والقاسم ثقة وعلي ضعيف، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات سنذكرها إن شاء الله تعالى، ويكفي تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بأنه: الغناء، فقد صح ذلك عن ابن عباس وابن مسعود، قال أبو الصهباء: سألت ابن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾؟ فقال: والله الذي لا إله غيره، هو الغناء - يرددها ثلاث مرات.

وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما أيضاً أنه: الغناء. قال الحاكم أبو عبد الله في التفسير من كتاب المستدرك: ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند<sup>(٢)</sup>.

وقال في موضع آخر من كتابه: هو عندنا في حكم المرفوع. وهذا وإن كان فيه نظر فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم، فهم أعلم الأمة بمراد الله ﷻ من كتابه. فعليهم نزل وهم أول من خطب به من الأمة. وقد شاهدوا تفسيره من الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم علماً وعملاً، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل.

ولا تعارض بين تفسير ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ بالغناء، وتفسيره: بأخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث<sup>(٣)</sup> يحدث به أهل مكة يشغلهم به عن القرآن. فكلاهما لهو الحديث، ولهذا قال ابن عباس: لهو الحديث: الباطل والغناء.

فمن الصحابة من ذكر هذا، ومنهم من ذكر الآخر ومنهم من جمعهما.

(١) قال الألباني: «موضوع» رواه ابن عساكر. ضعيف الجامع رقم (٥٤١٨).

(٢) المستدرك للحاكم (٢/٢٥٨) في التفسير، سورة الفاتحة.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/٣١٩، ٣٢٠).

والغناء أشد لهواً وأعظم ضرراً من أحاديث الملوك وأخبارهم؛ فإنه رقية الزنا ومنبت النفاق، وشرك الشيطان، وخمرة العقل، وصدّه عن القرآن أعظم من صد غيره من الكلام الباطل؛ لشدة ميل النفوس إليه، ورغبتها فيه.

إذا عرف هذا. فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن، وإن لم ينالوا جميعه. فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً، وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبراً كأن لم يسمعه كأن في أذنيه قرأ، وهو: الثقل والصمم. وإذا علم منه شيئاً استهزأ به، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفراً وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعهم فلهم حصّة ونصيب من هذا الذم.

يوضحه: أنك لا تجد أحداً غنى بالغناء وسماع آلاته إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى، علماً وعملاً، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلى ذاك، وثقل عليه سماع القرآن، وربما حمله الحال على أن يسكت القارئ، ويستطيل قراءته، ويستزيد المغني ويستقصر نوبته، وأقل ما في هذا: أن يناله نصيب وافر من هذا الذم إن لم يحظ به جميعه.

والكلام في هذا مع من في قلبه بعض حياة يحس بها؛ فأما من مات قلبه وعظمت فتنته، فقد سد على نفسه طريق النصيحة: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِهِمْ فَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨].

هذا أيضاً اسم جامع لجميع الجنات؛ لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول والمشروب والملبوس والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج والمساكن الواسعة، وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٣٨ - ٢٤١). (٢) حادي الأرواح (٨٩).

قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].  
 فله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك، فإنهم إن زعموا أن  
 آلهتهم خلقت شيئاً مع الله طولبوا بأن يروه إياه، وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف  
 وأقل من ذلك؛ كانت إلهيتها باطلاً ومحالاً<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥].  
 وكل من الصحابة منيب إلى الله؛ فيجب اتباع سبيله وأقواله، واعتقاداته من أكبر  
 سبيله، والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى أن الله تعالى قد هداهم، وقد قال:  
 ﴿وَهَدَىٰ إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْ أَقْرَ الصُّلُوَّةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا  
 أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

فالصبر متعلق بالمأمور والمحذور والمقدور بالخلق والأمر. والشيخ<sup>(٣)</sup> دائماً  
 يحوم حول هذه الأصول الثلاثة، كقوله: يا بني افعل المأمور واجتنب المحذور  
 واصبر على المقدور، وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله: ﴿يَبْنِيْ  
 أَقْرَ الصُّلُوَّةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ﴾.  
 فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه، وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر. أما  
 من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن  
 الأمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْصُصْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ  
 الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

(١) الصواعق المرسله (٢/٤٦٥). (٢) إعلام الموقعين (٤/١٦٣).

(٣) يعني: الشيخ الجليل قدوة العارفين شيخ الإسلام وسلطان المشايخ، وسيد الطريقة في  
 وقته، محيي الدين أبو محمد عبد القادر الجيلاني، صاحب المقامات والكرامات والعلوم  
 والمعارف، الحنبلي رحمه الله تعالى. وكلامه هذا في كتابه «فتوح المعارف». انظر: سير  
 أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/٤٣٩)، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١/٢٩٠).

(٤) عدة الصابرين (٢٩).

فأمر لقمان ابنه أن يَغْضُ من صوته وأن يقصد في مشيه، كما أمر المؤمنين أن يَغْضُوا من أبصارهم، وأصحاب السماع لا هذا ولا هذا ولا هذا؛ بل إطلاق البصر ورفع الأصوات والرقص<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعنى هذا: أنه لو فرض البحر مداداً، وبعده سبعة أبحر تمده كلها مداداً، وجميع أشجار الأرض أقلاماً. وهو ما قام منها على ساق من النبات والأشجار المثمرة وغير المثمرة وتستمد بذلك المداد؛ لفنيت البحار والأقلام، وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد، فسبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته.

فأين هذا مِنْ وَصْفٍ مَنْ يَصِفُهُ بأنه ما تكلم ولا يتكلم، ولا يقوم به كلام أصلاً؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنى واحد لا ينقضي، ولا يتجزأ، ولا له بعض ولا كل، ولا هو سور وآيات، ولا حروف وكلمات؟<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(٢) المنار المنيف (٣٧، ٣٨).

(١) الكلام في مسألة السماع (٣٥٤).

## سُورَةُ السَّجْدَةِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢].

فجعل سبحانه من أعظم أدلة صدقه نفي الريب عنه في مثل هذه المطالب التي هي أصل مطالب بني آدم وأجل معارفهم وعلومهم على الإطلاق، فلو كان فيه ما يخالف صريح العقل؛ لكان فيه أعظم الريب ولا اطمانت به القلوب ولا ثلجت به الصدور<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿يَذَرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ عِلْمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٤ - ٦].

وتأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين. فقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين: بقدم العالم، وأنه لم يزل، وأن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازماً لذاته أزلاً وأبداً غير مخلوق، كما هو قول ابن سينا والنصير الطوسي وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام، والكتب، وشهدت به العقول والفطر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون: ليس على العرش شيء سوى العدم، وأن الله ليس مستوياً على عرشه، ولا

(١) الصواعق المرسله (١١٧).

ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب ولا رفع المسيح عليه الصلاة والسلام إليه، ولا عرج برسوله محمد ﷺ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبريل عليه الصلاة والسلام ولا غيره، ولا ينزل هو كل ليلة إلى السماء الدنيا، ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم من فوقهم، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عياناً بأبصارهم من فوقهم، ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق كما أشار إليه النبي ﷺ في أعظم مجامعه في حجة الوداع وجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكبها إلى الناس ويقول: «اللهم اشهد»<sup>(١)</sup>.

قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر في: أن الله ﷻ فوق كل شيء وأنه فوق العرش فوق السماوات مستو على عرشه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿نَجَافٍ جَنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم، حين يقومون إلى صلاة الليل بقرّة الأعين في الجنة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾».

وفي لفظ آخر فيهما: «يقول الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخراً بله ما أطلعتكم عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ الآية<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه البخاري (٦٧٠/٣) في الحج، باب: الخطبة أيام منى. ومسلم (٢٤٩/٤) في

القسامة، باب: تغليظ تحريم الدماء...

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٨).

(٣) رواه البخاري (٤٧٨٠)، ومسلم (٢٨٢٤).

وفي بعض طرق البخاري: قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي قال: شهدت مع النبي ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب، ثم قرأ هذه الآية: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ (٢) مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣)».

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم: عبد الله بن عباس، على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن؛ لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر؛ فإنه سبحانه أخبر: أن له فيه عذابين أدنى وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا؛ فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا، ولهذا قال: ﴿مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾، ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى، فتأمل (٣).

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات (٤).

\* \* \*

(٢) حادي الأرواح (٢٢٣).

(٤) زاد المعاد (١٠/٣).

(١) رواه مسلم (٢٨٢٥).

(٣) الروح (٧٥، ٧٦).

## سُورَةُ الْأَحْزَابِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ (الأحزاب: ١ - ٣)﴾.

أمره بتقواه المتضمنة لإفراده بامثال أمره ونهيه، محبة له وخشية ورجاء فإن التقوى لا تتم إلا بذلك، واتباع ما أوحى إليه المتضمن لتركه ما سوى ذلك واتباع المنزل خاصة، وبالتوكل عليه. وهو يتضمن اعتماد القلب عليه وحده وثقته به وسكونه إليه دون غيره، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]. فأنت تجد تحت هذه اللفظ: أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة، إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما، والآخر لغيره، بل ليس له إلا قلب واحد. فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه؛ وإلا انصرف ذلك إلى غيره. ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه، واستطرد منه إلى أنه لم يجعل دعيه ابنه فانظر ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب.

وقد اختلف الناس في هذه المسألة، فقالت طائفة: ليس للقلب إلا وجهة واحدة إذا توجه إليها لم يمكنه التوجه إلى غيرها، قالوا: وكما أنه لا يجتمع فيه إرادتان معاً فلا يكون فيه حبان. وكان الشيخ إبراهيم الرقي رحمته الله يميل إلى هذا.

وقال طائفة: بل يمكن أن يكون له وجهتان فأكثر باعتبارين، فيتوجه إلى أحدهما ولا يشغله عن توجهه إلى الآخر، قالوا: والقلب حمال، فما حملته تحمل، فإذا حملته الأثقال حملها، وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه، فالقلب الواسع يجتمع فيه التوجه إلى الله سبحانه وإلى أمره وإلى مصالح عباده، ولا يشغله واحد من ذلك عن الآخر.

فقد كان رسول الله ﷺ قلبه متوجه في الصلاة إلى ربه وإلى مراعاة أحوال من يصلي خلفه، «وكان يسمع بكاء الصبي فيخفف الصلاة خشية أن يشق على أمه»<sup>(١)</sup>. أفلا ترى قلبه الواسع الكريم كيف اتسع للأميرين؟ ولا يظن أن هذا من خصائص النبوة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهز جيشه وهو في الصلاة، فيتسع قلبه للصلاة والجهاد في آن واحد، وهذا بحسب سعة القلب وضيقه وقوته وضعفه. قالوا: وكمال العبودية أن يتسع قلب العبد لشهود معبوده ومراعاة آداب عبوديته، فلا يشغله أحد الأمرين عن الآخر.

قالوا: وهذا موجود في الشاهد، فإن الرجل إذا عمل عملاً للسلطان مثلاً بين يديه وهو ناظر إليه يشاهده؛ فإن قلبه يتسع لمراعاة عمله وإتقانه، وشهود إقبال السلطان عليه ورؤيته له، بل هذا شأن كل محب يعمل لمحبوبه عملاً بين يديه أو في غيبته.

قالوا: وهذا رسول الله ﷺ: «بكى يوم موت ابنه إبراهيم»<sup>(٢)</sup>، فكان بكاءه رحمة له، فاتسع قلبه لرحمة الولد وللرضا بقضاء الله، ولم يشغله أحدهما عن الآخر، ولكن الفضيل لم يتسع قلبه يوم موت ابنه لذلك فجعل يضحك، فقليل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال: إن الله ﷻ قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه. ومعلوم أن بين هذه الحال وحال رسول الله ﷺ حينئذ تفاوتاً لا يعلمه إلا الله، ولكن لم يتسع قلبه لما اتسع له قلب رسول الله ﷺ.

ونظير هذا اتساع قلب رسول الله ﷺ لغناء الجويريتين اللتين كانتا تغنيان عند عائشة رضي الله عنها<sup>(٣)</sup>؛ فلم يشغله ذلك عن ربه، ورأى فيه من مصلحة إرضاء النفوس الضعيفة بما يستخرج منها من محبة الله ورسوله ودينه، فإن النفوس متى نالت شيئاً من حظها طوعت ببذل ما عليها من الحق، ولم يتسع قلب عمر لذلك لما دخل فأنكره، وكم بين من ترد عليه الواردات، فكل منها يثير همته ويحرك قلبه إلى الله، كما قال القائل:

يذكرنيك الخير والشر والذي أخاف وأرجو والذي أتوقع  
ومن يرد عليه من الواردات فيشغله عن الله، ويقطعه عن سير قلبه إليه. فالقلب

(١) رواه البخاري (٧٠٨)، ومسلم (٤٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

(٣) رواه البخاري (٩٥٢)، ومسلم (٨٩٢).

الواسع يسير بالخلق إلى الله ما أمكنه، فلا يهرب منهم ولا يلحق بالقفار والجبال والخلوات، بل لو نزل به من نزل سار به إلى الله، فإن لم يسر معه سار هو وتركه، ولا ينكر هذا، فالمحبة الصحيحة تقتضيه، وخذ هذا في المغني إذا طرب، فلو نزل به من نزل أطربهم كلهم، فإن لم يطربوا معه لم يدع طربه لغلظ أكبادهم وكثافة طبعهم. وكان شيخنا يميل إلى هذا القول وهو كما ترى له قوته وحجته.

والتحقيق: أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً، ومستحيل أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما، كما يستحيل أن يكون في الخارج ذاتان قائمتان بأنفسهما كل ذات منهما مستغنية عن الأخرى من جميع الوجوه، وكما يستحيل أن يكون للعالم ربان متكافئان مستقلان، فليس الذي يحب لذاته إلا الإله الحق الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير بذاته إليه وأما ما يحب لأجله سبحانه فيتعدد. ولا تكون محبة العبد له شاغلة له عن محبة ربه ولا يشركه معه في الحب. فقد كان رسول الله ﷺ يحب زوجاته وأحبهن إليه عائشة رضي الله عنها، وكان يحب أباهما ويحب عمر رضي الله عنه. وكان يحب أصحابه وهم مراتب في حبه لهم، ومع هذا فحبه كله لله، وقوى حبه جميعها منصرفة إليه سبحانه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أموراً:

منها: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها، وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم، وسائر لوازم المحبة، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإثاره على ما سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها.

(١) روضة المحبين (٢٧٢ - ٢٧٥).

فيا عجباً كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب التحكيم، ورضي بحكم غيره واطمأن إليه أعظم من اطمئنانه إلى الرسول ﷺ، وزعم أن الهدى لا يتلقى من مشكاته، وإنما يتلقى من دلالة العقول، وأن الذي جاء به لا يفيد اليقين، إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه وعما جاء به، والحوالة في العلم النافع إلى غيره، ذلك هو الضلال البعيد.

ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شيء وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به، فإن شهد بالصحة قبله، وإن شهد له بالبطلان رده. وإن لم تتبين شهادته له بصحة ولا ببطلان، جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به؟.

فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة واستقام له علمه وعمله، وأقبلت وجوه الخلق إليه من كل جهة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْنَاهُ عَنِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨].

فإذا سئل الصادقون وحُوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟ قال مقاتل: يقول تعالى: أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الله الصادقين - يعني: النبيين - عن تبليغ الرسالة. وقال مجاهد: يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل يعني: هل بلغوا عنهم، كما يسأل الرسل هل بلغوا عن الله تعالى.

والتحقيق: أن الآية تتناول هذا وهذا، فالصادقون هم الرسل والمبلغون عنهم، فيسأل الرسل عن التبليغ ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغهم الرسل، ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

قال قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرين: ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتهم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود، وعن العبادة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠].

الزيف: يوصف به القلب والبصر.

(١) الرسالة التبوكية (٣٨، ٣٩).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٨٣، ٨٤).

قال قتادة ومقاتل: شخصتُ فرقاً، وهذا تقريب للمعنى، فإن الشخصوص غير الزيف، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرف، ومنه شخص بصير الميت. ولما مالت الأبصار عن كل شيء، فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب، اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر، فمالت عنه وشخصت بالنظر إلى الأحزاب. وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم. وقال الفراء: زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها متحيرة تنظر إليه. قلت: القلب إذا امتلأ رعباً، شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمٍ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله إن أراد به سوءاً غير الموت الذي فر منه؛ فإنه فر من الموت لما كان يسوءه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءاً غيره لم يعلمه أحد من الله، وأنه قد يفر مما يسوءه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه، وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن؛ فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته، سلبه الله إياه أو قبض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به ونقله إلى غيره فيكون له مهنته وعلى مخلفه وزره.

وكذلك من رفقه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله؛ أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.

قال أبو حازم: لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى. واعتبر ذلك بحال إبليس فإنه امتنع من السجود لآدم فراراً أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه فصيروه الله أذل الأذلين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له ورضي أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته، وكذلك عباد الأصنام أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، وأن يعبدوا إلهاً واحداً سبحانه ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار.

(١) شفاء العليل (١٠٠).

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله أو يبذل ماله في مرضاته أو يتعب نفسه وبدنه في طاعته، لا بد أن يذل لمن لا يسوى ويبذل له ماله ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته؛ عقوبة له كما قال بعض السلف: من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته، أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكَ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝ (الأحزاب: ٣٠ - ٣١)﴾.

وهذا على وفق قضايا العقول ومستحسناتها، فإن العبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، وشكره له أتم، ومعصيته له أقبح.

وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية، ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لم ينفعه الله بعلمه، فإن نعمة الله عليه بالعلم أعظم من نعمته على الجاهل، وصدور المعصية منه أقبح من صدورها من الجاهل<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ يُطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ (الأحزاب: ٣٢)﴾.

فنهاهن عن الخضوع بالقول، فربما ذهب الوهم إلى الإذن في الإغلاظ في القول والتجاوز، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ (٣)﴾.

وأمرهن أن لا يلن في كلامهن كما تلين المرأة المعطية اللبان في منطقتها، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يغشن في القول بحيث يلتحق بالفحش؛ بل يقلن قولاً معروفاً<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۝ (الأحزاب: ٣٦)﴾.

فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخير بعد

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٠٩).

(٣) إعلام الموقعين (٤/ ٢٠٤).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١٤).

ذلك؛ فقد ضل ضلالاً بعيداً<sup>(١)</sup>.

□ □ □

فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً، فدل على أن ذلك مناف للإيمان.

وقد حكى الشافعي رحمته الله إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم، على أن «من استبان له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد»، ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي رضي الله تعالى عنه.

فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع فضلاً عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها، عياداً بالله من الخذلان<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

زعم بعض من لم يقدر رسول الله ﷺ حق قدره، أنه ابتلي به في شأن زينب بنت جحش وأنه رآها فقال: «سبحان مقلب القلوب»<sup>(٣)</sup>، وأخذت بقلبه وجعل يقول لزيد بن حارثة: أمسكها.

فظن هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق، وصنف بعضهم كتاباً في العشق، وذكر فيه عشق الأنبياء وذكر هذه الواقعة. وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن

(١) إعلام الموقعين (١/٨٦).

(٢) الرسالة التبوكية (٤٤، ٤٥).

(٣) هذا من أبطل الباطل الذي جنته أيدي الضعفاء والمجروحين، فهذا مما رواه الواقدي، محمد بن عمر، وهو وإن كان من أوعية العلم لكنه مع هذا قد انعقد الإجماع على عدم الاحتجاج به، كما في سير أعلام النبلاء (٩/٤٦٩). وروى عنه ذلك ابن سعد في الطبقات (١٠١/٨، ١٠٢). والحاكم في المستدرک (٤/٢٥) وغيرهما. والأنبياء عليهم من الله تعالى أزكى صلاة وأطيب سلام معصومون من الذنوب، فينبغي عدم الكلام عليهم إلا بما ورد عنهم عن الله تعالى أو صح من حديث دون زيادة أو نقصان، وهذا مما لا ينبغي الخوض فيه لمنزلة هؤلاء الكرام سادة العالمين. انظر: ما قاله ابن العربي رحمه الله في أحكامه (٣/١٥٤٢). وانظر: فتح الباري (٨/٣٨٣، ٣٨٤).

وبالرسل، وتحميلة كلام الله ما لا يحتمله ونسبته رسول الله ﷺ إلى ما برأه الله منه. فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> قد تبناه، وكان يدعى زيد بن محمد، وكانت زينب فيها شمم وترفع عليه، فشاور رسول الله ﷺ في طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان يخشى من حالة الناس: إنه تزوج امرأة ابنه لأن زيداً كان يدعى ابنه، فهذا هو الذي أخفاه في نفسه، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له.

ولهذا ذكر سبحانه هذه الآية يعدد فيها نعمه عليه لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له، وأن الله أحق أن يخشاه فلا يتحرج مما أحله له لأجل قول الناس، ثم أخبره أنه سبحانه زوج إياها بعد قضاء زيد وطره منها؛ لتقتدي أمته به في ذلك ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبنّي لا امرأة ابنه لصلبه، ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. وقال في هذه السورة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال في أولها: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

فتأمل هذا الذب عن رسول الله ﷺ ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق. نعم كان رسول الله ﷺ يحب نساءه، وكان أحبهن إليه عائشة رضي الله عنها ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد سوى ربه نهاية الحب؛ بل صح أنه قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»<sup>(٢)</sup>، وفي لفظ: «وإن صاحبكم خليل الرحمن»<sup>(٣)(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

والأصيل: قال الجوهري: هو الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أصل وأصال وأصائل<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر: البخاري (٣٨٣/٨) في التفسير، باب: ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ...﴾ الآية.

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢). (٣) زاد المعاد (٤/٢٦٦، ٢٦٧).

(٤) رواه مسلم، (٢٣٨٣). (٥) الوابل الصيب (١٢٧).

إن الذكر يوجب صلاة الله ﷻ وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز، قال ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهُ ذِكْرًا كَبِيرًا ۝ وَسَخَّرَهُ بَكْرًا وَأَصِيلًا ۝ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٣]. فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته إنما هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، فأى خير لم يحصل لهم، وأى شر لم يندفع عنهم؟ فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله! وبالله التوفيق<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

صلاة الله سبحانه على عباده نوعان: عامة، وخاصة.

أما العامة: فهي صلاته على عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾. ومنه دعاء النبي ﷺ بالصلاة على آحاد المؤمنين كقوله<sup>(٢)</sup>: «اللهم صل على آل أبي أوفى». وفي حديث آخر<sup>(٣)</sup>: «أن امرأة قالت له: صلّ علي وعلى زوجي، قال: صلى الله عليك وعلى زوجك».

النوع الثاني صلاته الخاصة: على أنبيائه ورسله، خصوصاً على خاتمهم وخيرهم محمد ﷺ. فاختلف الناس في معنى الصلاة منه سبحانه على أقوال: أحدها: إنها رحمة.

(١) الوابل الصيب (١٠٠).

(٢) رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

(٣) حديث صحيح: رواه الإمام أحمد ﷺ (٣/٣٩٨)، و(٣/٣٠٣)، وأبو داود (٤/٣٩٣) في الصلاة، الصلاة على غير النبي ﷺ، والدارمي (١/٢٨) في المقدمة، باب: ما أكرم به النبي ﷺ في بركة طعامه، وابن حبان برقم (١٩٥٠) الموارد، وأبو يعلى (٤/٥٩)، وابن حبان (٥/٤٨٤) كلهم من طريق: «نبيح العنزي» وهو ثقة، وثقه الترمذي (٤/١٨٧) حديث رقم (١٧١٧)، والعجلي برقم (١٦٨٢)، ص(٤٤٨)، وابن حبان في الثقات (٥/٤٨٤)، ونقل ابن حجر تصحيح حديثه عن الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم. تهذيب التهذيب (١٠/٤١٧).

قال إسماعيل<sup>(١)</sup>: حدثنا نصر بن علي قال: حدثنا محمد بن سواء عن جوير عن الضحاك قال: «صلاة الله رحمته وصلاة الملائكة الدعاء».

وقال المبرد: أصل الصلاة الرحمة، فهي من الله رحمة، ومن الملائكة رحمة<sup>(٢)</sup>، واستدعاء الرحمة من الله.

وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين.

والقول الثاني: إن صلاة الله مغفرته.

قال إسماعيل<sup>(٣)</sup>: حدثنا محمد بن أبي بكر: حدثنا محمد بن سواء عن جوير عن الضحاك: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ»، قال: «صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء».

وهذا القول هو من جنس الذي قبله. وهما ضعيفان لوجوه:

أحدها: أن الله سبحانه فرق بين صلاته على عباده ورحمته. فقال: ﴿وَكَبِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]. فعطف الرحمة على الصلاة فاقترض ذلك تغايرهما. هذا أصل العطف.

وأما قولهم:

وَأَلْفَى قَوْلُهَا كَذِباً وَمَيْناً

فهو شاذ نادر، لا يحمل عليه أفصح الكلام، مع أن المين أخص من الكذب.

الوجه الثاني: أن صلاة الله سبحانه خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وأما رحمته فوسعت كل شيء، فليست الصلاة مرادفة للرحمة، لكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمرتها.

فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمراتها ومقصودها. وهذا كثيراً ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن.

والرسول ﷺ يفسر اللفظة بلوازمها وجزء معناها، كتفسير الريب بالشك، والشك

(١) رواه القاضي إسماعيل «في فضل الصلاة على النبي ﷺ»، ص (٨٠) برقم (٩٦)، وقال محققه الشيخ الألباني: «إسناده موقوف ضعيف جداً، جوير هو ابن سعيد الأزدي»، قال الحافظ في التريب: «ضعيف جداً» (١/١٣٦).

(٢) هكذا في الطبعة المنيرية، والمحمدية، وفي طبعة «دار التراث: رقة»، ص (١٢٢).

(٣) إسناده ضعيف مثل رقم (٢) السابق.

جزء مُسَمَّى الريب، وتفسير المغفرة بالستر، وهو جزء مُسَمَّى المغفرة. وتفسير الرحمة بإرادة الإحسان، وهو لازم الرحمة. ونظائر ذلك كثيرة قد ذكرناها في أصول التفسير.

الوجه الثالث: أنه لا خلاف في جواز الرحمة على المؤمنين، واختلف السلف والخلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء على ثلاثة أقوال، سنذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى. فعلم أنهما ليسا بمترادفين.

الوجه الرابع: أنه لو كانت الصلاة بمعنى: الرحمة، لقامت مقامها في امتثال الأمر، وأسقطت الوجوب عند من أوجبها، إذا قال: اللهم ارحم محمداً، وآل محمد. وليس الأمر كذلك.

الوجه الخامس: أنه لا يقال لمن رحم غيره، ورقّ عليه فأطعمه أو سقاه أو كساه: صلى عليه. ويقال: إنه قد رحمه.

الوجه السادس: أن الإنسان قد يرحم من يبغضه ويعاديه، فيجد في قلبه له رحمة، ولا يصلي عليه.

الوجه السابع: أن الصلاة لا بد فيها من كلام. فهي ثناء من المصلي على من يصلي عليه، وتنويه به وإشادة لمحاسنه وما فيه، وذكره. ذكر البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال<sup>(١)</sup>: «صلاة الله على رسوله ثنؤه عليه عند الملائكة».

وقال إسماعيل في كتابه<sup>(٢)</sup>: حدثنا نصر بن علي، قال: حدثنا خالد بن يزيد، عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: «﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال: صلاة الله ﷻ ثنؤه عليه، وصلاة الملائكة عليه الدعاء».

الوجه الثامن: أن الله سبحانه فرّق بين صلاته وصلاة ملائكته وجمعها في فعل واحد. فقال: «﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾». وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة، وإنما هي ثنؤه سبحانه، وثناء ملائكته عليه.

(١) ذكره البخاري معلقاً عنه (٣٩٢/٨)، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن أبي حاتم...، وانظر: الدر المنثور (٦/٦٤٦)، وقال: أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ، وقال المحقق فضيلة الشيخ الألباني: «إسناده موقوف حسن، رجاله ثقات غير أبي جعفر وهو الرازي اختلف في اسمه، وفيه ضعف لسوء حفظه، فمثله إنما يتقى من حديثه ما كان مرفوعاً، وأما كان منه موقوفاً كهذا فلا بأس به إن شاء الله تعالى...»، ص (٨٠). رقم (٩٥)، وراجع: رقم (١) السابق.

ولا يقال: الصلاة لفظ مشترك، ويجوز أن يستعمل في معنييه معاً، لأن في ذلك محاذير متعددة.

أحدها: أن الاشتراك خلاف الأصل، بل لا يعلم أنه وقع في اللغة من واضح واحد، كما نص على ذلك أئمة اللغة: منهم المبرد وغيره. وإنما يقع وقوعاً عارضاً اتفاقاً، بسبب تعدد الواضعين ثم تختلط اللغة فيعرض الاشتراك.

الثاني: أن الأكثرين لا يجوزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه، لا بطريق الحقيقة، ولا بطريق المجاز، وما حكى عن الشافعي رحمته الله من تجويزه ذلك فليس بصحيح عنه. وإنما أخذ من قوله: إذا أوصى لمواليه، وله موال من فوق ومن أسفل تناول جميعهم. فظن من ظن أن لفظ المولى مشترك بينهما، وأنه عند التجرد يحمل عليهما. وهذا ليس بصحيح، فإن لفظ المولى من الألفاظ المتواطئة، فالشافعي وأحمد في ظاهر مذهبه يقولان بدخول نوعي الموالي في هذا اللفظ. وهو عنده عام متواطئ لا مشترك.

وأما ما حكى عن الشافعي رحمته الله أنه قال في مفاوضة جرت له في قوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة: ٦]. قد قيل له: وقد يراد بالملامسة المجامعة. قال: هي محمولة على الجس باليد حقيقة، وعلى الوقاع مجازاً. فهذا لا يصح عن الشافعي، ولا هو من جنس المؤلف من كلامه، وإنما هذا من كلام بعض الفقهاء المتأخرين. وقد ذكرنا على إبطال استعمال اللفظ المشترك في معنييه معاً في بضعة عشر دليلاً في مسألة «القرء» من كتاب «التعليق على الأحكام»<sup>(١)</sup>.

فإذا كان معنى الصلاة هو الثناء على الرسول والعناية به، وإظهار شرفه وفضله وحرمته، كما هو المعروف من هذه اللفظة، لم يكن الصلاة في الآية مشتركاً محمولاً على معنييه، بل يكون مستعملاً في معنى واحد. وهذا هو الأصل في الألفاظ<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) قال فضيلة الشيخ «بكر أبو زيد» حفظه الله تعالى: «لم أر من ذكره من مترجمين سوى ما جاء في مقدمة شرح النونية لابن عيسى...»، التقريب لفقه ابن قيم الجوزية (١/١٩٣).

(٢) جلاء الأفهام (٨١ - ٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُ مُّؤْمَنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

يحتمل أن تكون الهبة شرطاً، ويكون فعل الإرادة جواباً له، ويكون التقدير: إن وهبت نفسها للنبي، فإن أراد النبي أن يستنكحها فخالصة له، ويحتمل أن تكون الإرادة شرطاً والهبة جواباً له، والتقدير: إن أراد النبي أن يستنكحها فإن وهبت نفسها، فهي خالصة له يحتمل الأمرين. فهذا ما ظهر لي من التفصيل في هذه المسألة وتحقيقها، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]<sup>(٢)</sup>.

إن الله سبحانه أمر بالصلاة عليه عقب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه، والمعنى: أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله، فصلوا أنتم عليه، فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليماً، لما نالكم ببركة رسالته ويؤمن سفارته من خير شرف الدنيا والآخرة.

ومن المعلوم: أنه لو عبر عن هذا المعنى بـ«الرحمة» لم يحسن موقعه، ولم يحسن النظم، فينتقض اللفظ والمعنى، فإن التقدير يصير إلى: أن الله وملائكته ترحم ويستغفرون لنبيه، فادعوا أنتم له وسلموا.

وهذا ليس مراد الآية قطعاً، بل الصلاة المأمور بها فيها، هي الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناء عليه، وإظهار لفضله وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه، فهي تتضمن الخبر والطلب.

وسمي هذا السؤال والدعاء منا نحن صلاة عليه، لوجهين: أحدهما: أنه يتضمن ثناء المصلي عليه، والإشارة بذكر شرفه وفضله، والإرادة والمحبة كذلك من الله تعالى، فقد تضمنت الخبر والطلب.

والوجه الثاني: أن ذلك سمي منا صلاة، لسؤالنا من الله أن يصلي عليه، فصلاة الله عليه ثناؤه وإرادته لرفع ذكره وتقريبه، وصلاتنا نحن عليه سؤالنا الله تعالى أن يفعل ذلك به.

(١) بدائع الفوائد (١/٦٠).

(٢) سبق شرح معنى: «صلاة الله على النبي ﷺ» عند شرح الآية (٤٣) من هذه السورة.

وإذا ثبت هذا، فمن المعلوم أنه لو كانت الصلاة هي الرحمة، لم يصح أن يقال لطالبها من الله: مصلياً، وإنما يقال له: مسترحماً له<sup>(١)</sup>.

والفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه ﷺ كثيرة:

منها: امتثال أمر الله تعالى.

ومنها: موافقته سبحانه في الصلاة عليه ﷺ وإن اختلفت الصلاتان، فصلاتنا عليه دعاء وسؤال، وصلاة الله تعالى عليه ثناء وتشريف كما تقدم.

ومنها: حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة.

ومنها: أنه يرفع عشر درجات، ويكتب له عشر حسنات، ويمحى عنه عشر سيئات.

ومنها: أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامه.

ومنها: أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرن بها سؤال الوسيلة له، أو أفرد بها.

ومنها: أنها سبب لغفران الذنوب.

ومنها: أنها سبب لكفاية الله العبد ما أهمه.

ومنها: أنها سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة.

ومنها: أنها سبب لرد النبي ﷺ الصلاة والسلام على المصلي والمسلم عليه.

ومنها: أنها سبب لدوام محبته للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب، واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضاعف حبه له وتزايد شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه.

ومنها: أنها متضمنة لذكر الله وشكره، ومعرفة إنعامه على عبده بإرساله، فالمصلي عليه ﷺ قد تضمنت صلاته عليه: ذكر الله وذكر رسوله، وسؤاله: أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

(٢) جلاء الأفهام (٣٣٥ - ٣٤٣) باختصار.

(١) جلاء الأفهام (١٢٥ - ١٢٦).

وليس أذاه سبحانه من جنس الأذى الحاصل للمخلوقين، كما أن سخطه وغضبه وكراهته ليست من جنس ما للمخلوقين<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾<sup>(٦٦)</sup> وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبارهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم: ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية، وبالله التوفيق<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) الصواعق المرسلة (٤/١٤٥٠، ١٤٥١).

(٢) الرسالة التبوكية (٥٥، ٥٦).

## سُورَةُ سَبَأٍ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١، ٢].

وأما تقديم الرحيم على الغفور في موضع واحد وهو أول سبأ، ففيه معنى غير ما ذكره، يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

فإنه ابتدأ سبحانه السورة بحمده الذي هو أعم المعارف وأوسع العلوم، وهو متضمن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله مستلزم لها كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله وأوامره فهو المحمود على كل حال، وعلى كل ما خلقه وشرعه.

ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابت له في الآخرة غير منقطع أبداً، فإنه حمد يستحقه لذاته وكمال أوصافه وما يستحقه لذاته دائم بدوامه لا يزول أبداً.

وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه؛ فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه وكمال من حمده وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصاً، والحمد بلا ملك يستلزم عجزاً، والحمد مع الملك غاية الكمال.

ونظير هذا العزة والرحمة، والعفو والقدرة، والغنى والكرم.

فوسط الملك بين الجملتين فجعله محفوفاً بحمده قبله وحمده بعده، ثم عقب هذا الحمد والملك باسم الحكيم الخبير الدالين على كمال الإرادة، وأنها لا تعلق بمراد إلا لحكمة بالغة وعلى كمال العلم، وأنه كما يتعلق بظواهر المعلومات فهو متعلق

ببواطنها التي لا تدرك إلا بخبرة، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهر والحكمة باطنة، والعلم ظاهر والخبرة باطنة.

فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفاً عن الخبرة، فالخبرة باطن العلم وكماله، والحكمة باطن الإرادة وكمالها.

فتضمنت الآية إثبات حمده وملكه وحكمته وعلمه على أكمل الوجوه، ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر وما بطن في العالم العلوي والسفلي، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه وهما: الرحمة والمغفرة، فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم ويهب لهم ذنوبهم ولا يؤاخذهم بها بمغفرته. فقال: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾. فتضمنت هذه الآية سعة علمه ورحمته وحكمه ومغفرته، وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم.

فمن الأول قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

ومن الثاني: والله عليم حليم فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم، وحملة العرش أربعة؛ اثنان يقولان: سبحانهك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانهك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك. فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسان مع العلم.

وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير. ولما كان دفع الشر مقدماً على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع. ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبا: ٦].

وهذا دليل ظاهر أن الذي نراه معارضاً للعقل ويقدم العقل عليه ليس من الذين أوتوا العلم في قبيل ولا دبير ولا قليل ولا كثير<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢، ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه. فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك. فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شقيقاً عنده. فنفي سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً، منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه.

فنفي الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً، وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها؛ ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له. ويظنون في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن<sup>(٢)</sup>.

فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه؛ وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فهو الذي يأذن للشافع فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه، كما يكون في حق المخلوقين فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاوته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها.

(٢) مدارج السالكين (١/٣٤٣).

(١) الصواعق المرسلة (٣/٨٥٠).

وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣].

إن الله سبحانه إذا تكلم بالوحي صعقت الملائكة، وأخذهم شبه الغشي من تكلم الرب جل جلاله. فإذا كشف الفزع عن قلوبهم وخلي عنها، وأفاقوا من ذلك الغشي، قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ فيستخبر كل أهل سماء من يليهم. حتى ينتهي الأمر إلى أهل السماء السابعة، فيسألون جبريل: يا جبريل، ماذا قال ربنا؟ فيقول: قال الحق. وهو العلي الكبير<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبا: ٢٤]. هل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [يونس: ٣١]، وبين قوله في سورة سبا؟ قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقاً.

فإن الآيات التي في يونس سقت مستاق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم، ومالك أسماعهم وأبصارهم، ومدبر أمورهم وغيرها، ومخرج الحي من الميت والميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم. إن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه غيره، ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئاً من هذا ولا يستطيعون فعل شيء منه، ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، أي: لا بد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه، فلا بد أن يكون المذكور مما يقرون به، والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية، إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا فأفردت لفظ السماء هنا، فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها لا سيما والرزق هاهنا إن كان هو المطر،

(٢) مدارج السالكين (٣/٣١٤).

(١) الصواعق المرسله (٢/٤٦١).

فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمى سماء لعلوه. وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨]. والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس فلا يلتفت إلى غيره، فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا أفراد السماء؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح، ولا بد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية، هو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطف والموارد الربانية والتنزلات الإلهية، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق ولكن القوم لم يكونوا مقرين به، فخطوبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم بحيث لا يمكنهم إنكاره.

وأما الآية التي في سبأ فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السماوات، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها ولم يذكر عنهم أنهم المجبيون المقرون فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾، ولم يقل: سيقولون: الله. فأمر نبيه ﷺ أن يجيب بأن ذلك: هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السماوات السبع، وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين، إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

فمن آمن، ليس داخلاً في الأموال والأولاد، ولكنه من الكلام المحمول على المعنى، لأنه تعالى أخبر أن أموال العباد وأولادهم لا تقربهم إليه، وذلك يتضمن أن أربابها ليسوا هم من المقربين إليه، فاستثنى منهم من آمن وعمل صالحاً، أي: لا قريب عنده إلا من آمن وعمل صالحاً، سواء كان له مال وولد أو لم يكن له، والانقطاع فيه أظهر، فإنه تعالى نفى قرب الناس إليه بأموالهم وأولادهم، وأثبت قربهم عنده بإيمانهم وعملهم الصالح، فتقدير (لكن) ها هنا أظهر من تقدير الاتصال في هذا الاستثناء.

وإذا تأملت الكلام العربي رأيت كثيراً منه وارداً على المعنى لوضوحه، فلو ورد على قياس اللفظ مع وضوح المعنى لكان عياً.

وبهذه القاعدة تزول عنك إشكالات كثيرة، ولا تحتاج إلى تكلف التقديرات التي إنما عدل عنها المتكلم لما في ذكرها من التكلف، فقدّر المتكلمون لنطقه ما فر منه وألزموه بما رغب عنه، وهذا كثير في تقديرات النحاة التي لا تخطر ببال المتكلم أصلاً، ولا تقع في تراكيب الفصحاء ولو سمعوها لاستهجنوها<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَفٍ﴾ وَفَرَدَى ثُمَّ نَفَكُوا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿سبا: ٤٦﴾.

ولما كان للإنسان الذي يطلب معرفة الحق والصواب حالتان: إحداهما: أن يكون مناظراً مع الله. والثانية: أن يكون مناظراً لغيره.

أمرهم بخصلة واحدة وهي: أن يقوموا لله اثنين اثنين فيتناظران، ويتساءلان بينهما، وواحدًا واحدًا، يقوم كل واحد مع نفسه، فيتفكر في أمر هذا الداعي وما يدعو إليه، ويستدعي أدلة الصدق والكذب ويعرض ما جاء به عليها ليتبين له حقيقة الحال، فهذا هو الحجاج الجليل والإنصاف المبين والنصح التام<sup>(٢)</sup>.

فأشار بقيامهم اثنين اثنين إلى المناظرة، وفردى إلى النظر والتفكير، وكل منهما ينقسم إلى محمود ومذموم، فالنظر المحمود؛ النظر في الطريق الصحيح ليتوصل به إلى معرفة الحق، والنظر المذموم نوعان:

أحدهما: النظر في الطريق الباطل وإن قصد به التوصل إلى الحق، فإن الطريق الباطل لا يفضي إلى الحق.

والثاني: النظر والتفكير الذي يقصد به رد قول خصمه مطلقاً حقاً كان أو باطلاً، فهو ينظر نظراً يرد به قول من يبغضه ويعاديه بأي وجه كان.

فأما المناظرة فتقسم إلى: محمودة ومذمومة، والمحمودة نوعان، والمذمومة نوعان، وبيان ذلك: أن المناظر إما أن يكون عالماً بالحق، وإما أن يكون طالباً له، وإما أن لا يكون عالماً به ولا طالباً له، وهذا الثالث هو المذموم، وأما الأولان

(٢) الصواعق المرسلة (٢/٤٧٢).

(١) بدائع الفوائد (٣/٧١، ٧٢).

فمن كان عالماً بالحق فمناظرته التي تحمد أن يبين لغيره الحجة التي تهديه إن كان مسترشداً طالباً للحق، أو تقطعه أو تكسره إن كان معانداً غير طالب للحق، ولا متبع له أو توقفه وتبعثه على النظر في أدلة الحق إن كان يظن أنه على الحق وقصده الحق<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَحِمَةً إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

فهذا نص صريح في أن هدي الرسول ﷺ إنما يحصل بالوحي، فيا عجباً! كيف يحصل الهدى بغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة؟ ولكن من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً.

فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلان؟ وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى، والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) الصواعق المرسلّة (٤/ ١٢٧٥، ١٢٧٦). (٢) الرسالة التبوكية (٥٤).

## سُورَةُ فَاطِرٍ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١].

الجمال الظاهر زينة خص الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾. قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة.

والقلوب كالمطبوعة على محبته، كما هي مفطورة على استحسانه، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قالوا: يا رسول الله: الرجل يحب أن يكون نعله حسنة وثوبه حسناً، فذلك من الكبر؟ قال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطْرُ الحق وغمط الناس<sup>(١)</sup>؟ فبطر الحق جحده ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس: النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم، ولا بأس بهذا إذا كان لله، وعلامته أن يكون لنفسه أشد ازدراء واستصغاراً منه لهم. فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده، فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة<sup>(٢)</sup>».

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

والأمر باتخاذ عداً تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْغَيْرَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

أي: فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله.

(٢) روضة المحبين (٢٣٧).

(١) رواه مسلم (٩١).

(٣) زاد المعاد (٦/٣).

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك.  
وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين،  
إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.  
وقال عبد الله بن المبارك:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تَمِيتُ الْقُلُوبَ      وَقَدْ يورث الذل إيمانها  
وَتَرَكْتُ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ      وَخَيْرَ لِنَفْسِكَ عَصِيَانِهَا  
وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمَلُوكُ      وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرَهْبَانِهَا<sup>(١)</sup>  
فَمَنْ كَانَ يَطْلُبُ الْعِزَّةَ فَلْيَطْلُبْهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ بِالْكَلَمِ الطَّيِّبِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

[فاطر: ١٥].

بيّن سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم، لا ينفك عنهم، كما  
أن كونه غنياً حميداً ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه. وفقر من  
سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل  
هو ذاتي للفقير فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلّة أوجبت تلك الحاجة، كما أن  
غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً      كما الغنى أبداً وصف له ذاتي  
فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلّة، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب  
الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك إذ ما بالذات لا يعلل،  
فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته، فما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهي  
أدلة على الفقر لا أسباب له.

والمقصود: أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه،  
كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقة أنه غني حميد، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت  
لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى  
وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً، ويستحيل أن يكون الرب  
سبحانه إلا غنياً، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً<sup>(٢)</sup>.

(١) الجواب الكافي (الداء والدواء) (٨١). (٢) طريق الهجرتين (٨).

وهذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط، وهذا الغنى التام لله وحده لا يشركه فيه أحد<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢].

فجعل من اهتدى بهداه، واستنار بنوره بصيراً حياً في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك مستنيراً بنوره، والآخر أعمى ميتاً في حر الكفر والشرك والضلال منغمساً في الظلمات<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالماً إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم.

لكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم للخشية، حيث يظن أنه يحصل بدونها، وهذا ممتنع، فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها مواجه لها، وأنه لا يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق ونحو ذلك، فأمنه في هذه المواطن دليل عدم علمه. وأحسن أحواله أن يكون معه ظن لا يصل إلى رتبة العلم اليقيني.

فإن قيل: فهذا ينتقض عليكم بمعصية إبليس، فإنها كانت عن علم لا عن جهل وبقوله: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَمَهْدِيْنَهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال: ﴿وَأَيْنَا نُمُودُ النَّافَةِ مُبِيرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال عن قوم فرعون: ﴿وَجَعَلُوا بِهَا أَسْتَفْتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾ [النمل: ١٤]، وقال: ﴿وَعَادًا وَنُمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِهْمُ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيَّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾

[البقرة: ١٤٦]، يعني: القرآن أو محمداً ﷺ، وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ أَلْحَقُ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ أَلْحَقُ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]. وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَبَايِعَتِ اللَّهَ يُجَاهِدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، والجحود إنكار الحق بعد معرفته، وهذا كثير في القرآن.

قيل: حجج الله لا تتناقض بل كلها حق يصدق بعضها بعضاً، وإذا كان سبحانه قد أثبت الجهالة لمن عمل السوء، وقد أقرَّ به وبرسالته وبأنه حرم ذلك وتوعد عليه بالعقاب، ومع ذلك يحكم عليه بالجهالة التي لأجلها عمل السوء، فكيف بمن أشرك وكفر بآياته وعادى رسله، أليس ذلك أجهل الجاهلين؟

وقد سمي تعالى أعداء جاهلين بعد إقامة الحجة عليهم. فقال: ﴿خُذِ الْقَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فأمره بالإعراض عنهم بعد أن أقام عليهم الحجة، وعلموا أنه صادق، وقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فالجاهلون هنا الكفار الذين علموا أنه رسول الله، فهذا العلم لا ينافي الحكم على صاحبه بالجهل، بل يثبت له العلم وينفي عنه في موضع واحد، كما قال تعالى عن السحرة من اليهود: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَنْفَسٍ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فأثبت لهم الذي تقوم به عليهم الحجة، ونفى عنهم العلم النافع الموجب لترك الضار وهذا نكتة المسألة وسرّ الجواب، فما دخل النار إلا عالم ولا دخلها إلا جاهل.

وهذا العلم لا يجتمع مع الجهل في الرجل الواحد، يوضحه أن الهوى والغفلة والإعراض تصد عن كماله واستحضاره ومعرفة موجهه على التفصيل، وتقيم لصاحبه شبهاً وتأويلات تعارضه فلا يزال المقتضى يضعف، والعارض يعمل عمله حتى كأنه لم يكن، ويصير صاحبه بمنزلة الجاهل من كل وجه.

فلو علم إبليس أن تركه للسجود لآدم يبلغ به ما بلغ، وأنه يوجب له أعظم العقوبة وتيقن ذلك لم يتركه، ولكن حال الله بينه وبين هذا العلم ليقضي أمره، وينفذ قضاؤه وقدره، ولو ظن آدم وحواء أنهما إذا أكلتا من الشجرة خرجا من الجنة وجرى عليهما ما جرى، ما قرباها، ولو علم أعداء الرسل تفاصيل ما يجري عليهم وما يصيبهم يوم القيامة وجزموا بذلك لما عادوهم.

قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّدْرِ﴾ [القمر: ٣٦]. وقال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ﴾

[سبأ: ٥٤]، وقال عن المنافقين وقد شاهدوا آيات الرسول وبراهين صدقه عياناً: ﴿وَأَزَلَّتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَدُّونَ﴾ [التوبة: ٤٥]. وقال: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَفَّعْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ [الحديد: ١٤] وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]. وهو مرض الشك ولو كان هذا لعدم العلم الذي تقوم به الحجة عليهم، لما كانوا في الدرك الأسفل من النار، بل هذا بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم الذي لم ينفعهم، فالعلم يضعف قطعاً بالغفلة والإعراض واتباع الهوى وإثارة الشهوات.

وهذه الأمور توجب شبهات وتأويلات تضاده.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه من أسرار القدر والشرع والعدل. فالعلم يراد به العلم التام المستلزم لأثره، ويراد به المقتضى، وإن لم يتم بوجود شروطه وانتفاء موانعه، فالثاني يجامع الجهل دون الأول، فتبين أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم.

وإن كان كذلك فعلم العلم ليس أمراً وجودياً، بل هو لعدم السمع والبصر، والقدرة والإرادة، والعدم ليس شيئاً حتى يستدعي فاعلاً مؤثراً فيه، بل يكفي فيه عدم مشيئة ضده، وعدم السبب الموجب لضده والعدم المحض لا يضاف إلى الله، فإنه شر والشر ليس إليه، فإذا انتفى هذا الجازم عن العبد، ونفسه بطبعها متحركة مريدة وذلك من لوازم شأنها، تحركت بمقتضى الطبع والشهوة وغلب ذلك فيها على داعي العلم والمعرفة فوقعت في أسباب الشر ولا بد<sup>(١)</sup>.

□ □ □

ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته لله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته، قال النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»<sup>(٢)(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٧)

(١) شفاء العليل (١٧٢، ١٧٣). (٢) مدارج السالكين (١/ ١٣٦، ١٣٧).

(٣) رواه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٢﴾  
[فاطر: ٣٢ - ٣٣].

[السائرون] إلى الله، وإلى دار السلام ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله. وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه: مقصر في الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار.

والمقتصد: اقتصر من الزاد على ما يبلغه، ولم يشد مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالم غانم لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق بالخيرات: همه في تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسراناً أن يدخر شيئاً مما بيده ولا يتجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيم به تجارة إلى ذلك البلد لفعل. فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن الله: يرى خسراناً بيناً أن يمر عليه وقت في غير متجر.

فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو:

فأما الظالم لنفسه، فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة، فمرة يأخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة.

فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالشواب والعقاب.

فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب منهما. فإذا ورد القيامة

مُيزَ ربحه من خسارانه، وحصل ربحه وحده وخسارانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله.

وأما المقتصدون، فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزدوا عليها ولا نقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار ولا بخسوا الحق الذي عليهم. فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام، والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله فيها مشغلاً بها قائماً بأعيانها مؤدياً واجب الرب فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول.

فهو كذلك سائر يومه. فإذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر، فيقوم إلى غذائه ووظيفته، فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم.

وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار ومقربون. وهؤلاء الأصناف الثلاثة: هم أهل اليمين، وهم المقتصدون والأبرار والمقربون، وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمى مؤمناً عند الإطلاق، وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

□ □ □

وقد اختلف في قوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ الآية. هل ذلك راجع إلى الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، أو يختص بالقسمين الأخيرين وهما المقتصد والسابق دون الظالم؟ على قولين:

فذهبت طائفة إلى أن الأصناف الثلاثة كلهم في الجنة، وهذا يروى عن ابن مسعود وابن عباس وأبي سعيد الخدري وعائشة أم المؤمنين.

قال أبو إسحاق السبيعي: أما الذي سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج<sup>(١)</sup>.

قال أبو داود الطائفي: أنبأنا الصلت بن دينار حدثنا عقبة بن صبهان الهنائي،

قال: سألت عائشة عن قول الله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾. فقالت لي: يا بني، كل هؤلاء في الجنة، فأما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله يشهد له رسول الله بالخير والرزق، وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به. وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك قال: فجعلت نفسها معنا<sup>(١)</sup>.

وقال ابن مسعود: هذه الأمة يوم القيامة أثلاث: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يجيئون بذنوب عظام فيقول الله: ما هؤلاء؟ وهو أعلم بهم، فتقول الملائكة: هم مذنبون، إلا أنهم لم يشركوا. فيقول الله: أدخلوهم في سعة رحمتي<sup>(٢)</sup>. وقال كعب: تحاذت مناكبهم ورب الكعبة وتفاضلوا بأعمالهم.

وقال الحسن: السابقون من رجحت حسناتهم، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، والظالم من خفت موازينه.

واحتجت هذه الفرقة بأنه سبحانه سمي الكل «مضطفين»، وأخبر أنه اصطفاهم من جملة العباد، ومحال أن يكون الكافر والمشرک من المضطفين، لأن الاضطفاء هو الاختيار، وهو الافتعال من صفوة الشيء وهو خياره، فعلم أن هؤلاء الأصناف الثلاثة صفوة الخلق، وبعضهم خير من بعض: فسابقهم مضطفي عليهم، ثم مقتصدهم مضطفي على ظالمهم، ثم ظالمهم مضطفي على الكافر والمشرک.

وقالت طائفة: بل الوعد بالجنات إنما هو للمقتصد والسابق دون الظالم لنفسه، فإن الظالم لنفسه لا يدخل تحت الوعد المطلق، والظالم لنفسه هنا هو الكافر، والمقتصد المؤمن العاصي، والسابق المؤمن التقى.

وهذا يروى عن عكرمة والحسن وقتادة، وهو اختيار جماعة من المفسرين منهم: صاحب الكشف<sup>(٣)</sup>، ومنذر بن سعيد في تفسيره، والرماني، وغيرهم.

قالوا: وهذه الآية متناولة لجميع أقسام الخلق شقيهم وسعيدهم، وهي نظير قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ٧ ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ٨ ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ ٩ ﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ ١٠ الآية [الواقعة: ٧ - ١٠].

قالوا: فأصحاب الميمنة هم المقتصدون، وأصحاب المشأمة الظالمون لأنفسهم، والسابقون السابقون هم السابقون بالخيرات. قالوا: ولم يصطف الله من خلقه ظالماً

(١) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢٠٩). والحاكم في المستدرک (٤٢٦/٢).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١٣٤/٢٢). (٣) الكشف (٣٧٥/٣).

لنفسه، بل المصطفون من عباده هم صفوته وخيارهم، والظالمون لأنفسهم ليسوا خيار العباد بل شرارهم، فكيف يوقع عليهم اسم المصطفين، ويتناولهم فعل الاصطفاء؟ قلت: روي من حديث معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال: «هم أمة محمد، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب»<sup>(١)</sup>.

وروي من حديث عثمان بن أبي شيبة: حدثنا الحسن بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، حدثنا عمران بن محمد بن أبي ليلى، حدثنا أبي عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن البراء بن عازب - أو عن رجل عن البراء بن عازب - قال: قال رسول الله ﷺ: «فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله»، قال: «كلهم ناج وهي هذه الأمة»<sup>(٢)</sup>.

ورواه الفريابي: حدثنا سفيان عن أبي ليلى عن الحكم عن رجل حدثه عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية قال: «كل ناج»<sup>(٣)</sup>.

وقال آدم بن أبي إياس: حدثنا أبو فضالة عن الأزهري عبد الله الخزاز، حدثنا من سمع عثمان بن عفان يقول: ألا إن سابقنا أهل جهادنا، ألا وإن مقتصدنا أهل حضرنا، ألا وإن ظالمنا أهل بدونا<sup>(٤)</sup>.

وقد تقدم حديث عائشة وأبي الدرداء وحذيفة، قالوا: فهذه الآثار يشد بعضها بعضاً، وأنها قد تعددت طرقها واختلفت مخرجها، وسياق الآية يشهد لها بالصحة فلا تعدل عنها<sup>(٥)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

(١) ورواه الطبري (١٣٣/٢٢). وهذا منقطع؛ لأن علي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما ولم يره.

(٢) ورواه الفريابي وابن مردويه كما في الدر المنثور (٢٥/٧)، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سيء الحفظ.

(٣) انظر: الحديث السابق.

(٤) ضعيف؛ للإبهام وحال محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى كما تقدم.

(٥) طريق الهجرتين (١٧٤ - ١٨٨).

فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه، وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته. فإن العبد على جناح سفر، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإذا طال عمره وحسن عمله، كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة، فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلى أسفل.

فالمسافر إما صاعد وإما نازل، وفي الحديث المرفوع: «خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله»<sup>(١)</sup>.

فالطالب الصادق في طلبه، كلما خرب شيء من ذاته، وجعله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئاً من لذات دنياه، جعله زيادة في لذات آخرته، وكلما ناله هم أو حزن أو غم، جعله من أفراح آخرته. فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته، إن زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في معاده، كان رحمة به وخيراً له، وإلا كان حرماناً وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة، أو ترك واجب ظاهر أو باطن، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة، وبالله التوفيق<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه، وفي الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره تعالى. فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك: هو الصبر وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه، كما في كشف الخفا.

(٢) الفوائد (١٨٩).

(٣) غدة الصابرين (٢٧٧، ٢٧٨).

## سُورَةُ يَسْ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَسْ ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿يَسْ: ١ - ٤﴾.

الصحيح أن يس بمنزلة حم وألم، ليست اسماً من أسماء النبي ﷺ. وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله وصحة نبوته ورسالته، فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وجوز فيه ثلاثة؛ أن يكون خبراً بعد خبر فأخبر عنه بأنه رسول له وأنه على صراط مستقيم.

وأن يكون متعلقاً بالخبر نفسه تعلق المعمول بعامله، أي: أرسلتك على صراط. وهذا يحتاج إلى بيان تقدير المجعولين على صراط مستقيم وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿يَسْ: ٧ - ٩﴾.

قال الفراء: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله.

وقال أبو عبيدة: منعناهم عن الإيمان بموانع.

ولما كان الغل مانعاً للمغلول من التصرف والتقلب كان الغل الذي على القلب مانعاً من الإيمان، فإن قيل: فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب، فكيف ذكر الغل الذي في العنق؟ قيل: لما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب ذكر

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٢٦).

محله، والمراد به القلب كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]. ومن هذا قولهم: إثمى في عنقك، وهذا في عنقك، ومن هذا قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]. شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق، ومن هذا قال الفراء: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيَّ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ حبسناهم عن الإنفاق. قال أبو إسحاق: وإنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي: لزومه كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق.

قال أبو علي: هذا مثل قولهم: طوقتك كذا وقلدتك كذا. ومنه: قلده السلطان كذا، أي: صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة، ومكان الطوق.

قلت: ومن هذا قولهم: قلدت فلاناً حكماً كذا وكذا، كأنك جعلته طوقاً في عنقه، وقد سمى الله التكاليف الشاقة أغلالاً في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فشيها بالأغلال؛ لشدتها وصعوبتها. قال الحسن: هي الشدائد التي كانت في العباد كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم. وقال ابن قتيبة: هي تحريم الله سبحانه عليهم كثيراً مما أطلقه لأمة محمد ﷺ وجعلها أغلالاً؛ لأن التحريم يمنع كما يقبض الغل اليد.

وقوله: ﴿فَهِيَ إِلَىٰ آذَانٍ﴾. قالت طائفة: الضمير يعود إلى الأيدي وإن لم تذكر؛ لدلالة السياق عليها، قالوا: لأن الغل يكون في العنق فتجتمع إليه اليد؛ ولذلك سمي جامعة، وعلى هذا فالمعنى: فأيديهم أو فأيمانهم مضمومة إلى آذنانهم. هذا قول الفراء والزجاج.

وقالت طائفة: الضمير يرجع إلى الأغلال وهذا هو الظاهر.

وقوله: ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾، أي: واصله وملزوزة إليها، فهو غل عريض قد أحاط بالعنق، حتى وصل إلى الذقن.

وقوله: ﴿فَهِيَ إِلَىٰ آذَانٍ﴾، قال الفراء والزجاج: المقمح هو الغاص بصره بعد رفع رأسه، ومعنى الإقماح في اللغة: رفع الرأس، وغض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه وقمح.

وقال الأصمعي: بعير قامح إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب.

قال الأزهري: لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذنانهم، ورؤوسهم صعداً كالإبل الرافعة رؤوسها. انتهى.

فإن قيل : فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان؟  
 قيل : أحسن وجه وأبينه ، فإن الغل إذا كان في العنق واليد مجموعة إليها منع  
 اليد عن التصرف والبطش ، فإذا كان عريضاً قد ملأ العنق ووصل إلى الذقن منع  
 الرأس من تصويبه ، وجعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه لا يستطيع له حركة ، ثم  
 أكد هذا المعنى والحبس بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ ، قال  
 ابن عباس : منعهم من الهدى لما سبق في علمه . والسد الذي جعل من بين  
 أيديهم ، ومن خلفهم ، هو الذي سد عليهم طريق الهدى .

فأخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم ، ومثلها بأحسن  
 تمثيل وأبلغه وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في  
 أعناقهم ، وضمت أيديهم إليها وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما  
 وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئاً .

وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له ثم جحده وكفر به وعاداه  
 أعظم معاداة ، وجدت هذا المثل مطابقاً له أتم مطابقة وأنه قد حيل بينه وبين  
 الإيمان ، كما حيل بين هذا وبين التصرف ، والله المستعان <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ  
 أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [يس : ١٢] .

فجمع بين الكتابين الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم والكتاب المقارن  
 لأعمالهم ، فأخبر أنه يحييهم بعدما أماتهم للبعث ويجازيهم بأعمالهم ونبه بكتابته  
 لها على ذلك .

قال مقاتل : ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ من خير أو شر فعلوه في حياتهم ، ﴿ وَآثَرَهُمْ ﴾ ما سئوا  
 من سنة خير أو شر فاقندي بهم فيها بعد موتهم .

وقال ابن عباس في رواية عطاء : آثارهم ما أثروا من خير أو شر ، كقوله : ﴿ يُبْنَوْنَ  
 الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] .

فإن قلت : قد استفيد هذا من قوله : ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ ، فما أفاد قوله : ﴿ وَآثَرَهُمْ ﴾  
 على قوله ؟

(١) شفاء العليل (٩٤ ، ٩٥) .

قلت: أفاد فائدة جلية وهو أنه سبحانه يكتب ما عملوه وما تولد من أعمالهم، فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر وهو أثر أعمالهم، فآثارهم هي آثار أعمالهم المتولدة عنها، وهذا القول أعم من قول مقاتل، وكأن مقاتلاً أراد التمثيل والبيان على عادة السلف في تفسير اللفظة العامة بنوع أو فرد من أفراد مدلولها تقريباً وتمثيلاً لا حصراً وإحاطة.

وقال أنس وابن عباس في رواية عكرمة: نزلت هذه الآية في بني سلمة أرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، وكانت منازلهم بعيدة فلما نزلت قالوا: بل نمكث مكاننا. واحتج أرباب هذا القول بما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري، قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم»، وقد روى مسلم في صحيحه نحوه من حديث جابر وأنس<sup>(١)</sup>.

وفي هذا القول نظر فإن سورة يس مكية<sup>(٢)</sup> وقصة بني سلمة بالمدينة، إلا أن يقال: هذه الآية وحدها مدنية، وأحسن من هذا أن تكون ذكرت عند هذه القصة ودلت عليها، وذكرها بها عندها إما من النبي ﷺ وإما من جبريل، فأطلق على ذلك النزول، ولعل هذا مراد من قال في نظائر ذلك: نزلت مرتين.

والمقصود: أن خطاهم إلى المساجد من آثارهم التي يكتبها الله لهم. قال عمر بن الخطاب: لو كان الله سبحانه تاركاً لابن آدم شيئاً ترك ما عفت عليه الرياح من أثر. وقال مسروق: ما خطا رجل خطوة إلا كتبت له حسنة أو سيئة.

(١) الذي في صحيح البخاري (١٦٣/٢، ١٦٤) في الأذان، باب: احتساب الآثار و(١١٨/٤) في فضائل المدينة، باب: كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، عن أنس رضي الله عنه: «يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم؟ فأقاموا وذلك حين أرادوا التحول قرب المسجد، وليس فيه ذكر للآية، وكذا عند مسلم (٣١٢/٢) في المساجد، باب: فضل الصلاة المكتوبة في جماعة، من حديث جابر رضي الله عنه، دون ذكر للآية.

ولكن عند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري (٣٣٩/٥) في التفسير، باب: من سورة يس... وذكر الآية.

وقال: حسن غريب، وصححه الألباني. صحيح الترغيب (١٢٣/١)، وصحيح الترمذي (٩٧/٣).

(٢) قال القرطبي: «وهي مكية بإجماع، إلا أن فرقة قالت: إن قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ مدنية» (٥٤٤٥/٦).

والمقصود: أن قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها وحفظه لها والإحاطة بعددها وإثباتها فيه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتْفَوِّرُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ رُجْعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿يس: ٢٠ - ٢٤﴾.

فنبه على موجب الاتباع وهو كون المتبوع رسولاً لمن لا ينبغي أن يخالف ولا يعصى وأنه على هداية. ونبه على انتفاء المانع وهو عدم سؤال الأجر فلا يريد منكم دنيا ولا رياسة، فموجب الاتباع كونه مهتدياً والمانع منه منتف وهو طلب العلو في الأرض والفساد وطلب الأجر.

ثم قال: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾. أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفاً لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول مستهجن تركها، قبيح الإخلال بها فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه ونعمه كلها بعد تابعة لإيجاده وخلقها، وقد جبل الله العقول والفطر على شكر المنعم ومحبة المحسن ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في ذلك فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع.

ثم أقبل عليهم مخوفاً لهم تخويف الناصح فقال: ﴿وَإِلَيْهِ رُجْعُونَ﴾.

ثم أخبر عن الآلهة التي تعبد من دونه أنها باطلة وأن عبادتها باطلة فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾.

فإن العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه، وإنما إذا أرادني الرحمن الذي فطرني بضر لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ما ينقذونني بها من ذلك الضر، ولا من الجاه والمكانة عنده ما يشفع لي إليه لأتخلص من ذلك الضر، فبأي وجه

يستحق العباداة ﴿إِنِّي إِذَا لَغِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ﴾. إن عبدت من دون الله مما هذا شأنه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

فنفي أن يظلم بأن يزداد عليه في سيئاته أو ينقص من حسناته أو يعاقب بعمل غيره، ولم ينف أن ينتفع بعمل غيره، لا على وجه الجزاء فإن انتفاعه بما يُهدى إليه ليس جزاء على عمله، وإنما هو صدقة تصدق الله بها عليه وتفضل بها عليه من غير سعي منه، بل وهبه ذلك على يد بعض عباده لا على وجه الجزاء<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

أخبر سبحانه أن الناس قسمان: حي قابل للانتفاع يقبل الإنذار وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به؛ لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير البتة فيحق عليه القول بالعذاب. وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان؛ بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول، إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءني رسول منك لامتثلت أمرك فأرسل إليه رسوله، فأمره ونهاه؛ فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: إنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]. وحق عليه العذاب. كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦].

فالكلمة التي حقت كلمتان: كلمة الإضلال وكلمة العذاب كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]. وكلمته سبحانه، إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته. وحاصل هذا كله: أن الله سبحانه أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم، لا مع مراد أنفسهم. فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم. فاستحقوا كرامته.

وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده وعلم سبحانه منهم: أنهم لا يؤثرون مراده البتة. وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم فأمرهم ونهاهم، فظهر بأمره ونهيه من القدر الذي قدر عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله؛ فعاقبهم بظلمهم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْزِي الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣].

تضمنت هذه الآيات عشرة أدلة [على البعث]:

[١] أحدها: قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧]، فذكره مبدأ خلقه ليدله به على النشأة الثانية.

[٢] ثم أخبر أن هذا الجاحد لو ذكر خلقه لما ضرب المثل، بل لما نسي خلقه ضرب المثل. فتحت قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ألطف جواب، وأبين دليل، وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئاً: فلان جحدني الإحسان إليه، ونسي الثياب التي عليه، والمال الذي معه، والدار التي هو فيها، حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك.

[٣] ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمنه أبلغ الدليل على ثبوت ما جحدته فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فهذا جواب واستدلال قاطع.

[٤] ثم أكد هذا المعنى بالإخبار بعموم علمه بجميع الخلق، فإن تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور علمه، أو قصور في قدرته، ولا قصور في علم من هو بكل خلق عليم، ولا قدرة فوق قدرة من خلق السماوات والأرض، وإذا أراد شيئاً، قال له: كن فيكون، ويبدئه ملكوت كل شيء، فكيف تعجز قدرته وعلمه عن إحيائكم بعد مماتكم، ولم تعجز عن النشأة الأولى، ولا عن خلق السماوات والأرض.

[٥] ثم أرشد عباده إلى دليل واضح جلي متضمن للجواب عن شبه المنكرين بالطف

الوجوه وأبينها وأقربها إلى العقل فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ﴾، فإن هذا دليل على تمام قدرته، وإخراج الأموات من قبورهم كما أخرج النار من الشجرة الخضراء، وفي ذلك جواب عن شبهة من قال من منكري المعاد: الموت بارد يابس، والحياة طبعها الرطوبة والحرارة، فإذا حل الموت بالجسم لم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما، وهذه شبهة تليق بعقول المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل، فإن الحياة لا تجماع الموت في المحل الواحد، ليلزم ما قالوا؟! بل إذا أوجد الله فيه الحياة وطبعها ارتفع الموت وطبعه، وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة.

[٦] ثم ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل، وهو خلق السماوات والأرض مع عظمهما وسعتهما، وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما؟ ومن لم تعجز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس، كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم؟

[٧] ثم قرر هذا المعنى بذكر وصفين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به، فقال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ فكونه خلاقاً عليمًا يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أراده من الخلق.

[٨] ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكمالها لا يقصر عنه، ولا عن شيء أبداً فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فلا يمكنه الاستعصاء عليه ولا يتعذر عليه، بل يأتي طائعاً منقاداً لمشيئته وإرادته.

[٩] ثم زاده تأكيداً وإيضاحاً بقوله: ﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فنزه نفسه عما نطق به أعداؤه المنكرون للمعاد، معظماً لها بأن ملك كل شيء بيده، يتصرف فيه تصرف المالك الحق في مملوكه الذي لا يمكنه الامتناع عن أي تصرف شاء فيه.

[١٠] ثم ختم السورة بقوله: ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾، كما أنهم ابتدأوا منه هو، فكذلك مرجعهم إليه، فمنه المبدأ، وإليه المعاد، وهو الأول والآخر، وأن إلى ربك المنتهى<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْزِي الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾  
 فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه  
 الحجة أو بمثلها، في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووضوح  
 الدلالة وصحة البرهان، لألفى نفسه ظاهر العجز منقطع الطمع يستحي الناس من  
 ذلك.

فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جواباً فكان في قوله  
 سبحانه: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾، ما وفي بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة لولا ما أراد  
 سبحانه من تأكيد حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا الملحد  
 السائل عن هذه المسألة لو لم ينس خلق نفسه وبدء كونه وذكر خلقه لكانت فكرته  
 فيه كافية في جوابه مسكتة له عن هذا السؤال.

ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ وصرح به جواباً له عن مسأله  
 فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى عن النشأة الأخرى، إذ كل عاقل  
 يعلم علماً ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن  
 الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر والأصغر، وأن  
 كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر،  
 فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي  
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾.



## سُورَةُ الصَّافَّاتِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّجَرِ زَجْرًا ۝ فَالتَّلَايَةِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَهُكُمُ لَوَّحٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝﴾ [الصفات: ١ - ٥].

أقسم سبحانه بملائكته الصفات للعبودية بين يديه، كما قال النبي ﷺ لأصحابه: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ تتمون الصفوف الأولى، وتراصون في الصف»<sup>(١)</sup>. وكما قالوا عن أنفسهم: ﴿وإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصفات: ١٦٥]. والملائكة الصفات أجنحتها في الهواء. والزاجرات: الملائكة التي تزجر السحاب وغيره بأمر الله ﴿فَالْتَلَيْتِ﴾ التي تتلو كلام الله.

وقيل: الصفات: الطير. كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتِ وَيَقِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَالطَّيْرِ صَفَقَتِ﴾ [النور: ٤١]. والزاجرات الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصي الله، والتاليات الجامعات لكتاب الله تعالى.

وقيل: الصفات للقتال في سبيله، فالزاجرات الخيل للحمل على أعدائه، فالتاليات الذاكرين له عند ملاقات عدوهم.

وقيل: الجامعات الصفات أبدانها في الصلاة، الزاجرات أنفسها عن معاصي الله. فالتاليات آياته.

واللفظ يحتمل ذلك كله، وإن كان أحق من دخل فيه وأولى الملائكة. فإن الإقسام كالل دليل، والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد، وما ذكر من غير الملائكة فهو من آثار الملائكة وبواسطتها كان.

وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته وقرر توحيد ربوبيته فقال:

﴿إِنَّ إِلَهَهُمْ لَوَاحِدٌ ۖ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ [الصافات: ٤، ٥].  
من أعظم الأدلة على أنه إله واحد، ولو كان معه إله آخر لكان الإله مشاركاً له في ربوبيته، كما شاركه في إلهيته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبوداً وحده بكونه خالقاً رازقاً وحده.

وخص المشارق هاهنا بالذكر إما لدلالاتها على المغارب، إذ الأمران المتضايقان كل منهما يستلزم الآخر، وإما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الأنوار، وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزيينة الكواكب، وجعلها حفظاً من كل شيطان، فذكر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق؛ والله تعالى أعلم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ [الصافات: ٦، ٧].

فجعل المصابيح زينة لظاهرها ولباطنها بالحراسة من الشياطين، فهي زينة الظاهر والباطن<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ مِّنْ دُونِ اللَّهِ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

قال الإمام أحمد وقبلة عمر بن الخطاب: (أزواجهم) أشباههم ونظراءهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال: يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء في النار<sup>(٣)</sup>.

وقال الحسن وقتادة: يلحق كل امرئ بشيعته؛ اليهودي باليهودي، والنصراني بالنصراني.

وقال الربيع بن خيثم: يحشر الرجل مع صاحب عمله.

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٢٧، ٤٢٨). (٢) الصواعق المرسلة (٤/١٣٧٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤٦/٢٣).

وفي الآية ثلاثة أقوال آخر:

أحدها: أن تزويج النفوس اقترانها بأجسادها وردها إليها.

الثاني: تزويجها اقترانها بأعمالها.

الثالث: أنه تزويج المؤمنين الحور العين وتزويج الكفار بالشياطين. والقول الأول أظهر الأقوال. والله أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَرَاكُمْ إِلَّا هَيْئًا لِّشَاعِرٍ تَجْتُنِمْ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿الصفات: ٣٥ - ٣٧﴾. أي: مجيئه تصديق لهم من جهتين: من جهة إخبارهم بمجيئه وبعثه، ومن جهة إخباره بمثل ما أخبروا به ومطابقة ما جاء به لما جاؤوا به، فإن الرسول الأول إذا أتى بأمر لا يعلم إلا بالوحي ثم جاء نبي آخر لم يقارنه في الزمان ولا في المكان، ولا تلقى عنه ما جاء به وأخبر بمثل ما أخبر به سواء، دل ذلك على صدق الرسولين الأول والآخر، وكان ذلك بمنزلة رجلين أخبر أحدهما بخبر عن عيان ثم جاء آخر من غير بلده وناحيته بحيث يعلم أنه لم يجتمع به ولا تلقى عنه ولا عمن تلقى عنه، فأخبر بمثل ما أخبر به الأول سواء، فإنه يضطر السامع إلى تصديق الأول والثاني.

والمعنى الثاني: أنه لم يأت مكذباً لمن قبله من الأنبياء مزرياً عليهم كما يفعل الملوك المتغلبون على الناس بمن تقدمهم من الملوك، بل جاء مصداقاً لهم شاهداً بنبوتهم ولو كان كاذباً متقولاً منشئاً من عنده سياسة لم يصدق من قبله، بل كان يزري بهم ويطعن عليهم كما يفعل أعداء الأنبياء<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مَنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمْدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ آنَسَ مَطْلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ قَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَلَّذِينَ وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿الصفات: ٥٠ - ٥٧﴾.

(١) طريق الهجرتين (٣٩٦).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٥٠، ٣٥١).

أخبر ﷺ أن أهل الجنة، أقبل بعضهم على بعض يتحدثون ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوال كانت في الدنيا، فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة، إلى أن قال قائل منهم: إني كان لي قرين في الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة، ويقول ما حكاه الله عنه يقول: إنك لمن المصدقين بأنا نبعث ونجازي بأعمالنا ونحاسب بها بعد أن مزقنا البلى وكنا تراباً وعظاماً؟ ثم يقول المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مطلعون في النار للنظر منزلة قريني هذا وما صار إليه؟

وهذا أظهر الأقوال. وفيها قولان آخران:

أحدهما: أن الملائكة تقول لهؤلاء المتذاكرين الذين يحدث بعضهم بعضاً: هل أنتم مطلعون؟ رواه عطاء عن ابن عباس.

والثاني: أنه من قول الله ﷻ لأهل الجنة يقول لهم: هل أنتم مطلعون؟ والصحيح القول الأول. وأن هذا قول المؤمن لأصحابه ومحادثيه، والسياق كله والإخبار عنه وعن حال قرينه، قال كعب: بين الجنة والنار كوى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له في الدنيا اطلع من بعض تلك الكوى.

وقوله: (فاطلع)، أي: أشرف. قال مقاتل: لما قال لأهل الجنة: هل أنتم مطلعون؟ قالوا له: أنت أعرف به منا، فاطلع أنت فأشرف فرأى قرينه في سواء الجحيم، ولولا أن الله عرفه إياه لما عرفه، لقد تغير وجهه ولونه وغيره العذاب أشد تغيير، فعندها ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ ۖ وَلَوْلَا رِجْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُمُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۖ﴾. أي: إن كدت لتهلكني، ولولا أن أنعم الله علي بنعمته لكنت من المحضرين معك في العذاب<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۗ﴾ (١٧) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٤].

قال قتادة: لما ذكر الله هذه الشجرة افتتن بها الظلمة، فقالوا: يكون في النار شجرة، والنار تأكل الشجر؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾، فأخبرهم أن غذاءها من النار، أي: غذيت بالنار.

قال ابن قتيبة: قد تكون شجرة الزقوم نبتاً من النار، ومن جوهر لا تأكله النار،

(١) حادي الأرواح (٢١٠).

وكذلك، سلاسل النار وأغلالها وأنكالها، وعقاربها، وحياتها، ولو كانت على ما يعلم الناس، لم تبق على النار.  
 وإنما دلنا الله تعالى على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماء متفقة الدلالة، والمعاني مختلفة، وما في الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها، وجميع آلاتها على مثل ذلك. والمقصود: أن هذه الشجرة فتنة لهم في الدنيا بتكذيبهم بها، وفتنة لهم في الآخرة بأكلهم منها<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿الصفات: ٧٨ - ٨٠﴾.

فالذي تركه سبحانه على رسوله في الآخرين هو السلام عليهم المذكور. وقد حكى غير واحد الإجماع على أن الصلاة على جميع النبيين مشروعة. منهم الشيخ محيي الدين النووي وغيره، وقد حكى عن مالك رواية: أنه لا يصلى على غير نبينا ﷺ، ولكن قال أصحابه: هي مؤولة بمعنى: أنه لم نتعبد بالصلاة على غيره من الأنبياء، كما تعبدنا الله بالصلاة عليه ﷺ<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ (٨٥) أَفَبِكُلِّ عِلْمٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿الصفات: ٨٥ - ٨٧﴾.

أي: فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته فلا يحتاج إلى رحمته إلى من يستعطفه.

وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء؛ فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم، ويعينهم إلى قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم

(٢) جلاء الأفهام (٢٧١ - ٢٧٦).

(١) إغاثة اللهفان (١٦٣/٢).

ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم.

فأما القادر على كل شيء، الغني بذاته عن كل شيء، والعالم بكل شيء، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده، وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح يوضح هذا: أن العابد معظم لمعبوده، مثاله له خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال والتأله والخضوع والذل، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

ظن كثير من الناس أن (ما) مصدرية واحتجوا بها على خلق الأعمال، وليست مصدرية، وإنما هي موصولة، والمعنى: والله خلقكم وخلق الذي تعملونه وتحتونه من الأصنام، فكيف تعبدونه وهو مخلوق لله؟ ولو كانت مصدرية لكان الكلام إلى أن يكون حجة لهم أقرب من أن يكون حجة عليهم، إذ بكون المعنى: أتعبدون ما تحتون والله خلق عبادتكم لها، فأى معنى في هذا وأي حجة عليهم؟ والمقصود: أنه كثير ما تدخل إحداهما على الأخرى ويحتملها الكلام سواء<sup>(٢)</sup>.

والصواب أنها موصولة وأنها لا تدل على صحة مذهب القدرية، بل هي حجة عليهم، مع كونها موصولة.

وهذا يبين بمقدمة نذكرها قبل الخوض في التقرير وهي: أن طريقة الحجاج والخطاب أن يجرد القصد والغاية بحال ما يحتاج له وعليه، فإذا كان المستدل محتجاً على بطلان ما قد ادعى في شيء وهو يخالف ذلك، فإنه يجرد الغاية إلى بيان بطلان تلك الدعوى، وأن ما ادعى له ذلك الوصف هو متصف بضده لا متصف به، فأما أن يمسك عنه ويذكر وصف غيره فلا.

(٢) بدائع الفوائد (١/١٤٣، ١٤٤).

(١) الجواب الكافي (٢٠٦، ٢٠٧).

وإذا تقرر هذا فالله سبحانه أنكر عليهم عبادتهم الأصنام وبين أنها لا تستحق العبادة، ولم يكن سياق الكلام في معرض الإنكار عليهم ترك عبادته، وأن ما هو في معرض الإنكار عبادة من لا يستحق العبادة، فلو أنه قال: لا تعبدون الله وقد خلقكم وما تعملون، لتعينت المصدرية قطعاً، ولم يحسن أن يكون بمعنى: الذي، إذ يكون المعنى: كيف لا تعبدونه وهو الذي أوجدكم وأوجد أعمالكم، فهو المنعم عليكم بنوعي الإيجاد والخلق، فهذا وزان ما قرره من كونها مصدرية.

فأما سياق الآية فإنه في معرض إنكاره عليهم عبادة من لا يستحق العبادة فلا بد أن يبين فيه معنى ينافي كونه معبوداً، فبين هذا المعنى بكونه مخلوقاً له، ومن كان مخلوقاً من بعض مخلوقاته فإنه لا ينبغي أن يعبد ولا تليق به العبادة.

وتأمل مطابقة هذا المعنى لقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]. كيف أنكر عليهم عبادة آلهة مخلوقة له سبحانه وهي غير خالقة؟

فهذا يبين المراد من قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، ونظيره قوله في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَالِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، أي: هم عباد مخلوقون كما أنتم كذلك، فكيف تعبدون المخلوق؟.

وتأمل طريقة القرآن لو أراد المعنى الذي ذكره من حسن صفاته، وانفراده بالخلق، كقول صاحب يس: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢]، فهنا لما كان المقصود إخبارهم بحسن عبادته واستحقاقه لها ذكر الموجب لذلك وهو كونه خالقاً لعباده، فاطرأ له. وهذا إنعام منه عليه فكيف يترك عبادته؟ ولو كان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ كان يقتضي أن يقال: ألا يعبدون الله وهو خالقهم وخالق أعمالهم؟ فتأمل أنه واضح.

فإن قيل: فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون «ما» موصولة؟ قيل: نعم قد سبق الوعد بذلك، وقد حان إنجازها وأن إبرازه.

ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير أن الله سبحانه أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها، وهي إنما صارت أصناماً بأعمالهم، فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم، فإذا كان سبحانه هو الخالق اقتضى صحة هذا الإطلاق أن يكون خالقها بجملتها، أعني: مادتها وصورتها، فإذا كانت صورتها مخلوقة لله كما

أن مادتها كذلك لزم أن يكون خالقاً لنفس عملهم الذي حصلت به الصورة؛ لأنه متولد عن نفس حركاتهم. فإذا كان الله خالقها، كانت أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوقة، وهذا أحسن استدلالاً والطف من جعل «ما» مصدرية. ونظيره من الاستدلال سواء قوله: ﴿وَأَيُّهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]، والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن، وقد أخبر أنها مخلوقة وهي إنما صارت سفناً بأعمال العباد.

ونظير هذا الاستدلال أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظُلُمًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرِيلَ تَقِيَكُمْ الْحَرَّ وَسَرِيلَ تَقِيَكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، والسريل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم، وقد أخبر بأنه سبحانه هو جاعلها، وإنما صارت سريل بعملهم.

ونظيره: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٨٠]، والبيوت التي من جلود الأنعام هي الخيام وإنما صارت بيوتاً بعملهم.

فإن قلت: المراد من هذا الكلام المادة لا الصورة. قلت: المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها، وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها وقيام صورها بها، وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

فالأولى أن تكون «ما» موصولة، أي: والله خلقكم، وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم، فهي مخلوقة له، لا آلهة شركاء معه، فأخبر أنه خلق معمولهم وقد حله عملهم وصنعهم، ولا يقال: المراد مادته، فإن مادته غير معموله لهم وإنما يصير معمولاً بعد عملهم<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّوْا لِلْجَبِينِ﴾ [الصفات: ١٠٣].

إن إبراهيم عليه السلام لما بلغ ما بلغ - هو وولده - في المبادرة إلى الامتثال، والعزم على إيقاع الذبح المأمور به ألقاه الوالد على جبينه في الحال، وأخذ الشفرة وأهوى إلى حلقه، أعرض في تلك الحال عن نفسه وولده، وفني بأمر الله عنهما، فتوسط بحر جمع السر والقلب والهم على الله. وجاوز حد التفرقة المانعة من امتثال هذا الأمر.

قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَلَمَّا﴾، أي: استسلما وانقادا لأمر الله فلم يبق هناك منازعة لا من الوالد ولا من الولد، بل استسلام صرف وتسليم محض.

قوله: ﴿وَتَلَمَّ لِلْجَيْنِ﴾، أي: صرعه على جبينه وهو جانب الجبهة الذي يلي الأرض عند النوم، وتلك هي هيئة ما يراد ذبحه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ إِيَّايَسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠].  
فهذه فيها قراءتان:

إحدهما: ﴿إِيَّايَسِينَ﴾ بوزن إسماعيل وفيه وجهان:  
أحدهما: أنه اسم ثان للنبي إلياس وإلياسين كميكال وميكائيل.  
والوجه الثاني: أنه جمع وفيه وجهان:

أحدهما: أنه جمع إلياس وأصله: إلياسيين بيائين كعبرانيين، ثم خففت إحدى اليائين فقليل: إلياسين، والمراد: أتباعه، كما حكى سيبويه: الأشعرون ومثله الأعجمون.

والثانية: أنه جمع إلياس محذوف الياء.

والقراءة الثانية: (سلام على آل ياسين)، وفيه أوجه:  
أحدها: أن ياسين اسم لأبيه، فأضيف إليه الآل، كما يقال: آل إبراهيم.  
الثاني: أن آل ياسين: هو إلياس نفسه، فيكون آل مضافة إلى يس، والمراد بالآل: يس نفسه كما ذكر الأولون.

والثالث: أنه على حذف ياء النسب، فيقال: يس، وأصله: ياسيني كما تقدم، وآلهم: أتباعهم على دينهم.

والرابع: أن يس هو القرآن، وآله هم أهل القرآن.

والخامس: أنه النبي ﷺ، وآله: أقاربه وأتباعه كما سيأتي.

هذه الأقوال كلها ضعيفة، والذي حمل قائلها عليها استشكالهم إضافة آل إلى يس، واسمه إلياس وإلياسين، ورواها في المصحف مفصولة، وقد قرأها بعض القراء «آل يس»، فقال طائفة منهم: له أسماء: يس وإلياسين وإلياس.

وقالت طائفة: «يس» اسم لغيره، ثم اختلفوا فقال الكلبي: يس محمد ﷺ  
وقالت طائفة: هو القرآن. وهذا كله تعسف ظاهر لا حاجة إليه.

والصواب - والله أعلم في ذلك - أن أصل الكلمة: آل ياسين، كآل إبراهيم  
فحذفت الألف واللام من أوله لاجتماع الأمثال ودلالة الاسم على موضع  
المحذوف، وهذا كثير في كلامهم إذا اجتمعت الأمثال كرهوا النطق بها كلها  
فحذفوا منها ما لا إلباس في حذفه، وإن كانوا لا يحذفونه في موضع لا تجتمع فيه  
الأمثال، ولهذا يحذفون النون من «إني، وأنا، وكأني، ولكني»، ولا يحذفونها من  
ليتني، ولما كانت اللام في «لعل» شبيهة بالنون حذفوا النون معها، ولا سيما عادة  
العرب في استعمالها للاسم الأعجمي وتغييرها له، فيقولون مرة: «إلياسين»،  
ومرة: «إلياس»، ومرة: «ياسين»، وربما قالوا: «ياس»، ويكون على إحدى  
القراءتين قد وقع السلام عليه، وعلى القراءة الأخرى على آله.

وعلى هذا ففصل النزاع بين أصحاب القولين في الآل: أن الآل إن أفرد دخل  
فيه المضاف إليه، كقوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].  
ولا ريب في دخوله في آله هاهنا. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾  
[الأعراف: ١٣٠]، ونظائره.

وقول النبي ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»<sup>(١)</sup>، ولا ريب في دخول أبي  
أوفى نفسه في ذلك، وقوله: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت  
على آل إبراهيم»، هذه أكثر روايات البخاري وإبراهيم هنا داخل في آله، ولعل هذا  
مراد من قال: آل الرجل نفسه.

وأما إن ذكر الرجل، ثم ذكر آله لم يدخل فيهم، ففرق بين اللفظ المجرد  
والمقرون. فإذا قلت: أعط هذا لزيد وآل زيد لم يكن زيد هنا داخلاً في آله، وإذا  
قلت: أعطه لآل زيد تناول زيدا وآله.

وهذا له نظائر كثيرة قد ذكرناها في غير هذا الموضع، وهي أن اللفظ يختلف  
دلالاته بالتجريد والاقتران، كالفقير والمسكين، هما صنفان إذا قرن بينهما،  
وصنف واحد إذا أفرد كل منهما، ولهذا كانا في الزكاة صنفين، وفي الكفارات  
صنف واحد، وكالإيمان والإسلام، والبر والتقوى، والفحشاء والمنكر، والفسوق

(١) رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

والعصيان، ونظائر ذلك كثيرة ولا سيما في القرآن<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ [الصفات: ١٣٩ - ١٤١].

يقول تعالى: فقارع فكان من المدحضين، فهذان نبيان<sup>(٢)</sup> كريمان استعملتا القرعة، وقد احتج الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا إن صح ذلك عنهم<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ ﴿١٦٠﴾ [الصفات: ١٥٩، ١٦٠].

فنزّه سبحانه عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده، وهم الرسل ومن اتبعهم<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ [الصفات: ١٨٠ - ١٨٢].

فنزّه نفسه عما يصفه به الخلق، ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد.

ومن هاهنا أخذ إمام أهل السنة محمد بن إدريس الشافعي - قدس الله روحه ونور ضريحه - خطبة كتابه<sup>(٥)</sup> حيث قال: «الحمد لله الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه». فأثبت في هذه الكلمة أن صفاته إنما تتلقى بالسمع، لا بآراء الخلق، وأن أوصافه فوق ما يصفه به الخلق، فتضمنت هذه الكلمة إثبات صفات الكمال الذي أثبت لنفسه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل، وأن ما وصف به نفسه فهو الذي يوصف به، لا ما وصفه به الخلق، ثم قال:

(١) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام (١١٧ - ١١٩).

(٢) أي: سليمان ويونس عليهما السلام.

(٣) الطرق الحكيمة (٢٩٤).

(٤) جلاء الأفهام (٩١).

(٥) انظر: الرسالة للإمام الشافعي، ص (٨).

«والحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه توجب على مؤدي شكر ماضي نعمه بأدائها نعمة حادثة يجب عليه شكره بها».

فأثبت في هذا القدر أن فعل الشكر إنما هو بنعمته على الشاكر، وهذا يدل على أنه رحمه الله مثبت للصفات، والقدر.

وعلى ذلك درج بُدِّلُ<sup>(١)</sup> الإسلام والرعييل الأول، ثم فرق<sup>(٢)</sup> على أثرهم التابعون، وتبعهم على منهاجهم اللاحقون، يوصي بها الأول والآخر، ويقتدي فيه اللاحق بالسابق وهم في ذلك بنبيهم مقتدون، وعلى منهاجه سالكون<sup>(٣)</sup>.



(١) أي: أصحاب العقول والآراء القارحة. انظر: نهج البلاغة (٢٢).  
 (٢) فرق: قال الزمخشري: «وفرق لي الطريق فروقاً وانفرك انفراقاً: إذا اتجه لك طريقان فاستبان ما يجب سلوكه منهما، وطريق أفرق: بين»، نهج البلاغة (٣٤٠).  
 (٣) الصواعق المرسلة (١/١٥٣، ١٥٤).

## سُورَةُ ص

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر ما يدل على المقسم عليه، وكونه حقاً من عند الله غير مفترى، كما يقوله الكافرون.

وهذا معنى قول كثير من المفسرين، متقدميهم ومتأخريهم: أن الجواب محذوف، تقديره: إن القرآن لحق<sup>(١)</sup>. وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك<sup>(٢)</sup>.  
[وانظر تفسير الآية الأولى من سورة البقرة (١/٩١)].

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥].

تأمل ما اشتملت عليه سورة ص من الخصومات المتعددة.  
فأولها: خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ إلى آخر كلامهم.

ثم اختصام الخصمين عند داود.

ثم تخاصم أهل النار.

ثم اختصم الملأ الأعلى في العلم، وهو الدرجات والكفارات.

ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم.

ثم خصامه ثانياً في شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم.

فليتأمل اللبيب الفطن، هل يليق بهذه السورة غير «ص»؟ وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، والله أعلم<sup>(٣)</sup>.

(٢) التبيان في أقسام القرآن (١٠/١٣).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/١١٨).

(٣) بدائع الفوائد (٣/١٧٤).

قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥].

فزاده على المغفرة أمرين:

الزلفى وهي درجة القرب منه، وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف.

والثاني: حسن المآب وهو حسن المنقلب، وطيب المأوى عند الله، قالوا: ومن تأمل زيادة القرب التي أعطاها داود بعد المغفرة على صحة ما قلنا، وأن العبد بعد التوبة يعود خيراً مما كان<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يٰۤاٰدٰمُ اِنَّا جَعَلٰنَكَ خَلِيْفَةً فِى الْاَرْضِ فَاٰمُرُكَ بِالنَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوٰى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ اِنَّ الَّذِيْنَ يَضِلُّوْنَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌۢ بِمَا نَسُوْا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

فقسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًاۙ ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا﴾ [ص: ٢٧].

والباطل الذي ظنوه ليس هو الجمع بين النقيضين، بل الذي ظنوه: أنه لا شرع ولا جزاء ولا أمر ولا نهي ولا ثواب ولا عقاب، فأخبر: أن خلقها لغير ذلك هو الباطل الذي تنزه عنه، وذلك هو الحق الذي خلقت به، وهو التوحيد وحقه وجزاؤه وجزاء من جحدته وأشرك بربه<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿اَمْرٌۢ لِّجَعَلُ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ كَالْمُفْسِدِيْنَ فِى الْاَرْضِ اَمْرٌ لِّجَعَلُ الْمَتَّقِيْنَ كَالْفٰجَرِ﴾ [ص: ٢٨].

قد أنكر تعالى على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين كالتسوية بين الأبرار والفجار.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٨١).

(١) طريق الهجرتين (٢١٧).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٣٨).

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

فدل على أن هذا حكم سيء قبيح ينزه الله عنه، ولم ينكره سبحانه من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون، وإنما أنكره من جهة قبحه في نفسه، وأنه حكم سيء يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله ووقوع أفعاله كلها على السداد والصواب والحكمة، فلا يليق به أن يجعل البر كالفاجر، ولا المحسن كالمتسيء، ولا المؤمن كالمفسد في الأرض، فدل على أن هذا قبيح في نفسه، تعالى الله عن فعله<sup>(١)</sup>. وهذا استفهام إنكار. فدل على أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩].

أي: أعط من شئت وامنع من شئت، لا نحاسبك وهذه المرتبة هي التي عرضت على نبينا ﷺ<sup>(٣)</sup>، فرغب عنها إلى ما هو أعلى منها وهي مرتبة العبودية المحضة التي تصرف صاحبها فيها مقصور على أمر السيد في كل دقيق وجليل<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَحَذِّ بِيدِكَ ضِعْفًا فَأُضْرِبَ بِهِ وَلَا تَحْتِ إِنَّآ وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤].  
قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾.

هذه الجملة خرجت مخرج التعليل، كما في نظائرها. فعلم أن الله ﷻ إنما أفتاه بهذا جزاء له على صبره وتخفيفاً عن امرأته، ورحمة بها، لا أن هذا موجب هذه

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٨، ٣٣٩). (٢) مدارج السالكين (١/٢٣٨).

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، قال: أفملكاً نبياً يجعلك، أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: «بل عبداً رسولاً».

رواه الإمام أحمد (١٤٢/١٢، ١٤٣) برقم (٧١٦٠)، وصحح إسناده أحمد شاكر. قال الهيثمي: «رواه أحمد والبخاري وأبو يعلى، ورجال الأولين رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١٩/٩).

(٤) زاد المعاد (٨٣/٥).

اليمين، وأيضاً فإن الله ﷻ إنما أفتاه بهذه الفتيا لئلا يحنث كما أخبر تعالى <sup>(١)</sup>.

ومن العجب أن يحتج بهذه الآية من يقول: إنه لو حلف: ليضربه عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة، لم يبر في يمينه. هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد.

وقال الشافعي: إن علم أنها مسته كلها بر في يمينه، وإن علم أنها لم تمسه لم يبر. وإن شك لم يحنث، ولو كان هذا موجباً لبر الحالف لسقط عن الزاني والقاذف والشارب تعدد الضرب، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضرب بها ضربة واحدة، وهذا إنما يجزي في حق المريض، كما قال الإمام أحمد في المريض عليه الحد: «يضرب بعثكال يسقط عنه الحد».

واحتج بما رواه عن أبي أمامة بن سهل عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: «كان بين أبياتنا رويجل ضعيف مخدج، فلم يُرع الحي إلا وهو على أمة من إمائهم يخبث بها، قال: فذكر ذلك سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكان ذلك الرجل مسلماً فقال: اضربوه حده، فقالوا: يا رسول الله: إنه أضعف مما تحسب، لو ضربناه مائة قتلناه، فقال: خذوا له عثكالا فيه مائة شمراخ ثم اضربوه ضربة واحدة، ففعلوا» <sup>(٢)</sup>.

وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق، فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته، وخلاصه من دائه تلتمس له الدواء بما تقدر عليه، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال، أخبرت أيوب ﷺ بذلك فقال: إنه الشيطان، ثم حلف: لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط، فكانت معذورة محسنة في شأنه.

ولم يكن في شرعهم كفارة، فإنه لو كان في شرعهم كفارة لعدل إلى التكفير، ولم يحتج إلى ضربها، فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود، وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خفف عنه بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط، فيضرب بها ضربة واحدة. وامرأة أيوب كانت معذورة لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان وإنما قصدت الإحسان، فلم تكن تستحق العقوبة.

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ٢٢٢)، وأبو داود (١٢/ ١٦٩، ١٧٠) في الحدود، باب: إقامة الحد على المريض. وصححه الألباني، كما في صحيح ابن ماجه (٢/ ٨٥) في الحدود، باب: الكبير والمريض يجب عليه الحد.

فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به وإحسانها إليه، فجمع الله له بين البر في يمينه، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة التي لا تستحق العقوبة.

فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام لنص السنة في شأن الضعيف الذي زنى فلا يتعدى بها عن محلها.

فإن قيل: فقولوا: هذا في نظير ذلك، ممن حلف ليضربن امرأته أو أمته مائة وكانا معذورين، لا ذنب لهما: أنه يبر بجمع ذلك في ضربة بمائة شمراخ.

قيل: قد جعل الله له مخرجاً بالكفارة، ويجب عليه أن يكفر عن يمينه ولا يعصي الله بالبر في يمينه هاهنا، ولا يحل له أن يبر فيها، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة، ولا يحل له أن يضربها لا مفرقاً ولا مجموعاً.

فإن قيل: فإذا كان الضرب واجباً كالحد هل تقولون: ينفعه ذلك؟

قيل: إما أن يكون العذر مرجو الزوال كالحر والبرد الشديد والمرض اليسير، فهذا ينتظر زواله ثم يحد الحد الواجب، كما روى مسلم في صحيحه عن علي عليه السلام: «أن أمةً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم زنت فأمرني أن أجلدها فأتيته، فإذا هي حديثه عهد بنفاس فخشيت إن جلدها أن أقتلها فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقال: «أحسن، اتركها حتى تماثل»<sup>(١)(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ ۖ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٥، ٤٦].

أي: خصصناهم بخصيصة وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سألهم إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث قال: ﴿وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال عليه السلام عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيه عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم، ومتابعتهم وكل من خالفهم فإنه بعيد عن ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم<sup>(١)</sup>.

[و] الأيدي: القوي في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه. وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق، وأكرمهم على الله تعالى<sup>(٢)</sup>. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾.

فهذه الآية يخبر فيها سبحانه عما أخلص له أنبيائه ورسله من اختصاصهم بالآخرة، وفيها قولان:

أحدهما: إن المعنى: نزعنا من قلوبهم حب الدنيا، وذكرها، وإيثارها والعمل بها.

والقول الثاني: إنا أخلصناهم بأفضل ما في الدار الآخرة، واختصناهم به عن العالمين<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧].

أخبر سبحانه أنه أخلصهم، ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله ﷻ اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناء على رسالته، وواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كرامته: فمنهم من اتخذ خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه مكاناً علياً على سائرهم درجات، ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلا من طريقهم، ولا دخولاً إلى جنته إلا خلفهم، ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلا على أيديهم، فهم أقرب الخلق إليه وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه. وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم، وبهم عرف الله، وبهم عُبد وأطيع، وبهم حصلت محابه تعالى في الأرض<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَنْبُوبُ ۖ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [ص: ٥٠، ٥١].

(٢) الجواب الكافي (١٣٤).

(٤) طريق الهجرتين

(١) الجواب الكافي (١١٤).

(٣) طريق الهجرتين (٣١٧).

[انظر] كيف تجد تحته معنى بديعاً وهو: أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم بل تبقى مفتحة كما هي .

وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨]، أي: مطبقة مغلقة ومنه سمي الباب وصيداً، وهي: ﴿مُّوَصَّدَةٌ﴾ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ [الهمزة: ٨، ٩]. قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب.

قال مقاتل: يعني: أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب، ولا يخرج منها غم، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد.

وأيضاً فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وثبوتهم في الجنة حيث شاءوا ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطف من ربهم، ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت.

وأيضاً أشار إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ﴾ (٥٧) ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ (٥٨) ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ (٥٩) ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا فَيْسَ الْقَرَارُ﴾ (٦٠) ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضَعُفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: ٥٧ - ٦١].

فقولهم: لا مرجاً بهم إنهم صالوا النار، أي: داخلوها كما دخلناها، ومقاسون عذابها كما نقاسيه، فأجابهم الأتباع وقالوا: بل أنتم لا مرجاً بكم، أنتم قدمتموه لنا.

وفي الضمير قولان:

أحدهما: إنه ضمير الكفر والتكذيب، ورد قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واستبدال غيره به، والمعنى: أنتم زينت لينا الكفر ودعوتمونا إليه وحسنتموه لنا وقيل على هذا القول: إنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين، والمعنى على هذا: أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل ورد ما جاؤوا به والشرك بالله ﷻ، أي: بدأتهم به وتقدمتمونا إليه فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار، أي: بئس المستقر والمنزل.

(١) حادي الأرواح (٥٤).

والقول الثاني: إن الضمير في قوله: أنتم قدمتموه لنا ضمير العذاب، وصلي النار، والقولان متلازمان وهما حق.

وأما القائلون: ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضَعْفًا فِي النَّارِ﴾ فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم به؛ لأنهم الذين حملوهم عليه ودعوهم إليه. ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد من سن لهم الشرك وتكذيب الرسل صلى الله عليهم وسلم ضعفاً وهم الشياطين<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ﴾ [ص: ٧٥].

فهذا كلام ورد في معرض التوبيخ والتبكيك للعين على امتناعه من السجود، ولم يستحق هذا التبكيك والتوبيخ حيث كان السجود لمن يعقل، ولكن للمعصية والتكبر على ما لم يخلقه إذ لا ينبغي التكبر لمخلوق على مثله، إنما التكبر للخالق وحده فكأنه يقول سبحانه: لم عصيتني وتكبرت على ما لم تخلقه وخلقته أنا وشرفته وأمرتك بالسجود له؟

فهذا موضع «ما» لأن معناها أبلغ ولفظها أعم، وهو في الحجة أوقع، وللعذر والشبهة أقطع، فلو قال: ما منعك أن تسجد لمن خلقت؟ لكان استفهاماً مجرداً من توبيخ وتبكيك ولتوهم أنه وجب السجود له من حيث كان يعقل. ولعله موجود في ذاته وعينه وليس المراد كذلك، وإنما المراد توبيخه وتبكيته على ترك سجوده لما خلق الله وأمره بالسجود له.

ولهذا عدل عن اسم آدم العلم مع كونه أخص وأتى بالاسم الموصول الدال على جهة التشريف المقتضية لإسجاده له كونه خلقه بيديه، وأنت لو وضعت مكان «ما» لفظة «من» لما رأيت هذا المعنى المذكور في الصلة، وأن «ما» جيء بها وصلة إلى ذكر الصلة، فتأمل ذلك. فلا معنى إذاً للتعين بالذكر إذ لو أريد التعين لكان بالاسم العلم أولى وأحرى<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

ومن أقبح الغلط والتلبيس تأويل اليدين بالنعمة، ولا ريب أن العرب تقول: لفلان عندي يد، وقال عروة بن مسعود للصديق: لولا يد لك عندي لم أجرك بها

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (١٧، ١٨). (٢) بدائع الفوائد (١/١٣٢).

لأجبتك<sup>(١)</sup>، ولكن وقوع اليد في هذا التركيب الذي أضاف سبحانه فيه الفعل إلى نفسه ثم تعدي الفعل إلى اليد بالباء التي هي نظير: كتبت بالقلم وهي اليد، وجعل ذلك خاصة خص بها صفيه آدم دون البشر، كما خص المسيح بأنه نفخ فيه من روحه، وخص موسى بأن كلمه بلا واسطة، فهذا مما يحيل تأويل اليد في النص بالنعمة، وإن كانت في تركيب آخر تصلح لذلك فلا يلزم من صلاحية اللفظ لمعنى ما في تركيب صلاحيته له في كل تركيب<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩]. وهذا اعتراف منه بالبعث وإقرار به، وقد علم قسم ربه ليملأن جهنم منه ومن أتباعه، فكان كفره عناد محض لا كفر جهل<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣]. لا يفهم منها إلا أن المخلصين لا يتمكن من إغوائهم<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

(٢) الصواعق المرسله (١/١٩٢، ١٩٣).

(٤) بدائع الفوائد (٣/٥٩).

(١) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٣) مفتاح دار السعادة (٩٨).

## سُورَةُ الزَّمَرِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره؛ فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفى الوصف؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة الله موصوفاً بها، فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبد المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكلية وتبتل إليه بتبلاً، لم يلتفت إلى غيره ولم يشرك به أحداً في عبادته، وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابداً لله ولا عبداً له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل أحد ولا يدركه إلا من منحه الله فهماً من عنده، فله الحمد والمنة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾

[الزمر: ٦].

فإن كل حجاب من هذه الحجب له ظلمة تخصه، فذكر سبحانه أطوار خلقه ونقله فيها من حال إلى حال وذكر ظلمات الحجب التي على الجنين فقال أكثر المفسرين: هي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، فإن كل واحد منها حجاب على الجنين، وقال آخرون: هي ظلمة أصلاب الآباء، وظلمة بطون الأمهات وظلمة المشيمة، وأضعف من هذا القول قول من قال: ظلمة الليل وظلمة البطن وظلمة الرحم، فإن الليل والنهار بالنسبة إلى الجنين سواء<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

قال صاحب الغناء: قد أمر الله رسوله أن يبشر من استمع القول واتبع أحسنه فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. قال: والألف واللام في القول تقتضي العموم والاستغراق، والدليل عليه أنه مدحهم باتباع الحسن من القول، وهذا يعم كل قول فيدخل فيه قول السماع وغيره.

قال صاحب القرآن: قد كان ينبغي لك أن تقرر كلام الله وتجمله أن تنزله على أقوال المغنين والمغنيات وإخوانهم من النائحين والنائحات، وأن يحمل على رقية الزنا ومنبت النفاق وداعي الغي والهوى. فيكفي في فساد القول أنه لم يقله قبلك أحد من أئمة التفسير على اختلاف طبقاتهم.

ويدل على بطلانه وأنه يمتنع أن يراد بكلام من لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وجوه عديدة:

أحدها: أن الله ﷻ لا يأمر بل لا يأذن في استماع كل قول حتى يقال: «اللام للاستغراق والعموم، بل من القول ما يحرم استماعه ومنه ما يكره، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ۖءِآيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]...»

الوجه الثاني: أن المراد بالقول في هذه الآية التي احتججتم بها القرآن، كما جاء ذلك في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١]، فالقول الذي بشر مستمعيه ومتبعي أحسنه هو القول الذي وصله وحض على تدبره. وكلام الله يفسر بعضه بعضاً ويحمل بعضه على بعض.

الوجه الثالث: أن الألف واللام هنا لتعريف العهد وهو القول الذي دعي إليه المخاطب وأمر بتدبره، وأخبر بتوصيله له وهو كالكتاب والقرآن، والألف واللام فيه كالألف واللام في الكتاب سواء وكذلك الألف واللام في الرسول في قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وفي قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وقوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]. فهل يجوز أن يقال: إن اللام في الكتاب والرسول للاستغراق فتحمل على كل كتاب وعلى كل رسول؟

الوجه الرابع: أنها وإن كانت للعموم في قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ﴾، فهي إنما تعم القول الذي أنزل الله ومدحه وأثنى عليه وأمر باتباعه واستماعه وتدبره وفهمه، فهي تقتضي العموم والاستغراق في جميع هذا القول، فإنها تقتضي عموم ما عرفته وقصد بمصحوبها.

الوجه الخامس: أن السياق كله من أول السورة إلى هذه الآية إنما هو في القرآن، قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۝﴾ [الزمر: ١ - ٣]، فذكر في أول السورة كتابه ودينه والكلم الطيب والعمل الصالح، فخير الكلام كتابه وخير العمل إخلاص الدين له، ثم أعاد ذكر الأصلين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ۝﴾ [الزمر: ١٧]، فهذا إخلاص الدين له، ثم قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ۝ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۝﴾، فهذا كتابه فتضمنت ذكر كتابه ودينه كما تضمنت (ذلك) أول السورة، فما لأقوال المغنين والمغنيات هاهنا.

الوجه السادس: أنه سبحانه قال بعد ذلك: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ۝ وَأَنِيبُوا أَحْسَنَ مِمَّا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٥].

فهذا الأحسن الذي أمر باتباعه هنا هو الأحسن الذي بشر من اتبعه في أول السورة وهو أحسن المنزل في الموضوعين، ونظير هذا قوله تعالى لموسى في التوراة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَلْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۝﴾ [الأعراف: ١٤٥].

فهذا كله إذا تدبره المؤمن الناصح لنفسه؛ علم علماً يقينياً أن الكتاب والقول والحديث الذي أمر الله باستماعه وتدبره وفهمه واتباع أحسنه، هو كلامه المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأما مدح الاستماع لكل قول فهذا لا يليق نسبته إلى العقلاء فضلاً عن رب الأرض والسماء يوضحه:

الوجه السابع: وهو أن الله سبحانه في كتابه إنما أثنى على المستمعين للقرآن وحمد هذا السماع وذم المعرضين عنه، وجعلهم أهل الكفر والجهل، الصم البكم الذين لا يعقلون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ

تَرْحَمُونَ ﴿[الأعراف: ٢٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وهذا كثير في القرآن وكتاب الله يبين بعضه بعضاً.

الوجه الثامن: أن المعروف في القرآن إنما هو ذم استماع القول الذي هو الغناء، كما قال تعالى: ﴿أَفَنَ هَذَا الْخَبِيثُ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَا تَكُونُونَ ﴿٦١﴾ سَيِّدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ - ٦١]. قال غير واحد من السلف: هو الغناء، يقال: سمد لنا، أي: غنى لنا.

الوجه التاسع: أنه سبحانه قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨]. فمدحهم باستماع القول واتباع أحسنه، ومن المعلوم أن كثيراً من القول بل أكثره ليس فيه حسن، فضلاً عن أن يكون أحسن بل غالب القول: يكب قائله في النار على منخره.

الوجه العاشر: أنه سبحانه علق الهداية على اتباع أحسن هذا القول، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، ومن المعلوم بالاضطرار أن الهداية إنما حصلت لمن اتبع القرآن، فهو الذي هداه الله فأين الهدي في أقوال المغنين والمغنيات؟

وبالجملة ففساد هذا القول، الذي حملتم عليه كتاب الله وألصقتموه به وهو منه بريء وحملتكموه إياه وليس خليقاً بحمله معلوم لكل من في قلبه حياة ونور، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو الملكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له، فهل يصح في العقول استواء حال العبيدين؟ فكذاك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلهه الحق، لا يستويان<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) السماع (٢٣٤ - ٢٤٦).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٤٠).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

قال أبو عبد الله بن منده: حدثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن حسين الحراني، حدثنا جدي أحمد بن شعيب، حدثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال: «بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها»<sup>(١)</sup>. وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا الحسين حدثنا عامر، حدثنا أسباط عن السدي، وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ قال: يتوفاها في منامها فيلتقي روح الحي وروح الميت فيتذكران ويتعارفان قال: فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها».

وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس.

وهذا أحد القولين في الآية، وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولاً والمرسلة من توفيت وفاة النوم.

والمعنى على هذا القول: أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى.

والقول الثاني في الآية: أن الممسكة والمرسلة في الآية كلاهما توفى وفاة النوم، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمل.

واختار شيخ الإسلام هذا القول وقال: عليه يدل القرآن والسنة، قال: فإنه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاه وفاة النوم، وأما التي توفاه حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال بل هي قسم ثالث. والذي يترجح هو القول الأول؛ لأنه سبحانه أخبر بوفاتين، وفاة كبرى وهي وفاة الموت، ووفاة صغرى وهي وفاة النوم، وقسم الأرواح قسمين؛ قسماً قضى عليها

(١) رواه الطبري عن سعيد بن جبير (٩/٢٤).

بالموت فأمسكها عنده وهي التي توفاهها وفاة الموت، وقسماً لها بقية أجل فردها إلى جسدها إلى استكمال أجلها، وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولاً، فهذه ممسكة وهذه مرسله، وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاهها في منامها، فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين: وفاة موت ووفاة نوم، لم يقل: ﴿وَأَلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾، فإنها من حين قبضت ماتت وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك: ﴿فَيَمْسِكُ إِلَيَّ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾؟ ولمن نصر هذا القول أن يقول قوله تعالى: ﴿فَيَمْسِكُ إِلَيَّ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾، بعد أن توفاهها وفاة الموت فهو سبحانه توفاهها أولاً وفاة نوم ثم قضى عليها الموت بعد ذلك.

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين، فإنه سبحانه ذكر وفاتين؛ وفاة نوم ووفاة موت، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى، ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات في النوم أو في اليقظة ويرسل نفس من لم يموت، فقوله: ﴿يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

أخبر أن الشفاعة لمن له ملك السماوات والأرض وهو الله وحده، فهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده.

وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه بقوله: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْتَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِيعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ

يَقُولُونَ ﴿الْأَنْعَامُ: ٥١﴾، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيع من دونه، بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه كما قال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]. وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ولا الشافع شفيع من دونه بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور، فالشفاعة التي أبطلها الله: شفاعة الشريك، فإنه لا شريك له، والتي أثبتها شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكة حتى يأذن له ويقول: اشفع في فلان، ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوا التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه وهم الذين ارتضى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضا قول المشفوع له وإذنه للشافع فيه، فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله فلا يأذن للمشفعاء أن يشفعوا فيه، فإنه سبحانه علقها بأمرين: رضا عن المشفوع له وإذنه للشافع فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة.

وسر ذلك: أن الأمر كله لله وحده فليس لأحد معه من الأمر شيء وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول ولا يتقدمون بين يديه ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم وأمرهم ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، فهم مملوكون مربوبون أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه.

فإذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظناً منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه، فإن هذا محال ممتنع شبيه بقياس الرب تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج.

وبهذا القياس الفاسد عبت الأصنام واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي، والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق والرب والمربوب والسيد والعبد والمالك والمملوك والغني والفقير، والذي لا حاجة به إلى أحد قط والمحتاج من كل وجه إلى غيره.

فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم، فإن قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم، ولولاهم لما انبسط أيديهم وألستهم في الناس، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع، لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فنتنقض طاعتهم ويذهبون إلى غيرهم فلا يجدون بداً من قبول شفاعتهم على الكره والرضى.

فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وكل من في السماوات والأرض عبيد له مقهورون بقهره مصرفون بمشيئته لو أهلكهم جميعاً لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأَمْكُمُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]. وقال سبحانه في سيدة آي القرآن آية الكرسي: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤].

فأخبر أن حال ملكه للسماوات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه فإنه ليس بشريك، بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض.

فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشريكية التي يعرفها الناس ويفعلها بعضهم مع بعض، ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه، فإنه الذي أذن والذي قبل والذي رضي عن المشفوع، والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة، وقوله: فمتخذ الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده ومحبوه ومرجوه ومخوفه

الذي يتقرب إليه وحده، ويطلب رضاه ويتباعد من سخطه، هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه، قال تعالى: ﴿أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾<sup>(١)</sup>

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نَحْنُ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].  
وقال البغوي<sup>(٢)</sup>: على علم من الله أنني له أهل.

وقال مقاتل: على خير علمه الله عندي.

وقال آخرون: على علم من الله أنني له أهل. ومضمون هذا القول أن الله أتانيه على علمه بأني أهله.

وقال آخرون: بل العلم له نفسه ومعناه أوتيته على علم مني بوجوه المكاسب. قاله قتادة وغيره.

وقيل: المعنى: قد علمت أنني لما أوتيت هذا في الدنيا فلي عند الله منزلة وشرف. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: النعم التي أوتيتها فتنة نختبره فيها ومحنة نمتحنه بها لا يدل على اصطفاؤه واجتباؤه، وأنه محبوب لنا مقرب عندنا<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، هي في حق التائب؛ لأنه أطلق وعمم فلم يخصها بأحد ولم يقيد بها بذنب، ومن المعلوم بالضرورة أن الكفر لا يغفره، وكثير من الذنوب لا يغفرها.

فعلم أن هذا الإطلاق والتعميم في حق التائب فكل من تاب من أي ذنب كان؛ غفر له<sup>(٤)</sup>.

(٢) تفسير البغوي (٧/٧٩).

(١) إغاثة اللهفان (١/٢٢٠ - ٢٢٢).

(٤) مدارج السالكين (١/٣٢٦).

(٣) شفاء العليل (٣٧).

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، ولكن هذا في حق التائبين خاصة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤].

الإنبابة: إنباتان: إنبابة لربوبيته، وهي إنبابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٣]، فهذا عام في حق كل داع أصابه ضرر، كما هو الواقع.

وهذه الإنبابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ [الروم: ٣٣ - ٣٤]، فهذا حالهم بعد الإنبابة.

والإنبابة الثانية: إنبابة أوليائه، وهي إنبابة لإلهيته، إنبابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصاً بذاته وصفاته، فإنه الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق له واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخله في مسمى اسمه فإن الله سبحانه اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال المنزه عن كل صفة نقص ومثال.

والعالم قسمان: أعيان وأفعال، وهو الخالق لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك فلا يخرج شيء منه عن علمه ولا عن قدرته ولا عن خلقه ومشيئته<sup>(٣)</sup>.

(١) الجواب الكافي (٢٥٠). (٢) مدارج السالكين (١/٤٣١).

(٣) قال ابن القيم: قالت القدريّة: نحن نقول: إن الله خالق أفعال العباد لا على أنه محدثها ومخترعها لكن على معنى: أنه مقدرها فإن الخلق التقدير، كما قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. وقال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري =

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾

[الزمر: ٦٧].

وهذا الذي وصف به نفسه هاهنا يتضمن من اقتداره على تغيير العالم وتبديله ما

= أي: لأنت تمضي ما قدرته وتنفذه بعزمك وقدرتك وبعض القوم يقدر ثم لا قوة له ولا عزيمة على إنفاذ ما قدره وإمضائه، فالله تعالى مقدر أفعال العباد وهم الذين أوجدوها وأحدثوها.

قال أهل السنة: قدماؤكم ينكرون تقدير الله سبحانه لأعمال العباد البتة فلا يمكنهم أن يجيبوا بذلك، ومن اعترف منكم بالتقدير فهو تقدير لا يرجع إلى تأثير، وإنما هو مجرد العلم بها والخبر عنها وليس التقدير عندهم جعلها على قدر كذا وكذا، فإن هذا عندهم غير مقدور للرب ولا مصنوع له، وإنما هو صنع العبد وإحداثه فرجع التقدير إلى مجرد العلم والخبر وهذا لا يسمى خلقاً في لغة أمة من الأمم، ولو كان هذا خلقاً لكان من علم شيئاً وعلم أسمائه وصفاته وأخبر عنه بذلك خالقاً له، فالتقدير الذي أثبتموه إن كان متضمناً للتأثير في إيجاد الفعل فهو خلاف مذهبكم، وإن لم يتضمن تأثيراً في إيجادها فهو راجع إلى محض العلم والخبر.

قالت القدرية: قوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من العام المراد به الخاص، ولا سيما فإنكم قلتم: إن القرآن لم يدخل في هذا العموم وهو من أعظم الأشياء وأجلها، فخصصنا منه أفعال العباد بالأدلة الدالة على كونها فعلهم ومنعهم.

قالت أهل السنة: القرآن كلام الله سبحانه وكلامه صفة من صفاته وصفات الخالق وذاته لم تدخل في المخلوق فإن الخالق غير المخلوق، فليس هاهنا تخصيص البتة بل الله سبحانه بذاته وصفاته الخالق وكل ما عده مخلوق وذلك عموم لا تخصيص فيه بوجه، إذ ليس إلا الخالق والمخلوق، والله وحده الخالق وما سواه كله مخلوق. وأما الأدلة الدالة على أن أفعال العباد صنع لهم وإنما أفعالهم القائمة بهم وأنهم هم الذين فعلوها فكلها حق نقول بموجبها، ولكن لا ينبغي أن تكون أفعالاً لهم ومخلوقة مفعولاً لله فإن الفعل غير المفعول، ولا نقول: إنها فعل الله والعبد مضطر مجبور عليها، ولا نقول: إنها فعل للعبد والله غير قادر عليها ولا جاعل للعبد فاعلاً لها، ولا نقول: إنها مخلوقة بين مخلوقين مستقلين بالإيجاد والتأثير، وهذه الأقوال كلها باطلة.

قالت القدرية: يعني: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مما لا يقدر عليه غيره، وأما أفعال العباد التي يقدر عليها العباد فإضافتها إليهم ينفي إضافتها إليه، وإلا لزم وقوع مفعولين بين فاعلين وهو محال.

قالت أهل السنة: إضافتها إليهم فعلاً وكسباً لا ينفي إضافتها إليه سبحانه خلقاً ومشئته، فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة، فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقها لاستحال وقوعها منهم، إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا ما لم يشأ الله ولم يقدر عليه ولا خلقه [شفاء العليل (٥٣ - ٥٤)].

يبطل قول أعدائه الملاحدة المكذبين بالمبدأ والمعاد، أئمة هؤلاء المعارضين للوحي بالعقل والرأي<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السماوات ومن في الأرض من هذا الصعق، فقيل: هم الشهداء، هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبيرة. وقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وهذا قول مقاتل وغيره. وقيل: هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها.

قاله أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا، وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور، وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى، فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان.

أما قول أهل النار: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، فتفسير هذه الآية [الآية] التي في البقرة وهي قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. فكانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور، وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات، وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها.

ففي الحديث الصحيح: «أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى أخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور»<sup>(٢)</sup>. فهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره فحينئذ تصعق الخلائق كلهم قال تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥]، ولو كان هذا الصعق موتاً لكانت موتة أخرى.

(١) الصواعق المرسله (٤/١٣٦٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (٣/٣٣)، رواه البخاري (٢٤١١، ٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٣، ٢٣٧٤).

وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء، فقال أبو عبد الله القرطبي: ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشي تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور.

قال: وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو: ظاهر حديث النبي ﷺ يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق، ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء، وهذا باطل.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السماوات والأرض قال: فتستقل الأحاديث والآثار.

ورد عليه أبو العباس القرطبي فقال: يرد هذا قوله في الحديث الصحيح أنه حين يخرج من قبره يلقي موسى آخذاً بقائمة العرش، قال: وهذا إنما عند نفخة الفزع. قال أبو عبد الله: وقال شيخنا أحمد بن عمرو: الذي يزيح هذا الإشكال - إن شاء الله تعالى - أن الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين وهذه صفة الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبي ﷺ: «أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء»<sup>(١)</sup>، وأنه ﷺ: «اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء وخصوصاً بموسى».

وقد أخبر أنه: «ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام»<sup>(٢)</sup>، إلى غير ذلك مما يحصل من جملة القطع بأن موت الأنبياء إنما هو

(١) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٨/٤)، وأبو داود (٣/٣٧٠، ٣٧١) في الصلاة، تفريع أبواب الجمعة، باب: فضل يوم الجمعة وليلتها، والنسائي (٩١/٣، ٩٢) في الجمعة، باب: إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، وابن ماجه (١٧٨/١) صحيح ابن ماجه في الصلاة، باب: فضل الجمعة، كلهم من حديث أوس بن أوس ؓ، وصححه الألباني، كما في فضل الصلاة، برقم (٢٢/٢٣) والإرواء (١/٣٤).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥٢٧/٢)، وأبو داود (٣١/٦) في المناسك، باب: زيارة القبور.

قال النووي في رياض الصالحين: «إسناده صحيح» رقم (١٤٠٩). وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٣٣٨/٥) برقم (٢٢٦٦).

راجع إلى أن غيَّبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا تراهم، وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فأما صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق، ولذلك قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «فأكون أول من يفيق»، فنبينا ﷺ أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى فإنه حصل فيه تردد، هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً؛ لأنه حوسب بصعقة يوم الطور وهذه فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقاً؛ لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمراً كلياً. انتهى.

قال أبو عبد الله القرطبي: إن حُمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال، وإن حُمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله، فالمعنى: إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور.

قلت: وحمل الحديث على هذا لا يصح؛ لأنه ﷺ تردد، هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزي بصعقة الطور، فالمعنى: لا أدري أصعق أم لم يصعق، وقد قال في الحديث: فأكون أول من يفيق، وهذا يدل على أنه ﷺ يصعق فيمن يصعق، وأنَّ التردد حصل في موسى، هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق، ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لكان ﷺ قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يموت، وهذا باطل لوجوه كثيرة، فعلم أنها صعقة فرع لا صعقة موت.

وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى، نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ، وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت مودة ثانية، والله أعلم.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله في الحديث: «إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عليه الأرض فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش».

قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا والحديثان هكذا:

أحدهما: «إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق».

والثاني: هكذا: «أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة». ففي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ويبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح<sup>(١)</sup>.

فدخل على الراوي هذا الحديث في الحديث الآخر، وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ<sup>(٢)</sup> يقول ذلك، (فإن قيل): فما تصنعون بقوله: «فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ»، والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقة لا من صعقة يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة قيل: هذا - والله أعلم - غير محفوظ وهو وهم من بعض الرواة<sup>(٣)</sup>، والمحفوظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله: «فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور»، فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هي صعقة النفخة وأن موسى داخل فيمن استثنى منها، وهذا لا يلتزم على مساق الحديث قطعاً، فإن الإفاقة حيثئذ هي إفاقة البعث، فكيف يقول: لا أدري أبعث قبلي أم جوزي بصعقة الطور.

فتأمل، وهذا بخلاف الصعقة التي يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتجلي لهم فإنهم يصعقون جميعاً، وأما موسى ﷺ فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلي ربه للجبل فجعله دكاً فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً من صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة. فتأمل هذا المعنى العظيم ولو لم يكن في الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه

(١) رواه الترمذي (٥٤٨/٥) في المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ، وابن ماجه (٤٣٠/٢) صحيح ابن ماجه للالباني في الزهد، باب: ذكر الشفاعة. وانظر: الصحيحة حديث رقم (١٥٧٢).

(٢) ما نقله ابن القيم عن المزي - رحمهما الله تعالى - ذكره ابن حجر في فتح الباري دون تعليق (٥١٢/٦) في أحاديث الأنبياء، في ذكر موسى ﷺ.

(٣) انظر: فتح الباري (٥١٣/٦)، وفيه بحث نفيس لابن حجر رحمه الله تعالى.

لكان حقيقةً أن يعرض عليه بالنواجذ، والله الحمد والمنة وبه التوفيق<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده وأشرفت بنوره الأرض وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر، فإن الشمس تكور والقمر يخسف ويذهب نورهما وحجابه تبارك وتعالى النور. قال أبو موسى: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»<sup>(٢)</sup>، ثم قرأ: ﴿أَنْ بُرِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]. فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

[وسرّ حذف الواو في قوله : ﴿فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أنه] فاجأهم وبغتهم عذابها وما أعد الله فيها، فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدري بما يفتح له من أنواع الشر، إلا أنه متوقع منه شرّاً عظيماً ففتح في وجهه وفاجأه ما كان يتوقعه.

وهذا كما تجد في الدنيا من يساق إلى السجن فإنه يساق إليه وبابه مغلق حتى إذا جاءه فتح الباب في وجهه ففاجأته روعته وألمه بخلاف ما لو فتح له قبل مجيئه.

وهذا بخلاف أهل الجنة فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة، وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار فيجيء فيلقاه مفتوحاً فلا يلحقه ألم الانتظار، فقال في أهل الجنة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، وحذف الجواب تفخيماً لأمره وتعظيماً لشأنه على عاداتهم في حذف الجوابات لهذا المقصد، وهذه الطريقة تريحك من دعوى زيادة الواو، ومن دعوى كونها واو الثمانية؛ لأن أبواب الجنة ثمانية، فإن هذا لو صح فإنما يكون إذا كانت الثمانية منسوقة في اللفظ واحداً

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

(١) الروح لابن القيم (٣٥ - ٣٧).

(٣) الوابل الصيب (٧٣، ٧٤).

بعد واحد فينتهون إلى السبعة ثم يستأنفون العدد من الثمانية بالواو، وهنا لا ذكر للفظ الثمانية في الآية ولا عدها، فتأمل.

فإن قيل: فهذا ينتقض عليكم بأن سيد الخلائق ﷺ: «يأتي باب الجنة فيلقاه مغلقاً حتى يستفتح»، قلنا: هذا من تمام إظهار شرفه وفضله على الخلائق أن الجنة تكون مغلقة فلا تفتح لأهلها إلا على يديه، فلو جاءها وصادفها مفتوحة فدخلها هو وأهلها لم يعلم الداخلون أن فتحها كان على يديه، وأنه هو الذي استفتحها لهم. ألا ترى أن الخلق إذا راموا دخول باب مدينة أو حصن وعجزوا ولم يمكنهم فتحه، حتى جاء رجل ففتح لهم أحوج ما كانوا إلى فتحه كان في ذلك من ظهور سيادته عليهم وفضله وشرفه ما لا يعلم لو جاء هو وهم فوجدوه مفتوحاً<sup>(١)</sup>؟

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].  
وكلمته سبحانه إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم، فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].  
وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمرًا من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة، كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرة مع جماعتهم مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً ويفرح بعضهم ببعض. وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمرًا يلعن بعضهم بعضاً ويتأذى بعضهم ببعض، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهيبة من أن يساقوا واحداً واحداً فلا تهمل تدبر قوله: زمرًا.  
وقال خزنة الجنة لأهلها: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فبدأوهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه، أي: سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم قالوا لهم: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، أي: سلامتكم وداخلوها بطيبكم، فإن الله حرمها إلا على الطيبين، فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود.

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٤، ١٧٥). (٢) مدارج السالكين (١/ ٢١٩).

وأما أهل النار فإنهم لما انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن، وفتحت لهم أبوابها وقفوا عليها وزيدوا على ما هم عليه من تويخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الزمر: ٧١].

فاعترفوا وقالوا: بلى فبشروهم بدخولها والخلود فيها وأنها بئس المثلوى لهم. وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها: ادخلوها، وقول خزنة النار لأهلها: ادخلوا أبواب جهنم، تجد تحته سرّاً لطيفاً ومعنى بديعاً لا يخفى على المتأمل وهو: أنها لما كانت دار العقوبة وأبوابها أظطع شيء وأشد حراً وأعظمه غماً يستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشد منها، ويدنو من الغم والحزن والكرب بدخول الأبواب، فقل: ادخلوا أبوابها صغاراً لهم وإذلالاً وخزياً، ثم قيل لهم: لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ولكن وراءها الخلود في النار. وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأولياؤه، فبشروا من أول وهلة والدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيزِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

فحذف فاعل القول؛ لأنه غير معين، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذي حكم فيه، فيحمده أهل السماوات وأهل الأرض والأبرار والفجار والإنس والجن حتى أهل النار، قال الحسن أو غيره: «لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً».

وهذا - والله أعلم - هو السر الذي حذف لأجله الفاعل في قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الزمر: ٧٢]، وقوله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠]. كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم، والله تعالى أعلم بالصواب<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

## سُورَةُ غَافِرٍ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حَمَّ﴾ ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ١ - ٣].

فأتى بالواو في الوصفين الأولين وحذفها في الوصفين الأخيرين؛ لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما، فمن غفر الذنب قبل التوب فكان في عطف أحدهما على الآخر ما يدل على أنهما صفتان وفعالان متغايران ومفهومان مختلفان لكل منهما حكمه.

أحدهما: يتعلق بالإساءة والإعراض وهو المغفرة.

والثاني: يتعلق بالإحسان والإقبال على الله والرجوع إليه وهو التوبة، فتقبل هذه الحسنة وتغفر تلك السيئة.

وَحَسَّنَ العطف هاهنا هذا التغاير الظاهر، وكلما كان التغاير أبين كان العطف أحسن؛ ولهذا جاء العطف في قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]. وترك في قوله: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقوله: ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]. وأما ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ فترك العطف بينهما لنكتة بديعة وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه، وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، وطوله لا ينافي شدة عقابه بل هما مجتمعان له، بخلاف الأول والآخر فإن الأولية لا تجامع الآخرية ولهذا فسرهما النبي ﷺ بقوله: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»<sup>(١)</sup>، فأوليته أزليته وآخرته أبدية<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

تأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفتي «رحمة» قبله وصفة «رحمة» بعده. فقبله ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، وبعده ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾، ففي هذا تصديق الحديث الصحيح وشاهد له وهو قوله ﷺ: «إن الله كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»<sup>(١)</sup>، وفي لفظ: «سبقت غضبي»<sup>(٢)</sup>، وقد سبقت صفتا الرحمة هنا وغلبت.

وتأمل كيف افتتح الآية بقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾، والتنزيل يستلزم علو المنزل من عنده لا تعقل العرب من لغتها بل ولا غيرها من الأمم السليمة الفطرة إلا ذلك. وقد أخبر أن تنزيل الكتاب منه. فهذا يدل على شيئين: أحدهما: علوه تعالى على خلقه.

والثاني: أنه هو المتكلم بالكتاب المنزل من عنده لا غيره، فإنه أخبر أنه منه، وهذا يقتضي أن يكون منه قولاً كما أنه منه تنزيلاً، فإن غيره لو كان هو المتكلم به لكان الكتاب من ذلك الغير، فإن الكلام إنما يضاف إلى المتكلم به، ومثل هذا: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]، ومنه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، ومثله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حِكْمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، فاستمسك بحرف ﴿مِّنْ﴾ في هذه المواضع؛ فإنه يقطع حجج شعب المعتزلة والجهمية. وتأمل كيف قال: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ﴾ [فصلت: ٢] ولم يقل تنزيله فتضمنت الآية إثبات علوه وكلامه وثبوت الرسالة.

ثم قال: ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ فتضمن هذان الاسمان صفتي القدرة والعلم وخلق أعمال العباد وحدوث كل ما سوى الله؛ لأن القدرة هي قدرة الله كما قال «أحمد بن حنبل»، فتضمنت إثبات القدر؛ ولأن عزته تمنع أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه، أو أن يشاء ما لا يكون، فكأن عزته تبطل ذلك، وكذلك كمال قدرته توجب أن يكون خالق كل شيء وذلك ينفي أن يكون في العالم شيء قديم لا يتعلق به خلقه؛ لأن كمال قدرته وعزته يبطل ذلك.

ثم قال: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ والذنوب مخالفة شرعه وأمره، فتضمن هذان الاسمان إثبات شرعه وإحسانه وفضله.

(١) رواه البخاري في التوحيد (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٢).

ثم قال: ﴿شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾ وهذا جزاؤه للمذنبين، و﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ جزاؤه للمحسنين فتضمنت الثواب والعقاب.

ثم قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ الْمَصِيرُ﴾ فتضمن ذلك التوحيد والمعاد. فتضمنت الآيتان إثبات صفة العلو والكلام والقدرة والعلم والقدر وحدوث العالم والثواب والعقاب والتوحيد والمعاد.

وتنزيل الكتاب منه على لسان رسوله يتضمن الرسالة والنبوة. فهذه عشر قواعد الإسلام والإيمان تجلى على سمعك في هذه الآية العظيمة ولكن حور تترف إلى ضربير مقعد، فهل خطر ببالك قط أن هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءتك لها وسماعك إياها؟ وهكذا سائر آيات القرآن فما أشدها من حسرة وأعظمها من غبنة على من أفنى أوقاته في طلب العلم ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن ولا باشر قلبه أسرارهِ ومعانيهِ، فالله المستعان<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم. فمن الأول: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

ومن الثاني: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢]. فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم، وحملة العرش أربعة؛ اثنان يقولان: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»<sup>(٢)</sup>.

فاقتران العفو بالقدرة كافتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحمد والرحمة إنما يحسنان مع العلم وقدم الرحيم في هذا الموضع؛ لتقدم صفة العلم فحسن ذكر الرحيم بعده؛ ليقترن به فيطابق قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة؛ لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدماً على جلب الخير قدم

(١) بدائع الفوائد (١/١٩١ - ١٩٤).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/٢٧٤) عن هارون بن رثاب بلفظ: «حملة العرش ثمانية...»، وقال: أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان، وذكره ابن كثير (٧٨/٤) عن تفسير الآية عن شهر بن حوشب.

اسم الغفور على الرحيم حيث وقع. ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم؛ لأجل ما قبله قدم على الغفور<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها، فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء، وإن كان قوله: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ. فإن قيل: فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة، فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها: الأعمال السيئة، ويكون الذي سألوه الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي ﷺ<sup>(٢)</sup>.

ولا يرد على هذا قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم وهي سيئات في نفسها.

وقيل: وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة فلا يعاقب عليها.

فتضمنت الآية سؤال الأمرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية.

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله تعالى بسعة علمه وسعة رحمته.

فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم وما زين لهم من الدنيا وزينتها، وعلمه بهم، إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم، وعلمه السابق بأنهم لا بد أن يعصوه وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه.

(١) بدائع الفوائد (١/ ٨٠).

(٢) في خطبة الحاجة من قوله: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا»، رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء.

ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر وترك ما يكره، فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل التي يحبها، ثم سألوه أن يقيم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها. وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب من جملتها: دعاء ملائكته لهم أن يدخلهم إياها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها.

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أي: مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك، فإن العزة كمال القدرة والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي ﷻ ما شاء، ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن، ولهذا من فقد هذه الروح، فقد فَقَدَ الحياة النافعة في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك.

وأما في الآخرة: فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُينَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧].

قرأ أهل الكوفة: [وَصَدَّ] على البناء للمفعول حملاً على زين، وقرأ الباقون: (وَصَدَّ) بفتح الصاد ويحتمل وجهين: أحدهما: أعرض فيكون لازماً.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٥٨).

(١) الجواب الكافي (١٦٩ - ١٧١).

والثاني: يكون صد غيره فيكون متعدياً والقراءتان كالأيتين لا يتناقضان<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك؛ لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعاً له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه وجرهم فاتبعوه، ولهذا يكون يوم القيامة أمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم وصدهم عن سبيل الله وعقوبتهم من آمن بالله، فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم، ولهذا كان في كتاب النبي ﷺ له رقل: «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسين»<sup>(٢)</sup>.

والصحيح في اللفظ أنهم الأتباع؛ ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذاباً وهو أول من يكسى حلة من النار؛ لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عصي الله إلا على يديه وبسببه، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعائه.

ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر، كما أن الإيمان يتفاوت فإيمان أفضل من إيمان، فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة، بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد بل النار دركات كما أن الجنة درجات، ولا يظلم الله من خلقه أحداً وهو الغني الحميد<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

[أما القول]: إن المراد به كبر القدر والشرف لا كبر الجثة، ففي غاية الفساد، فإن المراد من الخلق هاهنا الفعل لا نفس المفعول، وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد، أي: أن الذي خلق السماوات والأرض وخلقها أكبر من خلقكم كيف يعجزه خلقكم بعدما تموتون خلقاً جديداً؟

ونظير هذا في قوله في سورة يس: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ

(٢) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(١) شفاء العليل (٩٦).

(٣) طريق الهجرتين (٣٨٠، ٣٨١).

أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴿٨١﴾ [يس: ٨١]. أي: مثل هؤلاء المنكرين، فهذا استدلال بشمول القدرة للنوعين وأنها صالحة لهما فلا يجوز أن يثبت تعلقها بأحد المقدورين دون الآخر، فكذلك قوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، أي: من لم تعجز قدرته عن خلق العالم العلوي والسفلي كيف يعجز عن خلق الناس خلقاً جديداً بعدما أماتهم<sup>(١)</sup>.



## سُورَةُ فَصَّلَتْ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۖ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي - وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة - فإنه إنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعاً، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح: هو التوحيد.

والتزكية: جعل الشيء زكياً إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه كما يقال: عدلته وفسقته إذا جعلته كذلك في الخارج وفي الاعتقاد والخبر<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

فهي أربعة باليومين الأولين، ولولا ذلك لكانت أيام التخليق ثمانية، ونظيره: قوله ﷺ: «من صلى على جنازة فله قيراط ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان». سئل أبو نصر بن الصباغ عن القيراطين: هل هما غير الأول، أو به، فقال: بل القيراطان: الأول وآخر معه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَإَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

لا ريب أن الأيام التي أوقع الله سبحانه فيها العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أياماً نحسات عليهم؛ لأن النحس أصابهم فيها، وإن كانت أيام خير لأوليائه

(٢) بدائع الفوائد (٣/١٣٧).

(١) إغائة اللهفان (٤٩).

المؤمنين، فهي نحس على المكذبين سعد للمؤمنين، وهذا كيوم القيامة فإنه عسير على الكافرين يوم نحس لهم يسير على المؤمنين يوم سعد لهم.  
قال مجاهد: أيام نحسات مشائيم.

وقال الضحاك: معناه: شديد، أي: شديد البرد حتى كان البرد عذاباً لهم.  
وقال ابن عباس: نحسات: متتابعات، وكذلك قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْكُمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]. وكان اليوم نحساً عليهم لإرسال العذاب عليهم، أي: لا يقلع عنهم كما تقلع مصائب الدنيا عن أهلها بل هذا النحس دائم على هؤلاء المكذبين للرسول. ومستمر: صفة للنحس لا لليوم، ومن ظن أنه صفة اليوم وأنه كان يوم أربعاء آخر الشهر وأن هذا اليوم نحس<sup>(١)</sup> أبداً، فقد غلط وأخطأ فهم القرآن، فإن اليوم المذكور بحسب ما يقع فيه، وكم لله من نعمة على أوليائه في هذا اليوم وإن كان له فيه بلايا ونقم على أعدائه، كما يقع ذلك في غيره من الأيام.  
فسعود الأيام ونحوسها إنما هو بسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب، ونحوس الأعمال مخالفتها لما جاءت به الرسل. واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة ونحس لطائفة كما كان يوم بدر يوم سعد للمؤمنين ويوم نحس على الكافرين.  
فما للكوكب والطالع والقرانات وهذا السعد والنحس، وكيف يستنبط علم أحكام النجوم من ذلك؟ ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطالع لكان نحساً على العالم، فأما أن يقتضي الكوكب نحساً لطائفة سعداً لطائفة فهذا هو المحال<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].  
يعني: بينا لهم ودللناهم وعرفناهم، فأثروا الضلالة والعمى، فهذه هداية البيان

(١) رحم الله تعالى هذا الإمام النابه الحكيم، فهذا من أفسد الأخلاق الماثلة بين الناس ممن يدعون - للأسف - الحضارة والمدنية شرقاً وغرباً، ولا يتحرك أحدهم إلا بعد النظر في برجه وقراءة ما اطلع عليه منجمه - زعم - من غيب، وما هذا إلا نوع من عبادة الشياطين واتباع الضالين والزنادقة الملحدين، عن دين الله يصدون، وللشرك يدفعون، وأتباعهم في غفلة ساهون سكارى حائرون، فهذا ديننا يعلمنا حسن التوكل مع الحكمة في الأخذ بالأسباب، ويحرم على المسلم الانصراف إلى هذه الضلالات، فلا فال إلا فال الله، ولا طير إلا طيره، ولا إله غيره. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٢) مفتاح دار السعادة (٥٣٧).

والدلالة، التي أقام بها حجته على عباده، وهذه لا تستلزم الاهتداء التام<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[فصلت: ٢٣].

فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون، كان هذا إساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق.

فيا لله، ما ظن أصحاب الكبائر الظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم؟! ومن تأمل هذا الموضوع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعمال ويشبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حمّله على العمل حسن الظن.. وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز. كما في الترمذي من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»<sup>(٢)</sup>. وبالجمله: فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

وأما استعتب فللطلب، أي: طلب الإعتاب، فهو لطلب مصدر الرباعي الذي هو أعتب، أي: أزال عتبه لا طلب الثلاثي الذي هو العتب.

أي: وإن يطلبوا إعتابنا وإزالة عتبنا عليهم، ويقال: عتب عليه إذا عرض عنه وغضب عليه، ثم يقال: استعتب السيد عبده، أي: طلب منه أن يزيل عتب نفسه عنه بعوده إلى رضاه، فأعتبه عبده، أي: أزال عتبه بطاعته، ويقال: استعتب العبد سيده أي: طلب منه أن يزيل غضبه وعتبه عنه، فأعتبه سيده، أي: فأزال عتب نفسه عنه.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي: وإن يطلبوا إعتابنا وهو إزالة عتبنا عنهم فما هم من المزال عتبهم؛ لأن الآخرة لا تقال فيها عثراتهم ولا يقبل فيها توبتهم، وقوله: ﴿لَا يُؤْذُنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩).

(١) مفتاح دار السعادة (١/٤٨٤).

(٣) الجواب الكافي (٢٧).

[النحل: ٨٤] أي: لا يطلب منهم إعتابنا، وإعتابه تعالى إزالة عتبه بالتوبة والعمل الصالح، فلا يطلب منهم يوم القيامة أن يعتبوا ربهم فيزيلوا عتبه بطاعته واتباع رسله. وكذلك قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧]. وقول النبي ﷺ في دعاء الطائف: «لك العتبي»<sup>(١)</sup>، هو اسم من الإعتاب لا من العتب، أي: أنت المطلوب إعتابه ولك عليّ أن أعتبك وأرضيك بطاعتك فافعل ما ترضى به عني، وما يزول به عتبك عليّ. فالعتب منه على عبده والعتبي والإعتاب له من عبده فهذا هنا أربعة أمور:

[الأول:]: العتب: وهو من الله تعالى، فإن العبد لا يعتب على ربه فإنه المحسن العادل فلا يتصور أن يعتب عليه عبده إلا والعبد ظالم، ومن ظن من المفسرين خلاف ذلك فقد غلط أقبح غلط.

الثاني: الإعتاب وهو من الله ومن العبد باعتبارين، فإعتاب الله عبده إزالة عتب نفسه عن عبده، وإعتاب العبد ربه إزالة عتب الله عليه والعبد لا قدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي تزول بها عتب الله عليه.

الثالث: الاستعتاب وهو من الله أيضاً ومن العبد بالاعتبارين، فالله يستعتب عباده أي: يطلب منهم أن يعتبوه ويزيلوا عتبه عليهم ومنه قول ابن مسعود وقد وقعت الزلزلة بالكوفة: «إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه»، والعبد يستعتب ربه، أي: يطلب منه إزالة عتبه.

الرابع: العتبي: وهي اسم الإعتاب.

فاشدد يدك بهذا الفصل الذي يعصمك من تخييط كثير من المفسرين لهذه المواضع، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإما محسن فلعله أن يزداد وإما مسيء فلعله أن يستعتب»<sup>(٢)</sup>، أي: يطلب من ربه إعتاباً إياه بتوفيقه للتوبة وقبولها منه فيزول عتبه عليه.

والاستعتاب: نظير الاسترضاء وهو طلب الرضى، وفي الأثر: إن العبد ليسترضي ربه فيرضى عنه، وإن الله ليسترضي فيرضى. لكن الاسترضاء فوق

(١) رواه ابن إسحاق دون سند (٢٩/٢). وقال الهيثمي: «رواه الطبراني... عن عبد الله بن جعفر... وفيه من لم أعرفه»، مجمع الزوائد (٣٥/٦)، وضعفه الألباني، كما في «دفاع عن الحديث النبوي»، ص (١٩)، وتعليقه على «فقه السيرة»، ص (١٣٤).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها: (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

الاستعتاب، فإنه طلب رضوان الله، والاستعتاب: طلب إزالة غضبه وعتبه وهما متلازمان<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ [فصلت: ٢٥].

ومعنى الآية: أن الله قىض للمشركين - أي: سبب لهم - قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب. وقيل عكس هذا، وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة.

وقال الحسن: ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه آبائهم من الشرك وتكذيب الرسل وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

وفي الآية قول رابع: وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم فزينوا لهم ما بين أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولم يعملوها بعد، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق.

ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي: زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها؛ ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره<sup>(٢)</sup>.

وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج: سببنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود: أن قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾.

أي: وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(٢) تفسير البغوي (٦/ ١١٠).

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٨١، ١٨٢).

(٣) طريق الهجرتين (٣٨٩، ٣٩٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَرْكَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

فالمَلَكُ يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه ودفع عدوه عنه والاستغفار له إذا زل، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا وتقصير أمله، وترغيبه فيما عند الله فهو أنيسه في الوحدة ووليه ومعلمه ومثبته ومسكن جأشه ومرغبه في الخير ومحذره من الشر، يستغفر له إن أساء ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم والناس تبع لهم والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه وضمن له حفظه وعصمته من الناس. وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية<sup>(٢)</sup>، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثاً<sup>(٣)</sup>.

وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في

(٢) رواه البخاري (٣٤٦١).

(١) روضة المحبين (٢٤٦).

(٣) حديث صحيح. رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤٣٧/١)، (١٨٣/٥) وغيرها، والترمذي (٣٤/٥) في العلم، باب: ما جاء في تعظيم الكذب على رسول الله ﷺ، وأبو داود (٩٤/١٠، ٩٥) في العلم، باب: فضل نشر العلم. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٤٠٤).

أمرهم جعلنا الله تعالى منهم بمئه وكرمه، وهم كما قال فيهم عمر بن الخطاب في خطبته التي ذكرها ابن وضاح<sup>(١)</sup> في كتاب «الحوادث والبدع» له قال: «الحمد لله الذي امتن على العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويحيون بكتاب الله أهل العمى، كم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وضال تائه قد هدوه، بذلوا دماءهم وأموالهم دون هلكة العباد، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، يقبلونهم في سالف الدهر وإلى يومنا هذا فما نسيهم ربك وما كان ربك نسياً. جعل قصصهم هدى وأخبر عن حسن مقاتلتهم. فلا تقصد عنهم فإنهم في منزلة رفيعة وإن أصابتهم الوضیعة».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن الله عند كل بدعة كيد بها الإسلام ولياً من أوليائه يذب عنها وينطق بعلماتها، فاعتموا حضور تلك المواطن وتوكلوا على الله». ويكفي في هذا قول النبي ﷺ لعلي ولمعاذ أيضاً: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»<sup>(٢)</sup>، وقوله ﷺ: «من أحيأ شيئاً من سنتي كنت أنا وهو في الجنة كهاتين»<sup>(٣)</sup>، وضم بين إصبعيه، وقوله: «من دعا إلى هدى فاتبع عليه كان له مثل أجر من اتبعه إلى يوم القيامة»<sup>(٤)</sup>.

فمتى يدرك العامل هذا الفضل العظيم والحظ الجسيم بشيء من عمله، وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فحقيق بالمبلغ عن رسول الله ﷺ الذي أقامه الله في هذا المقام أن يفتح كلامه بحمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده، والاعتراف له بالوحدانية وتعريف حقوقه على العباد، ثم بالصلاة على رسول الله ﷺ وتمجيده والثناء عليه وأن يختمه أيضاً بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم تسليماً<sup>(٥)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

(١) انظر: «البدع والنهي عنها» لابن وضاح، ص (٣).

(٢) رواه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٣) رواه الترمذي بلفظ قريب من هذا، (٢٦٧٧، ٢٦٧٨).

(٤) رواه مسلم (٢٦٧٤). (٥) جلاء الأفهام (٢٤٩، ٢٥٠).

فهذا لدفع شياطين الإنس ثم قال: ﴿وَمَا يَزْعَمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]. فأكد بأن، وبضمير الفصل، وأتى باللام في ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وسر ذلك - والله أعلم - أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكد أنه إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك ويعلم ما تستعذ منه فيدفعه عنك، فالسمع لكلام المستعذ والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة وهذا المعنى شامل للموضوعين، وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا في سمعه لقولهم وعلمه بهم كما جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود، قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفر؛ قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي، كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، فقال الآخر: إن سمع بعضه سمع كله، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۖ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣] (١).

فجاء التوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ في سياق هذا الإنكار، أي: هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون أنه لا يسمع إن أخفوا وأنه لا يعلم كثيراً مما يعملون.

وحسّن ذلك أيضاً: أن المأمور به في سورة فصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] فحسن التأكيد لحاجة المستعذ.

وأيضاً فإن السياق هاهنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها وآيات ربوبيته وشواهد توحيده؛ ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْقَىٰ أَلْفَ تِلْكَ وَالنَّهَارُ﴾

[فصلت: ٣٧]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]، فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرفة.

والذي في الأعراف في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين، ووعد المستعبد بأن له رباً يسمع ويعلم وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه، ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها فإنه سميع عليم وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم، فكيف تسوونها به في العبادة، فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلم بأسرار كلامه.

ولما كان المستعاذ منه في سورة (حم المؤمن)<sup>(١)</sup> هو شر مجادلة الكفار في آياته وما ترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقْتَرِنُ سُلْطَانُ أَتْلُهُمْ إِنْ فِي ضُلُوبِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عياناً قال: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا فإنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه بل هو معلوم بالإيمان وإخبار الله ورسوله<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِينَ أَحْيَاَهَا لَمْ يَأْمُرْ بِالْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء واعتبار الشيء بنظيره، والعلة الموجبة: هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلة<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

قال ابن عباس: في آذانهم صمم عن استماع القرآن وهو عليهم عمى، أعمى الله

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٩٦، ٩٧).

(١) أي: سورة «غافر».

(٣) إعلام الموقعين (١/ ١٨٦).

قلوبهم فلا يفقهون: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء.

وقال مجاهد بعيد من قلوبهم.

وقال الفراء: نقول للرجل الذي لا يفهم: كذلك أنت تنادى من مكان بعيد.

قال: وجاء في التفسير كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون، انتهى.

والمعنى: أنهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّاهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴿[فصلت: ٤٩، ٥٠].

قال ابن عباس: [هذا لي] يريد من عندي.

وقال مقاتل: يعني: أنا أحق بهذا.

وقال مجاهد: هذا بعمل لي وأنا محقوق به.

وقال الزجاج: هذا واجب بعمل استحقاقه، فوصف الإنسان بأقبح صفتين إن مسه الشر صار إلى حال القانط ووجم وجوم الآيس، فإذا مسه الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المفضل بما أعطاه فبطر وظن أنه هو المستحق لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث فقال: وما أظن الساعة قائمة، ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن بعث كان له عند الله الحسنى فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعاً<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

أي: أن القرآن حق فأخبر أنه لا بد أن يريهم من آياتهم المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق.

ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله.

فآياته شاهدة بصدقه وهو مشاهد بصدق رسوله بآياته فهو الشاهد والمشهود له وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل لي على كل شيء! فأَي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه؛ ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿أَفِي اللَّهِ سَكُنْتُ﴾ [إبراهيم: ١٠]. فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل، فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه<sup>(١)</sup>.



## سُورَةُ الشُّورَى

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

وهذا نص صريح في أن حكم جميع ما تنازعنا فيه مردود إلى الله وحده، وهو الحاكم فيه على لسان رسوله، فلو قدم حكم العقل على حكمه لم يكن هو الحاكم بوحيه وكتابه<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿جَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].  
قوله: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾.

قال الكلبي: يكثركم في هذا التزويج. ولولا هذا التزويج لم يكثر النسل والمعنى: يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر: من جعله لكم أزواجاً فإن سبب خلقنا وخلق الحيوان: بالأزواج. والضمير في قوله: «فيه» يرجع إلى الجعل ومعنى (الذرة): الخلق، وهو هنا الخلق الكثير فهو خلق وتكثير، ف قيل: «في» بمعنى: الباء أي: يكثركم بذلك، وهذا قول الكوفيين.

والصحيح: أنها على بابها والفعل تضمن معنى: «ينشئكم»، وهو يتعدى بفي كما قال تعالى: ﴿وَنُنْشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]، فهذا تفسير الآية ولما كانت الحياة حياتين: حياة الأبدان، وحياة الأرواح وهو سبحانه الذي يحيي قلوب أوليائه وأرواحهم بإكرامه ولطفه وبسطه كان ذلك تنمية لها وتكثيراً وذراً، والله أعلم<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

(٢) مدارج السالكين (٣/٢٩٩، ٣٠٠).

(١) الصواعق المرسله (٣/٨٢٨).

فإنه سبحانه ذكر ذلك بعد ذكر نعوت كماله وأوصافه فقال :

﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقَ ۝ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ لَمْ  
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ  
وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ  
۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝  
[الشورى: ١ - ٦] إلى قوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا  
وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾  
[الشورى: ١٨].

فهذا الموصوف بهذه الصفات والنعوت والأفعال والعلو والعظمة والحفظ  
والعزة، والحكمة والملك والحمد والمغفرة والرحمة والكلام والمشية  
والولاية، وإحياء الموتى والقدرة التامة الشاملة والحكم بين عباده وكونه فاطر  
السموات والأرض وهو السميع البصير، فهذا هو الذي ليس كمثله شيء،  
لكثرة نعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله وثبوتها له على وجه الكمال الذي لا  
يمثله فيه شيء.

فالمثبت للصفات والعلو والكلام والأفعال وحقائق الأسماء هو الذي يصفه  
سبحانه بأنه ليس كمثله شيء.

وأما المعطل النافي لصفاته وحقائق أسمائه فإن وصفه له بأنه ليس كمثله شيء  
مجاز لا حقيقة كما يقول في سائر أوصافه وأسمائه.

ولهذا قال من قال من السلف: إن النفاة جمعوا بين التشبيه والتعطيل فسموا  
تعطيلهم تنزيهاً، وسموا ما وصف به نفسه تشبيهاً، وجعلوا ما يدل على ثبوت  
صفات الكمال وكثرتها دليلاً على نفيها وتعطيلها، وراج ذلك على من لم يجعل الله  
له نوراً واغتر به من شاء وهدى الله من اعتصم بالوحي والعقل والفطرة والله يهدي  
من يشاء إلى صراط مستقيم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا

وَصَيْنَا بِهِ إِتْرَاهِمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا  
 نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا نَقُرُّوهُ إِلَّا  
 مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى  
 لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ  
 فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كُتُبٍ  
 وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا  
 وَبَيْنَكُمْ ﴿[الشورى: ١٣ - ١٥].

فأخبر تعالى أنه شرع لنا دينه الذي وصى به نوحاً والنبیین من بعده وهو دين  
 واحد ونهانا عن التفريق فيه . ثم أخبرنا أنه ما تفرق من قبلنا في الدين إلا بعد العلم  
 الموجب للإثبات وعدم التفريق ، وأن الحامل على ذلك التفريق : البغي من بعضهم  
 على بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها ، ولقولها دون غيرها .  
 وإذا تأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيته صادراً عن هذا بعينه .

ثم أمر سبحانه نبيه أن يدعو إلى دينه الذي شرعه لأنبیائه ، وأن يستقيم كما أمره  
 ربه وحذره من اتباع أهواء المتفرقين وأمره أن يؤمن بكل ما أنزله الله من الكتب ،  
 وهذه حال المحقق أن يؤمن بكل ما جمعه من الحق على لسان أي طائفة كانت .  
 ثم أمره أن يخبرهم بأنه أمر بالعدل بينهم وهذا يعمم العدل في الأقوال والأفعال  
 والآراء والمحاکمات كلها فنصبه ربه ومرسله للعدل بين الأمم .

فهكذا وارثه ينتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب ونسبته منها إلى  
 القدر المشترك بينهما من الحق فهو أولى به وبتقريره وبالحكم لمن خاصم به .  
 ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد فما الحامل للتفرق والاختلاف وهو  
 ربنا وربكم والدين واحد ولكل عامل عمله لا يعدوه إلى غيره .

ثم قال : ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ والحجة هاهنا هي الخصومة ، أي : للخصومة  
 ولا وجه لخصومة بيننا وبينكم بعدما ظهر الحق وأسفر صبحه وبانت أعلامه  
 وانكشفت الغمة عنه .

وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما يظنه بعض من لا يدري ما يقول ،  
 وأن الدين لا احتجاج فيه ، كيف والقرآن من أوله إلى آخره حجج وبراهين على أهل  
 الباطل قطعية يقينية ، وأجوبة لمعارضتهم وإفساد لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين ،

ولإخبار عن أنبيائه ورسله بإقامة الحجج والبراهين وأمر لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن، وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج وإفساد لحجج الخصم.

وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وقد ناظر النبي ﷺ جميع طوائف الكفر أتم مناظرة وأقام عليهم ما أفحمهم به من الحجج، حتى عدل بعضهم إلى محاربته بعد أن عجز عن رد قوله وكسر حجته واختار بعضهم مسالمة ومتاركة وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر، كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم وأخذها بكظمهم وأسرها لنفوسهم، وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له الحجة ولم يجد إلى ردها سبيلاً، وما خالفه أعداؤه إلا عناداً منهم وميلاً إلى المكابرة بعد اعترافهم بصحة حججه وأنها لا تدفع، فما قام الدين إلا على ساق الحجة.

فقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا خصومة، فإن الرب واحد فلا وجه للخصومة فيه ودينه واحد وقد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبق للاحتجاج والمخاصمة فائدة، فإن فائدة الاحتجاج ظهور الحق ليتبع، فإذا ظهر وعانده المخالف وتركه جحوداً وعناداً لم يبق للاحتجاج فائدة، فلا حجة بيننا وبينكم أيها الكفار، فقد وضع الحق واستبان ولم يبق إلا الإقرار به أو العناد، والله يجمع بيننا يوم القيامة فيقضي للمحق على المبطل وإليه المصير<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].  
[انظر في تفسيرها: تفسير الآيتين ١٥ - ١٦ من سورة هود: (٢/٤٧)].

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقَعُ بِهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢].

هذا وصف لحالهم في الآخرة عند معاينة العذاب، أو عند الموت، فهذا إشفاق مقرون بالاستيحاش؛ لأنه قد علم أنه صائر إليه، كمن قدم إلى العقوبة ورأى أسبابها فهو مشفق منها إذا رآها؛ لعلمه بأنه صائر إليها<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

استدل شيعي على الوصية لأهل البيت بهذه الآية.  
فأجيب بأن قيل: هذه وصية بهم، لا وصية إليهم، فهي حجة على خلاف قول الشيعة، لأن الأمر لو كان إليهم لأوصاهم ولم يوص بهم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّدُ الْحَقَّ يَكَلِّمُنِي عَيْنُهُمْ بَدَاتِ الضُّوْرِ﴾ [الشورى: ٢٤].  
وفي معنى الآية للناس قولان:

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك.

والثاني: قول قتادة: إن يشأ الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي، وهذا القول دون الأول<sup>(٢)</sup> لوجه:

أحدها: أن هذا خرج جواباً لهم وتكذيباً لقولهم: أن محمداً كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن، فأجابهم بأحسن جواب وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه فيعود المعنى إلى: أنه لو افترى علي لم أمكنه ولم أقره.

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه، فإن فيه من علوم الأولين والآخرين وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة والعلم الذي لا يعلمه إلا الله والبيان التام والجزالة والفصاحة والجلالة والإخبار بالغيوب ما لم يكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا يبعضه، فلو لا أنني أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه، فأين هذا المعنى إلى المعنى الذي ذكره الآخرون؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم؟ وكيف يتضمن الرد عليهم؟

الوجه الثاني: أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ولا يكون فيه رد لقولهم، فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرد صدق المخبر.

(١) بدائع الفوائد (٣/١٢٩).

(٢) (دون الأول) يقصد المؤلف: أنه أقرب من الأول [الشامي].

الثالث: أن الرابط على قلب العبد لا يقال له: ختم على قلبه، ولا يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب ولا هو المعهود في القرآن، بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظ في القرآن كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]. ونظائره، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]، وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوَيْسَ فَرَاغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]. والإنسان يسوغ له في الدعاء أن يقول: اللهم اربط على قلبي ولا يحسن أن يقول: اللهم اختم على قلبي.

الرابع: أنه سبحانه حيث يحكي أقوالهم: «إنه افتراه» لا يجيبهم عليه هذا الجواب بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكو له من الله شيئاً، بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبُّهُ قُلٌّ إِنَّ أَفْرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الأحقاف: ٨]. وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه وتارة بإقامة الأدلة القاطعة على أنه الحق وأنهم هم الكاذبون المفترون، وهذا هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر.

الخامس: أن هذه الآية نظير ما نحن فيه، وأنه لو شاء لما أقره ولا مكنته، وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير.

السادس: أنه لا دلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما: لا بالمطابقة ولا التضمن ولا اللزوم، فمن أين يعلم أنه أراد ذلك ولم يستمر هذا المعنى في غير هذا المعنى فيحمل عليه بخلاف كونه يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه فقد ذكره في مواضع.

السابع: أنه سبحانه أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ [يونس: ١٦]. وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها، أي: هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي ولا أقدر أن أفتريه على الله، ولو كان ذلك مقدوراً لي لكان مقدوراً لمن هو من أهل العلم والكتابة ومخالطة الناس والتعلم منهم، ولكن الله بعثني به ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بلساني فلم يدعني أتلهو عليكم وأن أعلمكم به البتة لا على لساني ولا على لسان غيري، ولكن أوحاه إلي وأذن لي في

تلاوته عليكم وأدراككم به بعد أن لم تكونوا دارين به، فلو كان كذباً وافتراءً كما تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرّون به من جهته؛ لأن الكذب لا يعجز عنه البشر وأنتم لم تدرّوا بهذا ولم تسمّعوه إلا مني ولم تسمّعوه من بشر غيري.

ثم أجاب عن سؤال مقدر وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه فقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ [يونس: ١٦]. تعلمون حالي ولا يخفى سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي، ومن هذا لم أتمكن من قول شيء البتة ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه ولا من بعضه. وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند الله أوحاه إلي وأنزله علي ولو شاء ما فعل، فلم يمكنني من تلاوته ولا أمكنكم من العلم به بل مكنتني من تلاوته ومكنكم من العلم به فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه ولم أكن قبل أن يوحى إلي تالياً له، ولا لبعضه.

فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦]. وهذا هو المناسب لقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]. ولقوله: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥]. وهو برهان مستقل مذكور في القرآن على وجوه متعددة، والله أعلم.

الثامن: أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات كقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]. وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]. وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣]. وقوله: ﴿إِن شِئْنَا نَخَسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩]. ونظائره لم يأت إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة منفيًا.

التاسع: أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف بخلاف الربط على القلب فإنه يستلزم الصبر، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١١]. ومعنى الربط في اللغة: الشد؛ ولهذا يقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه كأنه حبس قلبه عن الاضطراب، ومنه يقال: هو رابط الجأش، وقد ظن الواحدي أن «على» زائدة والمعنى: يربط قلوبكم وليس كما ظن؛ بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر

فإنه يقال: ربط الفرس والدابة ولا يقال: ربط عليها، فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه كأنه أحاط عليه بالرباط، فلهذا قيل: «ربط على قلبه»، وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه، والمقصود: أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

العاشر: أن الختم هو شد القلب حتى لا يشعر ولا يفهم فهو مانع يمنع العلم والتقصد، والنبي ﷺ كان يعلم قول أعدائه: إنه افترى القرآن ويشعر به فلم يجعل الله على قلبه مانعاً من شعوره بذلك وعلمه به، فإذا قيل: الأمر كذلك ولكن جعل الله على قلبه مانعاً من التأذي بقولهم قيل: هذا أولى أن يسمى ختماً وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. وكان وصول هذا الأذى إليه من كرامة الله له فإنه لم يؤذَ نبي ما أودى، فالقول في الآية هو قول قتادة، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿فَأُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَنَجُّنُ الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٧].

فأخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه، وهذا هو التوحيد، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾. فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية، ثم قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. فهذا مخالفة القوة الغضبية، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التي هي جماع الخير كله<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيتهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح، فقال: ﴿وَجَزَّوْا سَنَّتَ سَنَّتَهُ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرمه.

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٨٥ - ١٩٠). (٢) الفوائد (٨١).

فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان؟  
 قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار، وهو  
 القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا ندبهم إلى العفو.  
 قال بعض السلف في هذه الآية: «كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا»،  
 فمدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي  
 مدح سبحانه به نفسه في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ  
 رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفي أثر معروف: «حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانهك اللهم ربنا  
 وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانهك اللهم  
 ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»؛ ولهذا قال المسيح  
 صلوات الله وسلامه عليه: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ  
 الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، أي: إن غفرت لهم غفرت عن عزة وهي كمال  
 القدرة، وحكمة وهي كمال العلم، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت  
 بهم قدرتك.

إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر عن المسيء  
 والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهانة، والانتقام ظاهره عز وباطنه  
 ذل، فما زاد الله بعفو إلا عزاً ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل ولو لم يكن إلا بفوات  
 عز العفو؛ ولهذا ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط<sup>(١)</sup>.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿هُمْ يَنْصُرُونَ﴾، كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون  
 هم بها المنتصرين لأنفسهم لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان الانتصار لا  
 تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً، بل لا بد من المجاوزة شرع فيه سبحانه  
 المماثلة والمساواة وحرم الزيادة وندب إلى العفو<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّهَا وَإِنْ نُصِيبْهُمْ سَيْئَةً  
 بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].  
 كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى (بإذا)، وأتى في

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧). (٢) الروح لابن القيم (٢٤٢).

إصابة السيئة (بان) فإن ما يعفو الله عنه أكثر. وأتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق الوقوع، وفي حصول السيئة بالمستقبل الدال على أنه غير محقق ولا بد، وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم وإنها مذوقة لهم والذوق هو أخص أنواع الملاسة وأشدها، وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه فقال: ﴿مِنَّا رَحْمَةٌ﴾، وأتى في السيئة بباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم.

وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقة الرحمة بحرف إن دون الجملة الثانية.

وأسرار القرآن أكثر وأعظم من أن يحيط بها عقول البشر<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَنَهَبَ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

فقسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود، وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد فقد وهبهما إياه، وكفى بالعبد تعرضاً لمقته أن يتسخط ما وهبه. وبدأ سبحانه بذكر الإناث فقليل: جبراً لهن؛ لأجل استقبال الوالدين لمكانهما. وقيل: - هو أحسن - إنما قدمهن؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالباً، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان.

وعندي وجه آخر: وهو أنه تعالى قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهن، أي: هذا النوع المؤخر الحقير عندكم مقدم عندي في الذكر. وتأمل كيف نكّر سبحانه الإناث وعرف الذكور فجبر نقص الأنوثة بالتقديم وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنزيه كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم.

ثم لما ذكر الصنفين معاً قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك.

(١) بدائع الفوائد (١/٤٧، ٤٨).

والمقصود: أن التسخيط بالإناث من أخلاق الجاهلية الذين ذمهم الله سبحانه في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿٥٨﴾ يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُمُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]. وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]. ومن هنا عبّر بعض المعبرين لرجل قال له: رأيت كأن وجهي أسود فقال له: ألك امرأة حامل؟ قال: نعم، قال: تلد لك أنثى<sup>(١)</sup>.

□ □ □

وذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال.

إحداها: من تلد الإناث فقط.

الثانية: من تلد الذكور فقط.

الثالثة: من تلد الزوجين الذكر والأنثى، وهو معنى التزويج هنا: أن يجعل ما يهب له زوجين ذكراً وأنثى.

الرابعة: العقيم التي لا تلد أصلاً.

ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيثار لا يعلمه البشر ولا يُدرك بالقياس والفكر وإنما يعلم بالوحي، ما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان قال: كنت عند النبي ﷺ فجاء خبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي»، قال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟»، قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه فقال: «سل»، فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الظلمة دون الجسر»، قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين»، قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ فقال: «زيادة كبد حوت ذي النون» قال: فما غذاؤهم على أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها»، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين تسمى سلسبيلاً»، قال: صدقت، وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه إلا نبي أو رجل أو

(١) تحفة الودود في أحكام المولود (٢٣، ٢٤).

رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك؟»، قال: أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله، وإن علا مني المرأة مني الرجل أنشأ بإذن الله»، قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني عن هذا الذي سألتني عنه وما لي علم به حتى أتاني الله به»<sup>(١)</sup>.

والذي دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من المائين جميعاً، فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثى وكذلك هي تنزل ماءها إلى حيث ينتهي ماؤه فيلتقي المائان على أمر قد قدره الله وشاءه، فيخلق الولد بينهما جميعاً وأيهما غلب كان الشبه له.

كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال: بلغ عبد الله بن سلام قدوم النبي ﷺ فأتاه فقال: إني سئلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي قال: ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أخبرني بهن آنفاً جبريل»، فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: «أما أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له وإن سبقت كان الشبه لها»، فقال: أشهد أنك رسول الله<sup>(٢)</sup>، وذكر الحديث.

وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ قال: «نعم إذا رأت الماء الأصفر». فضحكت أم سلمة، فقالت: أوتحتلم المرأة؟ فقال رسول الله ﷺ: «فبم يشبهها الولد»<sup>(٣)</sup>؟

فهذه الأحاديث الثلاثة تدل على أن الولد يخلق من المائين، وأن الإذكار والإيـنـاث يكون بغلبة أحد المائين وقهره الآخر وعلوه عليه، وأن الشبه يكون بالسبق، فمن سبق ماؤه إلى الرحم كان الشبه له، وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها ولا تعلم إلا بالوحي وليس في صناعتهم أيضاً ما ينافيها.

(١) صحيح مسلم (٣١٥). (٢) رواه البخاري (٣٩٣٨).

(٣) رواه البخاري في مواضع منها (٣٣٢٨)، ومسلم (١٣١٣).

على أن في النفس من حديث ثوبان<sup>(١)</sup> ما فيها، وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواته حفظه كما ينبغي، وأن يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث كما سأل عنه عبد الله بن سلام؛ ولذلك لم يخرج البخاري.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي بكر بن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: يا رب نطفة يا رب علقة يا رب مضغة، فإذا أراد أن يخلقها قال: قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه»<sup>(٢)</sup>. أفلا ترى كيف أحال بالإذكار والإيناث على مجرد المشيئة وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل، ولم يتعرض الملك لكتبه الذي للطبيعة فيه مدخل؟ أولاً ترى عبد الله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه ولم يسأل عن الإذكار والإيناث مع أنه أبلغ من الشبه، والله أعلم. وإن كان رسول الله ﷺ قد قاله فهو عين الحق، وعلى كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبايعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث، والله أعلم<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

**قوله تعالى:** ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْنَبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين فهو روح تحيا به القلوب ونور تستضيء وتشرق به<sup>(٤)</sup>.

وقد اختلف في الضمير في قوله ﷻ: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ ف قيل: يعود على الكتاب وقيل: على الإيمان. والصحيح أنه يعود على الروح في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

(١) قال ابن القيم في الطرق الحكيمة (٢٢٩): «وسمعت شيخنا رحمه الله يقول: في صحة هذا اللفظ نظر».

قلت: لأن المعروف المحفوظ في ذلك، إنما هو تأثير سبق الماء في الشبه، وهو الذي ذكره البخاري من حديث أنس... هـ.

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦١٦).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢٧٨ - ٢٨٠). (٤) إغاثة اللهفان (٢١/١).

فأخبر تعالى أنه جعل أمره روحاً ونوراً وهدى؛ ولهذا ترى صاحب اتباع الأمر والسنة قد كسي من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجلالة والقبول ما قد حرمه غيره، كما قال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن المؤمن من رزق حلاوة ومهابة»، وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أوليائهم منه وصدوهم، فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات<sup>(١)</sup>.



(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٥).

## سُورَةُ الزَّخْرَفِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حَمِّمَ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّكُمْ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١ - ٤].  
قال ابن عباس: في اللوح المحفوظ المقري عندنا.

قال مقاتل: إن نسخته في أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ. وأم الكتاب: أصل الكتاب. وأم كل شيء: أصله، والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقول، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه، فتبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب.

وقوله: ﴿لَدَيْنَا﴾ يجوز فيه أن تكون من صلة أم الكتاب، أي: أنه في الكتاب الذي عندنا، وهذا اختيار ابن عباس، ويجوز أن يكون من صلة الخبر أنه على حكيم عندنا ليس هو كما عند المكذبين به، أي: وإن كذبتكم به وكفرتكم فهو عندنا في غاية الارتفاع والشرف والإحكام<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥].

على أحد التأويلين، أي: نترككم فلا ننصحكم. ولا ندعوكم ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم<sup>(٢)</sup>!

\* \* \*

(٢) بدائع الفوائد (٣/١٣٤).

(١) شفاء العليل (٤١، ٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ أَوْمَنُ يُنَشَّؤُا فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿الزخرف: ١٧، ١٨﴾.

احتج سبحانه على هؤلاء الذين جعلوا له البنات بأن أحدهم لا يرضى بالبنات وإذا بشر بالأنثى حصل له من الحزن والكآبة ما ظهر فيه السواد على وجهه، فإذا كان أحدهم لا يرضى بالإناث بناتاً فكيف تجعلونها لي، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ لَكَ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

ثم ذكر سبحانه ضعف هذا الجنس الذي جعلوه له وأنه أنقص الجنسين؛ ولهذا يحتاج في كماله إلى الحلية وأضعفهما بياناً، فقال تعالى: ﴿أَوْمَنُ يُنَشَّؤُا فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. فأشار بنشأتهم في الحلية إلى أنهم ناقصات فيحتجن إلى حلية يكملن بها، وأنهن عيبات فلا يبين عن حجتهم وقت الخصومة مع أن في قوله: ﴿أَوْمَنُ يُنَشَّؤُا فِي الْحَلِيَةِ﴾ تعريضاً بما وضعت له الحلية من التزين لمن يفترشنه ويطأهن، وتعريضاً بأنهن لا ينشأن في الحرب والطعان والشجاعة، فذكر الحلية التي هي علامة الضعف والعجز والوهن<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

أي: جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة: لا إله إلا الله وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ٣٧﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿الزخرف: ٣٦، ٣٧﴾.

فأخبر سبحانه أن من عشا عن ذكره وهو كتابه الذي أنزله على رسوله فأعرض

(١) الصواعق المرسله (٢/٤٨٣ - ٤٨٥). (٢) الجواب الكافي (٢٩٤، ٢٩٥).

عنه، وعمي عنه، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه؛ قىض الله له شيطاناً عقوبة له بإعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذي لا يفارقه في الإقامة ولا في المسير، ومولاه وعشيرته الذي هو بئس المولى وبئس العشير:

رضيعا لبان ثدي أم تقاسما بأسحم داج عوض لا نتفرق  
ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين، فبئس القرين كنت لي في الدنيا، أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني، وصددتنني عن الحق وأغويتني حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم، ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبتة، حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية؛ أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي  
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي  
فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

المراد بسؤالهم: سؤال أممهم عما جاؤوا به: هل فيه أن الله شرع لهم أن يعبد من دونه إله غيره؟

قال الفراء: المراد سؤال أهل التوراة والإنجيل، فيخبرونه عن كتبهم وأنبيائهم. وقال قتيبة: التقدير: واسأل من أرسلنا إليهم رسلاً من قبلك، وهم أهل الكتاب.

وعلى كل تقدير، فالمراد: التقرير لمشركي قريش وغيرهم ممن أنكر النبوات

(١) الجواب الكافي (١٣٦، ١٣٧).

والتوحيد، وأن الله أرسل رسلاً، أو أنزل كتباً، أو حرم عبادة الأوثان، فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم. وهي من أعلام صحة رسالته ﷺ<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].  
أي: فأين يصرفون عن شهادة لا إله إلا الله وعن عبادته وحده وهم يشهدون: أنه لا رب غيره ولا خالق سواه<sup>(٢)</sup>؟

❁ ❁ ❁

(٢) مدارج السالكين (١/٤١١).

(١) أحكام أهل الذمة (١/١١).

## سُورَةُ الدُّخَانِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ١ - ٥].

وهذه هي ليلة القدر قطعاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].  
ومن زعم أنها ليلة النصف من شعبان فقد غلط.  
قال مجاهد: ليلة القدر ليلة الحكم.

قال سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبيرة: يؤذن للحجاج في ليلة القدر فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، فلا يغادر منهم أحد، ولا يزداد فيهم ولا ينقص منهم.  
قال ابن علية: حدثنا ربيعة بن كلثوم قال: قال رجل للحسن وأنا أسمع: أرايت ليلة القدر، في كل رمضان هي؟ قال: نعم - والله الذي لا إله إلا هو - إنها لفي كل رمضان، وإنها لليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كل أجل وعمل وورق إلى مثلها.

وذكر يوسف بن مهران عن ابن عباس، قال: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة وورق ومطر حتى الحجاج يقال: يحج فلان ويحج فلان.

وعن سعيد بن جبيرة في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

\* \* \*

لا خلاف بين الناس أن المعنى على علم منا بأنهم أهل الاختيار، فالجملة في موضع نصب على الحال، أي: اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم، وما يقتضي اختيارهم من قبل خلقهم، ذكر سبحانه اختيارهم وحكمته في اختياره إياهم وذكر علمه الدال على مواضع حكمته واختياره<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيبٍ ۖ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

والحق هو: الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله وهو أنواع كثيرة.

منها: أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته.

ومنها: أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع.

ومنها: أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع.

ومنها: أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات.

ومنها: أن يثيب ويعاقب، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فيوجد أثر عدله وفضله موجوداً مشهوداً فيحمد على ذلك ويشكر.

ومنها: أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

ومنها: أن يصدق الصادق فيكرمه ويكذب الكاذب فيهينه.

ومنها: ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي فيعلم عباده ذلك علماً مطابقاً لما في الواقع.

ومنها: شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكيها وأنه وحده إلهها ومعبودها.

ومنها: ظهور أثر كماله المقدس، فإن الخلق والصنع لازم كماله، فإنه حي قدير ومن كان كذلك لم يكن إلا فاعلاً مختاراً.

ومنها: أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه الذي يليق به ومحبته على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه فتشهد حكمته الباهرة.

(١) شفاء العليل (٣٢).

ومنها: أنه سبحانه يحب أن يوجد وينعم ويعفو ويسامح ولا بد من لوازم ذلك خلقاً وشرعاً.

ومنها: أنه يحب أن يثني عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم.

ومنها: كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلهيته إلى غير ذلك من الحكم التي تضمنها الخلق.

فخلق مخلوقاته؛ بسبب الحق؛ ولأجل الحق، وخلقها ملتبس بالحق وهو في نفسه حق، فمصدره حق وغايته حق وهو متضمن للحق.

وقد أننى تعالى على عباده المؤمنين حيث نزهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية، فقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وأخبر أن هذا ظن أعدائه لا ظن أوليائه فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧].

وكيف يتوهم أنه عرفه من يقول: إنه لم يخلق لحكمة مطلوبة له، ولا أمر لحكمة، ولا نهى لحكمة، وإنما يصدر الخلق والأمر عن مشيئة وقدرة محضة لا لحكمة ولا لغاية مقصودة.

وهل هذا إلا إنكار لحقيقة حمده، بل الخلق والأمر إنما قام بالحكم والغايات فهما مظهران لحمده وحكمته، فإنكار الحكمة إنكار لحقيقة خلقه وأمره، فإن الذي أثبت المنكرون من ذلك ينزه عنه الرب ويتعالى عن نسبته إليه، فإنهم أثبتوا خلقاً وأمرأ لا رحمة فيه ولا مصلحة ولا حكمة، بل يجوز عندهم أو يقع أن يأمر بما لا مصلحة للمكلف فيه البتة وينهى عما فيه مصلحة والجميع بالنسبة إليه سواء.

ويجوز عندهم أن يأمر بكل ما نهى عنه وينهى عن جميع ما أمر به ولا فرق بين هذا وهذا؛ إلا لمجرد الأمر والنهي.

ويجوز عندهم أن يعذب من لم يعصه طرفة عين بل أفنى عمره في طاعته وشكره وذكره، وينعم على من لم يطعه طرفة عين بل أفنى عمره في الكفر به، والشرك والظلم والفجور، فلا سبيل إلى أن يعرف خلاف ذلك منه إلا بخبر الرسول، وإلا فهو جائز عليه وهذا من أقبح الظن وأسوئه بالرب سبحانه وتنزيهه عنه كتتنزيهه عن الظلم والجور، بل هذا هو عين الظلم الذي يتعالى الله عنه.

والعجب العجيب أن كثيراً من أرباب هذا المذهب ينزهونه عما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال، ويزعمون أن إثباتها تجسيم وتشبيه، ولا

ينزهونه عن هذا الظلم والجور ويزعمون أنه عدل وحق، وأن التوحيد عندهم لا يتم إلا به كما لا يتم إلا بإنكار استوائه على عرشه وعلوه فوق سماواته، وتكلمه وتكليمه وصفات كماله، فلا يتم التوحيد عند هذه الطائفة إلا بهذا النفي وذلك الإثبات، والله ولي التوفيق<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ زَوَّجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥١ - ٥٦].

فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه واشتماله على الثمار والأنهار وحسن اللباس، وكمال العشرة؛ لمقابلة بعضهم بعضاً، وتمام اللذة بالهور العين، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها، وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتاً. والهور: جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسنة الجميلة البيضاء شديدة سواد العين.

وقال زيد بن أسلم: الحوراء التي يحار فيها الطرف. وعين: حسان الأعين. وقال مجاهد: الحوراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون. وقال الحسن: الحوراء شديدة بياض العين شديدة سواد العين. واختلف في اشتقاق هذه اللفظة، قال ابن عباس: الحور في كلام العرب البياض، وكذلك قال قتادة: الحور البياض، وقال مقاتل: الحور البياض الوجوه. وقال مجاهد: الحور العين التي يحار فيهن الطرف بادياً مخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبدهن إحداهن كالمرأة من رقة وصفاء اللون. وهذا من الاتفاق وليست اللفظة مشتقة من الحيرة. وأصل الحور: البياض، والتحوير: التبييض. والصحيح: أن الحور مأخوذ من الحور في العين، وهو شدة بياضها مع قوة سوادها فهو يتضمن الأمرين.

(١) شفاء العليل (١٩٨، ١٩٩).

وفي الصحاح: الحور شدة بياض العين في شدة سوادها. امرأة حوراء: بيّنة الحور.

وقال أبو عمر: الحور: أن تسود العين كلها مثل أعين الطباء والبقر، وليس في بني آدم حور، وإنما قيل: النساء حور العين؛ لأنهن شبهن بالطاء والبقر.

وقال الأصمعي: ما أدري ما الحور في العين؟

قلت: خالف أبو عمرو أهل اللغة في اشتقاق اللفظة ورد الحور إلى السواد، والناس غيره إنما رده إلى البياض أو إلى بياض في سواد والحور في العين: معنى يلتئم من حسن البياض والسواد وتناسبهما واكتساب كل واحد منهما الحسن من الآخر، عين حوراء: إذا اشتد بياض أبيضها وسواد أسودها، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينيها بياض لون الجسد.

والعين جمع عيّن وهي العظيمة العين من النساء، ورجل أعين إذا كان ضخّم العين، وامرأة عيّناء، والجمع عين، والصحيح أن العين اللائي جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة.

قال مقاتل: العين حسان الأعين ومن محاسن المرأة اتساع عينيها في طول، وضيق العين في المرأة من العيوب، وإنما يستحب الضيق منها في أربعة مواضع: فمها، وخرق أذنّها، وأنفها، وما هنالك<sup>(١)</sup>.

□ □ □

قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، و(المقام): موضع الإقامة و(الأمين): الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذي جمع صفات الأمن كلها فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون من الخروج والنقص والنكد (والبلد الأمين): الذي قد آمن أهله فيه مما يخاف منه سواهم.

وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكْهَةٍ آمِنِينَ﴾. فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك، وأمن الموت فلا يخافون فيها موتاً<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾.

فهذا الاستثناء؛ هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت. وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة. إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع. فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيب على حفظ العموم. وهذا جار في كل منقطع فتأمل، فإنه من أسرار العربية<sup>(١)</sup>.



## سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤].  
قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَكَّيْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [١١] ﴿وَأَتَيْنَاهُم بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

فأخبر سبحانه أن المختلفين بالتأويل لم يختلفوا لخفاء العلم الذي جاءت به الرسل عليهم، وإنما اختلفوا بعد مجيء العلم، وهذا كثير في القرآن<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٨] ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

فالشريعة التي جعله ربه عليها تتضمن ما أمره به، ورضيه له، وكل عمل وحب وذوق ووجد وحال لا تشهد له هذه الشريعة التي جعله عليها فباطل وضلال، وهو من أهواء الذين لا يعلمون، فليس لأحد أن يتبع ما يحبه فيأمر به، ويتخذ ديناً، وينهى عما يبغضه ويذمه إلا بهدى من الله، وهو شريعته التي جعل عليها رسوله وأمره والمؤمنين باتباعها؛ ولهذا كان السلف يسمون كل من خرج عن الشريعة في شيء في الدين: من أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء؛ فيذمونهم بذلك ويحذرون عنهم ولو ظهر عنهم ما ظهر من العلم والعبادة والزهد والفقر والأحوال والخوارق.

(١) مدارج السالكين (٥١/٢).

(٢) الصواعق المرسلة (٥١٢/٢، ٥١٣).

قال يونس بن عبد الأعلى: قلت للشافعي: تدري ما قال صاحبنا؟ - يريد الليث بن سعد - كان يقول: لو رأيته - يريد صاحب البدعة - يمشي على الماء لا تثق به ولا تعبأ ولا تكلمه. قال: قصر والله، يريد أقبح من ذلك<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

فأنكر سبحانه هذا الحساب إنكار منبه للعقل على قبحه، وأنه حكم سيء، والحاكم به سيء ظالم.

ولو كان قبحه لكونه خلاف ما أخبر به، لم يكن الإنكار لما اشتمل عليه من القبح اللازم من التسوية بين المحسن والمسيء، المستقر قبحه في فطر العالمين كلهم. ولا كان هنا حكم سيء في نفسه ينكر على من حكم به<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهَ عَلَى عَرِّ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال ابن عباس: علم ما يكون قبل أن يخلقه، وقال أيضاً: على علم قد سبق عنده، وقال أيضاً: يريد الأمر الذي سبق له في أم الكتاب.

وقال سعيد بن جبير ومقاتل: على علمه فيه.

وقال أبو إسحاق: أي: على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين.

وقال الثعلبي: على علم منه بعاقبة أمره، قال: وقيل: على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، وكذلك ذكر البغوي وأبو الفرج ابن الجوزي قال: على علمه السابق فيه أنه لا يهتدي<sup>(٣)</sup>.

وذكر طائفة منهم المهدوي وغيره قولين في الآية؛ هذا أحدهما، قال المهدوي: فأضله الله على علم علمه منه بأنه لا يستحقه، قال: وقيل: على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر.

وعلى الأول: يكون على علم حال من الفاعل، المعنى: أضله الله عالماً بأنه من أهل الضلال في سابق علمه.

(١) الكلام في مسألة السماع (٢٨١، ٢٨٢). (٢) مدارج السالكين (١/٢٣٨).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٤/١٥٩، ١٦٠).

وعلى الثاني: حال من المفعول، أي: أضله الله في حال علم الكافر بأنه ضال. قلت: وعلى الوجه الأول، فالمعنى: أضله الله عالماً به وبأقواله وما يناسبه ويليق به ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنه أهل للضلال وليس أهلاً أن يهدي، وأنه لو هدي لكان قد وضع الهدى في غير محله وعند من لا يستحقه، والرب تعالى حكيم إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها. فانظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدر عليه الضلال.

وذكر العلم إذ هو الكاشف المبين لحقائق الأمور ووضع الشيء في مواضعه، وإعطاء الخير من يستحقه، ومنعه من لا يستحقه، فإن هذا لا يحصل بدون العلم، فهو سبحانه أضله على علمه بأحواله التي تناسب ضلاله وتقتضيه وتستدعيه، وهو سبحانه كثيراً ما يذكر ذلك مع إخباره بأنه أضل الكافر، كما قال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١)</sup> [الأنعام: ١٢٥].

□ □ □

[وفي] قول آخر: إنه على علم الضال، كما قيل: على علم منه أن معبوده لا ينفع ولا يضر، فيكون المعنى: أضله الله مع علمه الذي تقوم به عليه الحجة، لم يضلّه على جهل وعدم علم، وهذا يشبه قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿وَحَمِّدُوا بِهَا وَأَسْتَفِيقْنَهَا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، ونظائره كثيرة. وعلى هذا التقدير فهو ضال عن سلوك طريق رشد وهو يراها عياناً، كما في الحديث: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»<sup>(٢)</sup>. فإن الضال عن الطريق قد يكون متبعاً لهواه عالماً بأن الرشد والهدى في خلاف ما يعمل<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

(١) شفاء العليل (٣٠).

(٢) ضعيف. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨٤): «رواه الطبراني في الصغير وفيه عثمان البري قال الفلاس: صدوق لكنه كثير الغلط صاحب بدعة، ضعفه أحمد والنسائي والدارقطني»، وضعفه الألباني كما في الضعيفة (٤/ ١٣٨) رقم (١٦٣٤). فانظره مفصلاً.

(٣) شفاء العليل (٣٩).

الغشاوة: هي غطاء العين، وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب، فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه، وأنت إذا أبغضت رجلاً بغضاً شديداً أو أبغضت كلامه ومجالسته تجد على عينك غشاوة عند رؤيته ومخالطته، فتلك أثر البغض والإعراض عنه، وغلظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول، وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته كالعمامة، ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك الغشاوة غشاوة على أعينهم فلا تبصر مواقع الهدى<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم<sup>(٢)</sup>. قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: كتب الله أعمال بني آدم وما هم عاملون إلى يوم القيامة، قال: والملائكة تستنسخ ما يعمل بنو آدم يوماً بيوم.

وفي الآية قول آخر: إن استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنو آدم بعد أن يعملوه.

وقد يقال - وهو الأظهر - : إن الآية تعم الأمرين<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(٢) بدائع الفوائد (٢/٤).

(١) شفاء العليل (٩٦).

(٣) طريق الهجرتين (٦٦).

## سُورَةُ الْأَحْقَافِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [الأحقاف: ١٥].

قال ابن عباس والمفسرون بعده: ألهمني، قال أبو إسحاق: وتأويله في اللغة: كفني عن الأشياء إلا نفس شكر نعمتك؛ ولهذا يقال في تفسير الموزع: المولع، ومنه الحديث: «كان رسول الله ﷺ موزعاً بالسواك»<sup>(١)</sup>. أي: مولعاً به، كأنه كف ومنع إلا منه.

وقال في الصحاح: وزعته أزعه وزعاً: كففته فاتزع عنه، أي: كف وأوزعته بالشيء أغريته به فأوزع به فهو موزع به، واستوزعت الله شكره فأوزعني، أي: استلهمته فألهمني.

فقد دار معنى اللفظة على معنى ألهمني ذلك واجعلني مغرى به وكفني عما سواه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُمْ طِيعَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فالمؤمن لا يذهب طيباته في الدنيا، بل إنه يترك بعض طيباته للآخرة، وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها في الدنيا<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

(١) في المطبوع «بالسؤال» والصحيح ما أثبتته كما في الفائق للزمخشري (٥٧/٤).  
«وقال: أي: مولعاً»، وكذا في النهاية لابن الأثير (١٨١/٥)، واللسان، مادة: «وزع»، ولم أستطع معرفة مخرجي الحديث، مع دلالة الأحاديث الصحيحة عليه.  
(٢) شفاء العليل (٥٧).  
(٣) طريق الهجرتين (٢٧٣).

أي: كل شيء يقبل التدمير ومن شأن الريح أن تدمره ونظائره كثيرة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ إلى قوله: ﴿أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

فهذا يدل على تكليف الجن من وجوه متعددة:

أحدها: أن الله ﷻ صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه.

الثاني: أنهم ولوا إلى قومهم منذرين، والإنذار هو الإعلام للخوف بعد انعقاد أسبابه. فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

الثالث: أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلى صراط مستقيم، وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة وهم قادرون على امثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

الرابع: أنهم قالوا لقومهم: ﴿يَقَوْمَنَا أٰجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]. وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

الخامس: أنهم قالوا: ﴿مِن دُونِكُمْ﴾، والذنب مخالفة الأمر.

السادس: أنهم قالوا: ﴿وَيُحَرِّكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

السابع: أنهم قالوا: ﴿وَمَنْ لَا يُحِب دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ [الأحقاف: ٣٢].

وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن والآية لا تستلزمه<sup>(٢)</sup>.

□ □ □

(١) زاد المعاد (٤/١٥).

(٢) طريق الهجرتين (٣٩٠، ٣٩١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وتعبرهم عنه هاهنا بالطريق فيه نكتة بديعة وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى وأن الكتاب الذي سمعوه مصدقاً لما بين يديه من كتاب موسى وغيره؛ فكان فيه كالنبا عن رسول الله ﷺ، في قوله لقومه: ﴿مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم وإنما بعثت مصدقاً لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان، فقال مؤمنو الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي إلى سبيل مطروق مشت عليه الرسل والأنبياء قبل فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم أن يؤمن به ويصدقه، والله أعلم<sup>(١)</sup>.



## سُورَةُ مُحَمَّدٍ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٦].

[يحتمل أن تكون الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة، فإنه رتب هذا الجزاء على قتلهم.

ويحتمل أن يكون قوله: سيهديهم ويصلح بالهم إخباراً منه سبحانه عما يفعله بهؤلاء الذين قتلوا في سبيله قبل أن قتلوا، وأتى به بصيغة المستقبل إعلماً منه بأنه يجدد له كل وقت نوعاً من أنواع الهداية وإصلاح البال شيئاً بعد شيء.

فإن قلت فكيف يكون ذلك المستقبل خبراً عن الذين قتلوا؟

قلت: الخبر قوله: ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي: أنه لا يبطلها عليهم ولا يترهم إياها، هذا بعد أن قتلوا، ثم أخبر سبحانه خبراً مستأنفاً عنهم أنه سيهديهم ويصلح بالهم لما علم أنهم سيقتلون في سبيله، وأنهم بذلوا أنفسهم له، فلهم جزاء: جزاء في الدنيا بالهداية على الجهاد، وجزاء في الآخرة بدخول الجنة فيرد السامع كل جملة إلى وقتها؛ لظهور المعنى وعدم التباسه، وهو في القرآن كثير، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

□ □ □

قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً.

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: هم أعرف بمنزلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

فأخبر أن حكم الشيء حكم مثله، وكذلك كل موضع أمر الله - سبحانه - فيه بالسير في الأرض، سواء كان السير الحسي على الأقدام والدواب، أو السير المعنوي بالتفكير والاعتبار، أو كان اللفظ يعمهما، وهو الصواب. فإنه يدل على الاعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك، ولهذا أمر سبحانه أولي الأبصار بالاعتبار بما حلّ بالمكذبين<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

قال ابن عباس: يريد على قلوب هؤلاء أقفال. وقال مقاتل: يعني: الطبع على القلب، وكأن القلب بمنزلة الباب المرتج الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بَلَّغْنَا بِهِمْ سَبْعِينَ مِائَةً أَلْفًا مِّن مِّن قَوْلٍ﴾ [محمد: ٣٠].

[وذلك في حق المنافقين]

فالأول: فراسة النظر والعين، ﴿فَلَعَرَفْنَاهُم بِسِيمَتِهِمْ﴾.

والثاني: فراسة الأذن والسمع، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية «رحمته الله» يقول: علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط، بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم. فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، وهو تعريض الخطاب وفحوى الكلام ومغزاه.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماء وما في وجهه. فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية.

(٢) شفاء العليل (٩٥).

(١) إعلام الموقعين (١/١٣٢).

والفراسة تتعلق بالتنوعين: بالنظر والسمع.

وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله. ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]»<sup>(١)(٢)</sup>.

وظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره على وجهه، لكنه يبدو في الوجه بُدُوًّا خفياً يراه الله، ثم يقوى حتى يصير صفة في الوجه يراها أصحاب الفراسة، ثم يقوى حتى يظهر لجمهور الناس ثم يقوى حتى يمسخ الوجه على طبيعة الحيوان الذي هو على خلقه من قرد أو خنزير، كما جرى على كثير من الأمم قبلنا ويجري على بعض هذه الأمة، كما وعد به الصادق الذي لا ينطق عن الهوى<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾

[محمد: ٣٣].

وتفسير الإبطال هاهنا الردة؛ لأنها أعظم المبطلات؛ لا لأن المبطل ينحصر فيها<sup>(٤)</sup>.

\*\*\*

(١) حديث ضعيف رواه الترمذي (٣١٢٧). (٢) مدارج السالكين (٢/٤٨٣).

(٣) الكلام في مسألة السماع (٣٧٢، ٣٧٣). (٤) مدارج السالكين (١/٢٧٨).

## سُورَةُ الْفَتْحِ

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢].

جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا خمسة أشياء:  
أحدها: الفتح المبين.

والثاني: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

والثالث: هدايته الصراط المستقيم.

والرابع: إتمام نعمته عليه.

والخامس: إعطاء النصر العزيز.

وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر؛ لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح، فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته فهو العلم النافع والعمل الصالح، والنصر: القدرة التامة على تنفيذ دينه.

فالحجة والبيان والسيف والسنان فهو النصر بالحجة واليد، وقهر قلوب المخالفين له بالحجة، وقهر أبدانهم باليد، وهو سبحانه كثيراً ما يجمع بين هذين الأصلين؛ إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله.

كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾. في موضعين في سورة [التوبة: ٣٣]، وفي سورة [الصف: ٩]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فهذا الهدى ثم قال: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. فهذا النصر.

فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر.

وقال تعالى: ﴿الَمْ ۚ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَّا أَلَمَّا الْقِيَوْمُ ۝﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿آل عمران: ١-٤﴾. فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان، وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدى أن كلا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل؛ ولهذا سمى تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقاناً، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. فذكر الأصلين، ما أنزله على رسوله يوم الفرقان وهو يوم بدر، وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءَ وَذَكَرَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]. فالفرقان نصره له على فرعون وقومه، والضياء والذكر التوراة هذا هو معنى الآية، ولم يصب من قال: إن الواو زائدة وإن ضياء منصوب على الحال كما بينا فسادَه في [الأمالى المكية].

فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين الهدى والنصر، وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة<sup>(١)</sup>.

□ □ □

قال السهيلي: إن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ نزلت في صلح الحديبية، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح ورأوا أن الرأي خلافه، وكان الله تعالى عما يقولون ورسوله ﷺ أعلم؛ فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية فلم يرد صراطاً مستقيماً في الدين، وإنما أراد صراطاً في الرأي والحرب والمكيدة، انتهى.

وقوله: إن المراد بقوله: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ في الحرب والمكيدة؛ فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله، وأخبر النبي ﷺ: «أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها»<sup>(٢)</sup>، ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطاً مستقيماً.

وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك؟ بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذي أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ

إِنَّهُمْ حَنِيفٌ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: ١٦١]. ونصب ديناً هنا على البدل من الجار والمجرور، أي: هداني ديناً قيماً، أفترأه يمكنه هاهنا أن يقول: إن الحرب والمكيدة. فهذا جواب فاسد جداً<sup>(١)</sup>.

□ □ □

قال عمر - حين نزلت -: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله فما لنا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

علم الله ﷻ ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله وحبسوا الهدي عن محله واشتروطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم وقلقت ولم تطق الصبر فعلم تعالى ما فيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفاً وهو اللطيف الخبير.

وتحتمل الآية وجهاً آخر وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبه ومحبته رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها.

والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها، جعل الله في قلوب أوليائه السكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجه به حمية الجاهلية من كلمة الفجور؛ فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة

الفجور والعدوان على ألسنتهم، فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جنداً من جند الله أيد بها رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم. وثمره هذه السكينة: الطمأنينة للخير تصديقاً وإيقاناً وللأمر تسليماً وإذعاناً، فلا تدع شبهة تعارض الخير، ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوسواس الشيطانية التي يتلى بها العبد؛ ليقوى إيمانه؛ ويعلو عند الله ميزانه بمدافعتها وردّها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله<sup>(١)</sup>.

□ □ □

قوله تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾

وكلمة التقوى هي الكلمة التي يتقى الله بها، وأعلى أنواع هذه الكلمة هي قول: لا إله إلا الله، ثم كل كلمة يتقى الله بها بعدها فهي من كلمة التقوى، وقد أخبر سبحانه أنه ألزمها عباده المؤمنين فجعلها لازمة لهم لا ينفكون عنها، فبالإلزامه التزموها، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها، والتزامها فعل اختياري تابع لإرادتهم واختيارهم فهو الملزم وهم الملتزمون<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامَيْنِ مَخْلِقَيْنِ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

بين سبحانه حكمة ما كرهه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا، وبين لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا فحصل في العام القابل وقال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وهو صلح الحديبية، وهو أول الفتح المذكور في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾. فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخل الناس بعضهم في بعض وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهره لا يخافون.

ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب لا ممن دخل فيه إلى ذلك الوقت،

(١) إعلام الموقعين (٤/٢٥٤، ٢٥٥). (٢) شفاء العليل (٦٠).

وظهر لكل أحد بغى المشركين وعداوتهم وعنادهم، وعلم الخاص والعام أن محمداً وأصحابه أولي الحق والهدى، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلا العدوان والعناد، فإن البيت الحرام لم يصد عنه حاج ولا معتمر من زمن إبراهيم، فتحققت العرب عناد قريش وعداوتهم، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلى الإسلام، وزاد عناد القوم وطغيانهم، وذلك من أكبر العون على نفوسهم، وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم، إلى غير ذلك من الأمور التي علمها الله ولم يعلمها الصحابة؛ ولهذا سماه فتحاً، وسئل النبي ﷺ أفتح هو؟ قال: «نعم»<sup>(١)(٢)</sup>.

□ □ □

وانظر قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، كيف جعل فعل الشرط ماضياً والجزاء مستقبلاً؛ لأن القصد كان إلى دخولهم المسجد الحرام، وعنايتهم كلها مصروفة، وهمهم معلقة به دون وقوع الأفعال بمشيئة الله تعالى، فإنهم لم يكونوا يشكون في ذلك ولا يرتابون، وأكد هذا المعنى تقديم الجزاء على الشرط، وهو إما نفس الجزاء على أصح القولين دليلاً كما تقدم تقريره، وإما دال على الجزاء وهو محذوف مقدر تأخير، وعلى القولين؛ فتقدم الجزاء أو تقديم ما يدل عليه اعتناء بأمره وتجريداً للقصد إليه، ويدل عليه أيضاً تأكيد باللام المؤذنة بالقسم المضمّر، كأنه قيل: والله لتدخلن المسجد الحرام فهذا كله يدل على أنه هو المقصود المعني به<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

قوله تعالى: ﴿يُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

هذا شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان، بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم، فكونه سبحانه شاهداً لرسوله، معلوم بسائر أنواع الأدلة، عقليها ونقلها وفطريها وضروريها ونظريها. ومن نظر في ذلك وتأمله: علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة وأعدلها وأظهرها، وصدقه بسائر أنواع التصديق، بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده من الإقرار بكماله<sup>(٤)</sup>.

(١) رواه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥). (٢) شفاء العليل (٣٤).

(٣) بدائع الفوائد (١/١٠٦، ١٠٧). (٤) مدارج السالكين (٣/٤٧٠).

## فهرس الموضوعات

### الموضوع

### الصفحة

#### ● سورة التوبة ●

- قوله تعالى: ﴿فَتِلْوُهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ...﴾ الآيات (١٤ - ١٥) ..... ٥
- قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا...﴾ الآية (١٦) ..... ٥
- قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ...﴾ الآيات (١٩ - ٢٠) ..... ٦
- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ...﴾ الآية (٢٤) ..... ٦
- قوله تعالى: ﴿فَتِلْوُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ...﴾ الآية (٢٩) ..... ٨
- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبْتُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ...﴾ الآية (٣٧) ..... ٩
- قوله تعالى: ﴿إِذَا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...﴾ الآية (٤٠) ..... ١٠
- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَنْزِلُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ الآيات (٤٥ - ٤٧) ..... ١٠
- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَشَذَّنْ لِي...﴾ الآية (٤٩) ..... ١٤
- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ...﴾ الآية (٥٢) ..... ١٤
- قوله تعالى: ﴿فَلَا تُنْجِيكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ...﴾ الآية (٥٥) ..... ١٥
- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ...﴾ الآيات (٦١ - ٦٣) ..... ١٦
- قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً...﴾ الآية (٦٩) ..... ١٧
- قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ...﴾ الآية (٧٢) ..... ١٩
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ...﴾ الآية (٧٣) ..... ٢٠
- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ مَاتْنَا...﴾ الآية (٧٥) ..... ٢٠
- قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالْأَنْصَارُ...﴾ الآية (١٠٠) ..... ٢١
- قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ...﴾ الآية (١٠٣) ..... ٢١
- قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَكُمْ عَلَى تَقْوَى...﴾ الآية (١٠٩) ..... ٢٢
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ...﴾ الآيات (١١١، ١١٢) ..... ٢٣
- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا...﴾ الآية (١١٥) ..... ٢٤
- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ الآية (١١٧) ..... ٢٤

الموضوع

الصفحة

- قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَوْا...﴾ الآية (١١٨) ..... ٢٥
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ الآية (١١٩) ..... ٢٦
- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ...﴾ الآيتان (١٢٠ - ١٢١) .... ٢٦
- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَافَّةً...﴾ الآية (١٢٢) ..... ٢٧
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ...﴾ الآية (١٢٧) ..... ٢٨

● سورة يونس ●

- قوله تعالى: ﴿رَبِّشِرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ...﴾ الآية (٢) ..... ٣١
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ...﴾ الآية (١١) ..... ٣١
- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية (١٦) ..... ٣٢
- قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ...﴾ الآية (١٨) ..... ٣٢
- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَلٍّ...﴾ الآيتان (٢٤، ٢٥) ..... ٣٤
- قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ...﴾ الآية (٢٦) ..... ٣٥
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية (٣١) ..... ٣٥
- قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ...﴾ الآية (٣٢) ..... ٣٦
- قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ...﴾ الآية (٣٩) ..... ٣٧
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ الآية (٥٧) ..... ٣٧
- قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ...﴾ الآية (٥٨) ..... ٣٨
- قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ...﴾ الآية (٦٢) ..... ٤٠
- قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا...﴾ الآية (٨٧) ..... ٤١
- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ...﴾ الآية (٩٤) ..... ٤١
- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ الآية (١٠٠) ..... ٤٤

● سورة هود ●

- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبُّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا...﴾ الآية (٣) ..... ٤٦
- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآية (٧) ..... ٤٦
- قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ الآية (١١) ..... ٤٧
- قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...﴾ الآيتان (١٥، ١٦) ..... ٤٧
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾ الآيتان (١٨، ١٩) ..... ٥١
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا...﴾ الآية (٢٣) ..... ٥٣

- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْحَى وَالْأَصْمَى...﴾ الآية (٢٤) ..... ٥٣
- قوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا...﴾ الآية (٢٧) ..... ٥٣
- قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ...﴾ الآية (٣١) ..... ٥٤
- قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ...﴾ الآية (٤٣) ..... ٥٥
- قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ...﴾ الآيات (٥٤ - ٥٦) ..... ٥٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى...﴾ الآيات (٦٩ - ٧٢) ..... ٥٧
- قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ...﴾ الآيات (٧٨ - ٨٣) ..... ٥٩
- قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ...﴾ الآية (١١٤) ..... ٦١
- قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ...﴾ الآية (١١٦) ..... ٦١
- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ...﴾ الآية (١١٧) ..... ٦١

● سورة يوسف ●

- قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ...﴾ الآية (١٩) ..... ٦٣
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ...﴾ - إلى قوله - ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي...﴾ الآيات (٢٤ - ٥٣) . ٦٣
- قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ...﴾ الآية (٤٠) ..... ٦٨
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفَتْنِهِ اجْعَلُوا يَضَعُكُمْ فِي رِحَالِهِمْ...﴾ الآيات (٦٢ - ٧٦) ..... ٦٩
- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَّهُ...﴾ الآية (٧٧) ..... ٧٥
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ...﴾ الآية (٩٩) ..... ٧٦
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ...﴾ الآية (١٠٠) ..... ٧٦
- قوله تعالى: ﴿فَاطْرَأَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا...﴾ الآية (١٠١) ..... ٧٦
- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ...﴾ الآية (١٠٨) ..... ٧٧

● سورة الرعد ●

- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ...﴾ الآية (٥) ..... ٧٨
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى...﴾ الآية (٨) ..... ٧٨
- قوله تعالى: ﴿لَمْ مَعَقِبْتُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ...﴾ الآية (١١) ..... ٧٩
- قوله تعالى: ﴿لَمْ دَعَاَ الْحَقُّ...﴾ الآية (١٤) ..... ٨٠
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية (١٦) ..... ٨٠
- قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...﴾ الآية (١٧) ..... ٨٠
- قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى...﴾ الآية (١٨) ..... ٨٤

## الموضوع

## الصفحة

- قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّنَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ...﴾ الآية (١٩) ..... ٨٥
- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِكَ الْأَتْبَابُ...﴾ الآيات (١٩ - ٢٢) ..... ٨٦
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ...﴾ الآية (٢٨) ..... ٨٧

## ● سورة إبراهيم ●

- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا...﴾ الآية (٥) ..... ٩٠
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ لَمِنْ شُكْرِكُمْ لَا رَيْدَ نَكَمٌ...﴾ الآية (٧) ..... ٩٠
- قوله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ الآية (١٠) ..... ٩١
- قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ...﴾ الآية (١٢) ..... ٩١
- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ...﴾ الآية (١٨) ..... ٩١
- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً...﴾ الآيات (٢٤ - ٢٦) ..... ٩٢
- قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ...﴾ الآية (٢٧) ..... ٩٧
- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا...﴾ الآية (٣٤) ..... ٩٨
- قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا...﴾ الآية (٣٥) ..... ٩٨
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ...﴾ الآية (٣٩) ..... ٩٩
- قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ...﴾ الآية (٤٦) ..... ٩٩

## ● سورة الحجر ●

- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ...﴾ الآيات (١١ - ١٣) .. ١٠٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَمِنْ مَنِئْوَ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ...﴾ الآية (٢١) ..... ١٠١
- قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ...﴾ الآية (٤١) ..... ١٠٢
- قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ...﴾ الآية (٤٧) ..... ١٠٤
- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ...﴾ الآيات (٧٠ - ٧٢) ..... ١٠٤
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية (٧٥) ..... ١٠٥
- قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْفَعْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآيات (٩٢ - ٩٣) ..... ١٠٨
- قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ الآية (٩٤) ..... ١٠٨
- قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ الآية (٩٩) ..... ١٠٨

## ● سورة النحل ●

- قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ الآية (٢) ..... ١٠٩

الموضوع

الصفحة

- قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ...﴾ الآية (٩) ..... ١٠٩
- قوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا...﴾ الآية (٣٠) ..... ١٠٩
- قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ...﴾ الآيتان (٣٨ - ٣٩) ..... ١١٠
- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا...﴾ الآيتان (٤٣، ٤٤) ..... ١١٠
- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآيتان (٤٩، ٥٠) ..... ١١٠
- قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ...﴾ الآية (٦٠) ..... ١١١
- قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ...﴾ الآية (٦٩) ..... ١١٣
- قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا...﴾ الآيتان (٧٥ - ٧٦) ..... ١١٤
- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَمِهِمْ...﴾ الآية (٧٨) ..... ١١٥
- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا...﴾ الآية (٨١) ..... ١١٧
- قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا...﴾ الآية (٨٣) ..... ١١٧
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية (٨٨) ..... ١١٩
- قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ الآية (٩٧) ..... ١١٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ...﴾ الآيات (٩٨ - ١٠٠) ..... ١٢١
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَاتٍ آيَةً...﴾ الآية (١٠١) ..... ١٢٧
- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ إِنْزِيلَهُ كَانَ أُمَّةً...﴾ الآيات (١٢٠ - ١٢٢) ..... ١٢٧
- قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ...﴾ الآية (١٢٥) ..... ١٢٩
- قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ...﴾ الآية (١٢٧) ..... ١٣٠

سورة الإسراء

- قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ...﴾ الآية (١) ..... ١٣٢
- قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ...﴾ الآية (١٣) ..... ١٣٣
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا...﴾ الآية (١٦) ..... ١٣٤
- قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ...﴾ الآيتان (١٨ - ١٩) ..... ١٣٥
- قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ الآية (٢٢) ..... ١٣٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ...﴾ الآية (٣٢) ..... ١٣٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾ الآية (٣٦) ..... ١٣٧
- قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا...﴾ الآية (٣٨) ..... ١٣٧
- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ...﴾ الآية (٤٢) ..... ١٣٧
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا...﴾ الآية (٤٥) ..... ١٣٨

الموضوع

الصفحة

- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا...﴾ الآيات (٤٩ - ٥٢) ..... ١٣٩
- قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ الآية (٥٣) ..... ١٤٠
- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ...﴾ الآيتان (٥٦، ٥٧) ..... ١٤٠
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَتَوَدَّ الثَّاقَفَ مَبْصُرَةً...﴾ الآية (٥٩) ..... ١٤١
- قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ...﴾ الآية (٦٣) ..... ١٤١
- قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَغَتْ مِنْهُمْ...﴾ الآية (٦٤) ..... ١٤٢
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الآية (٧٠) ..... ١٤٤
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّنَاكَ﴾ الآية (٧٤) ..... ١٤٤
- قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الصَّلَاةَ لِلَّذِينَ أَلْسَمِيسَ...﴾ الآية (٧٨) ..... ١٤٤
- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَلْبَلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ...﴾ الآية (٧٩) ..... ١٤٧
- قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَدْعِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ...﴾ الآية (٨٠) ..... ١٤٩
- قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ...﴾ الآية (٨٢) ..... ١٥١
- قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ...﴾ الآية (٨٤) ..... ١٥١
- قوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾ الآية (٨٥) ..... ١٥٢
- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية (٩٩) ..... ١٥٤
- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ...﴾ الآية (١٠٢) ..... ١٥٥
- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ...﴾ الآية (١١٠) ..... ١٥٦

• سورة الكهف •

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً...﴾ الآية (٧) ..... ١٥٧
- قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ...﴾ الآية (١٤) ..... ١٥٧
- قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُمْ كَلْبُهُمْ...﴾ الآية (٢٢) ..... ١٥٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ الآيتان (٢٣ - ٢٤) ..... ١٥٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا...﴾ الآية (٢٨) ..... ١٥٩
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآيتان (٣٠ - ٣١) ..... ١٦١
- قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ الآية (٤٦) ..... ١٦١
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ الآية (٥٠) ..... ١٦١
- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَدَاءُكَ لَقَدْ لَقِينَا...﴾ الآية (٦٢) ..... ١٦٢
- قوله تعالى: ﴿فَاطْلُقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا...﴾ الآية (٧٤) ..... ١٦٢
- قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ...﴾ الآية (٧٩) ..... ١٦٤

- قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئْهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِّاً...﴾ الآية (٨٤) ..... ١٦٥
- قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا...﴾ الآية (١٠٠، ١٠١) ..... ١٦٥
- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ...﴾ الآية (١٠٣، ١٠٤) ..... ١٦٦
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ الآية (١٠٧، ١٠٨) ..... ١٦٧
- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ...﴾ الآية (١١٠) ..... ١٦٧

• سورة مريم •

- قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ الآية (٤) ..... ١٦٩
- قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ...﴾ الآية (١٥، ٣٣) ..... ١٦٩
- قوله تعالى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ...﴾ الآية (٣٠، ٣١) ..... ١٧٠
- قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْمَصْرَةِ...﴾ الآية (٣٩) ..... ١٧١
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ...﴾ الآية (٤٢ - ٤٣) ..... ١٧٤
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ الآية (٤٥) ..... ١٧٤
- قوله تعالى: ﴿وَحَلَفَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ...﴾ الآية (٥٩) ..... ١٧٥
- قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ...﴾ الآية (٦٤، ٦٥) ..... ١٧٥
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَزَعْنِ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ...﴾ الآية (٦٩) ..... ١٧٦
- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ...﴾ الآية (٨٣) ..... ١٧٦

• سورة طه •

- قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي...﴾ الآية (١٤) ..... ١٧٩
- قوله تعالى: ﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا...﴾ الآية (٤٠) ..... ١٧٩
- قوله تعالى: ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ الآية (٤١) ..... ١٧٩
- قوله تعالى: ﴿فَأَنبِئْهُمْ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ...﴾ الآية (٤٧، ٤٨) ..... ١٨٠
- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ الآية (٤٩، ٥٠) ..... ١٨١
- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيَلِكُمْ...﴾ الآية (٦١) ..... ١٨٣
- قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا﴾ الآية (٧٢) ..... ١٨٤
- قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ...﴾ الآية (٨٦ - ٩٧) ..... ١٨٤
- قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ...﴾ الآية (١٠٨) ..... ١٨٨
- قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ...﴾ الآية (١١٠) ..... ١٨٨
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ الآية (١١٢) ..... ١٨٩

الموضوع

الصفحة

- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ...﴾ الآية (١١٥) ..... ١٨٩
- قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى...﴾ الآية (١١٧) ..... ١٨٩
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى...﴾ الآيتان (١١٨، ١١٩) ..... ١٨٩
- قوله تعالى: ﴿فَمِنْ أَتْبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ الآية (١٢٣) ..... ١٩٠
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً...﴾ الآية (١٢٤) ..... ١٩٠
- قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ الآية (١٢٤ - ١٢٥) ..... ١٩٢

• سورة الأنبياء •

- قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْزِلَ هَؤُلَاءِ...﴾ الآيتان (١٧ - ١٨) ..... ١٩٥
- قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآيتان (١٩ - ٢٠) ..... ١٩٥
- قوله تعالى: ﴿أَوِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآيات (٢١ - ٢٣) ..... ١٩٦
- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشِّرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ...﴾ الآية (٣٤) ..... ١٩٦
- قوله تعالى: ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً...﴾ الآية (٣٥) ..... ١٩٧
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ الآية (٤٢) ..... ١٩٧
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ...﴾ الآية (٥١) ..... ١٩٧
- قوله تعالى: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَشْرَ لَهَا عَنْكُمُوهُ...﴾ الآية (٥٢) ..... ١٩٨
- قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ...﴾ الآيات (٧٨ - ٧٩) ..... ١٩٩
- قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَفَنَسِىَ الْغُصْرُ...﴾ الآية (٨٣) ..... ٢٠٠
- قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ...﴾ الآية (٩٠) ..... ٢٠١
- قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ...﴾ الآيات (٩٨ - ١٠٢) .. ٢٠١
- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتُبِ...﴾ الآية (١٠٤) ..... ٢٠٥
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ...﴾ الآيتان (١٠٥، ١٠٦) ..... ٢٠٦
- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الآية (١٠٧) ..... ٢٠٧

• سورة الحج •

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ...﴾ الآيتان (١، ٢) ..... ٢٠٨
- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ الآيات (٣ - ٤، ٨ - ٩) .. ٢٠٩/٢٠٨
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ...﴾ الآية (٥) ..... ٢١١
- قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً...﴾ الآيات (٥ - ٧) ..... ٢١١
- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ...﴾ الآية (١٨) ..... ٢١٢

الصفحة

الموضوع

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ...﴾ الآية (٢٣) ..... ٢١٢
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ...﴾ الآية (٢٥) ..... ٢١٣
- قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ...﴾ الآية (٢٧) ..... ٢١٣
- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ...﴾ الآية (٣٠) ..... ٢١٣
- قوله تعالى: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ...﴾ الآيتان (٣٠، ٣١) ..... ٢١٤
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾ الآيتان (٣٦، ٣٧) ..... ٢١٥
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية (٣٨) ..... ٢١٥
- قوله تعالى: ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا...﴾ الآية (٣٩) ..... ٢١٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ...﴾ الآية (٤٠) ..... ٢١٧
- قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً...﴾ الآيتان (٥٣، ٥٤) ..... ٢١٩
- قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ...﴾ الآية (٦١) ..... ٢٢٠
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَجِيعُوا لَهُ...﴾ الآيتان (٧٣، ٧٤) ..... ٢٢١
- قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ...﴾ الآية (٧٨) ..... ٢٢٣
- قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ الآية (٧٨) ..... ٢٢٦

سورة المؤمنون

- قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية (١ - ٧) ..... ٢٢٧
- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الآية (١٠، ١١) ..... ٢٢٧
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية (١٢ - ١٦) ..... ٢٢٨
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ...﴾ الآيات (٥١ - ٥٣) ..... ٢٢٨
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا﴾ الآيتان (٦٠ - ٦١) ..... ٢٢٩
- قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ...﴾ الآيات (٦٨ - ٧١) ..... ٢٢٩
- قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ...﴾ الآية (٩١) ..... ٢٣٠
- قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ الآية (٩٧، ٩٨) ..... ٢٣١
- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ...﴾ الآيتان (٩٩، ١٠٠) ..... ٢٣٢
- قوله تعالى: ﴿أَفَحَصِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا...﴾ الآيتان (١١٥، ١١٦) ..... ٢٣٢

سورة النور

- قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً...﴾ الآية (٣) ..... ٢٣٣
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الآيات (٦ - ٩) ..... ٢٣٥ / ٢٣٤

الموضوع

الصفحة

- قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ...﴾ الآية (١٣) ..... ٢٣٥
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية (٢١) ..... ٢٣٥
- قوله تعالى: ﴿الْحَيِّثُ لِلْحَيِّثِينَ...﴾ الآية (٢٦) ..... ٢٣٦
- قوله تعالى: ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَنْصَرِهِمْ...﴾ الآية (٣٠) ..... ٢٣٧
- قوله تعالى: ﴿وَلَا بَصَرِينَ يَازِجِلُهُنَّ...﴾ الآية (٣١) ..... ٢٣٨
- قوله تعالى: ﴿وَأَنْكَحُوا الْأَنْعَى مِنْكُمْ...﴾ الآيات (٣٢ - ٣٣) ..... ٢٣٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَكُمْ عَلَى الْإِغَاءِ...﴾ الآية (٣٣) ..... ٢٣٩
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية (٣٥) ..... ٢٣٩
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْنَاهُمْ كَسْرِبَ يَقِيعَةٍ﴾ الآيات (٣٩ - ٤٠) ..... ٢٤٣
- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ...﴾ الآية (٤٥) ..... ٢٤٨
- قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ...﴾ الآية (٥٤) ..... ٢٤٩
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَنَازِحَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾ الآية (٥٨) ..... ٢٤٩
- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ...﴾ الآية (٦٢) ..... ٢٥٠
- قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا...﴾ الآية (٦٣) ... ٢٥٠

● سورة الفرقان ●

- قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ...﴾ الآية (١) ..... ٢٥١
- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ...﴾ الآيات (٧، ٨) ..... ٢٥٣
- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ...﴾ الآيات (١٧ - ١٩) ..... ٢٥٤
- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً...﴾ الآية (٢٠) ..... ٢٥٦
- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ...﴾ الآيات (٢٧ - ٢٩) ..... ٢٥٨
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي...﴾ الآية (٣٠) ..... ٢٥٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ...﴾ الآية (٣٣) ..... ٢٥٩
- قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ...﴾ الآية (٤٤) ..... ٢٦٠
- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ...﴾ الآيات (٤٥، ٤٦) ..... ٢٦٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَغَشَّيْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ الآية (٥١، ٥٢) ..... ٢٦١
- قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ...﴾ الآية (٥٥) ..... ٢٦١
- قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا...﴾ الآيات (٦١، ٦٢) ..... ٢٦٢
- قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...﴾ الآية (٦٣) ..... ٢٦٥
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا...﴾ الآية (٦٥) ..... ٢٦٦

الصفحة

الموضوع

- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ الآية (٦٧) ..... ٢٦٦
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ الآيات (٦٨ - ٧٠) ..... ٢٦٦
- قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ...﴾ الآية (٧٠) ..... ٢٦٧
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ...﴾ الآية (٧١) ..... ٢٦٩
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ...﴾ الآية (٧٢) ..... ٢٧٠
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ...﴾ الآية (٧٣) ..... ٢٧١
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا...﴾ الآية (٧٤) ..... ٢٧٢
- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا...﴾ الآية (٧٥) ..... ٢٧٣
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُوكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ...﴾ الآية (٧٧) ..... ٢٧٤

سورة الشعراء

- قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ الآيات (٧٥ - ٧٧) ..... ٢٧٥
- قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ الآية (٨٤) ..... ٢٧٥
- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ الآية (٨٨ - ٨٩) ..... ٢٧٥
- قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الآيات (٩٧، ٩٨) ..... ٢٧٧

سورة النمل

- قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ...﴾ الآية (١٦) ..... ٢٧٩
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّحْلُ...﴾ الآية (١٨) ..... ٢٧٩
- قوله تعالى: ﴿وَنَقَّذَ الطَّيْرَ...﴾ الآيات (٢٠ - ٢٤) ..... ٢٨٢
- قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ...﴾ الآيات (٥٩ - ٦٠) ..... ٢٨٤
- قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ الآية (٧٩) ..... ٢٨٦
- قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى...﴾ الآية (٨٠) ..... ٢٨٧

سورة القصص

- قوله تعالى: ﴿فَالنَّفْطَةُءُءَالُ فِرْعَوْنَ...﴾ الآية (٨) ..... ٢٨٨
- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ...﴾ الآية (٤١) ..... ٢٨٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ...﴾ الآية (٤٧) ..... ٢٨٨
- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ...﴾ الآية (٥٠) ..... ٢٨٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ...﴾ الآية (٥٥) ..... ٢٩٠

الموضوع

الصفحة

- قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ...﴾ الآية (٦٤) ..... ٢٩٠  
 قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ...﴾ الآية (٦٨) ..... ٢٩٠  
 قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا...﴾ الآيتان (٧١، ٧٢) ..... ٢٩١  
 قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي...﴾ الآية (٧٨) ..... ٢٩٢  
 قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...﴾ الآية (٨٨) ..... ٢٩٢

● سورة العنكبوت ●

- قوله تعالى: ﴿الْعَمَّ ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ الآيات (١ - ٦) ..... ٢٩٥  
 قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ...﴾ الآية (٨) ..... ٢٩٨  
 قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا...﴾ الآية (١٠) ..... ٢٩٨  
 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ الآية (١٤) ..... ٢٩٩  
 قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ الآية (٢٠) ..... ٢٩٩  
 قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآية (٤١) ..... ٢٩٩  
 قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ الآية (٤٣) ..... ٣٠٠  
 قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ...﴾ الآية (٤٥) ..... ٣٠١  
 قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾ الآيات (٤٧ - ٤٩) ..... ٣٠٢  
 قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾ الآية (٥١) ..... ٣٠٢  
 قوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ لِهِيَ الْحَيَوَانُ...﴾ الآية (٦٤) ..... ٣٠٣  
 قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا...﴾ الآية (٦٩) ..... ٣٠٤

● سورة الروم ●

- قوله تعالى: ﴿الْعَمَّ ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ الآيات (١ - ٤) ..... ٣٠٥  
 قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُنْفَرُونَ﴾ الآيتان (١٤، ١٥) ..... ٣٠٥  
 قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ...﴾ الآية (١٩) ..... ٣٠٩  
 قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ...﴾ الآيات (٢٠ - ٢٥) ..... ٣٠٩  
 قوله تعالى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآية (٢٨) ..... ٣١٠  
 قوله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا...﴾ الآية (٣٠) ..... ٣١٠  
 قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾ الآية (٤١) ..... ٣١٣  
 قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية (٤٧) ..... ٣١٥

● سورة لقمان ●

- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهَوَ الْحَدِيثِ...﴾ الآيتان (٦، ٧) ..... ٣١٦
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ الآية (٨) ..... ٣١٨
- قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ...﴾ الآية (١١) ..... ٣١٩
- قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَن أَنَابَ إِلَيَّ...﴾ الآية (١٥) ..... ٣١٩
- قوله تعالى: ﴿يَبْنِي أَعْمَرَ الصَّلَاةِ...﴾ الآية (١٧) ..... ٣١٩
- قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ...﴾ الآية (١٩) ..... ٣١٩
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ...﴾ الآية (٢٧) ..... ٣٢٠

● سورة السجدة ●

- قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الآيتان (١، ٢) ..... ٣٢١
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآيات (٤ - ٦) ..... ٣٢١
- قوله تعالى: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ...﴾ الآيتان (١٦، ١٧) ..... ٣٢٢
- قوله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى...﴾ الآية (٢١) ..... ٣٢٣
- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً...﴾ الآية (٢٤) ..... ٣٢٣

● سورة الأحزاب ●

- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ أَنَّى اللَّهُ...﴾ الآيات (١ - ٣) ..... ٣٢٤
- قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية (٦)، وبيان منزلة الرسول ﷺ ..... ٣٢٦
- قوله تعالى: ﴿لَيْسَتِ الْأَصْدِيقِينَ عَنِ صِدْقِهِمْ...﴾ الآية (٨) ..... ٣٢٧
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ الآية (١٠) ..... ٣٢٧
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِيكُم مِّنَ اللَّهِ...﴾ الآية (١٧) ..... ٣٢٨
- قوله تعالى: ﴿يَنسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ﴾ الآيتان (٣٠ - ٣١) ..... ٣٢٩
- قوله تعالى: ﴿يَنسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ...﴾ الآية (٣٢) ..... ٣٢٩
- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ...﴾ الآية (٣٦) ..... ٣٢٩
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ...﴾ الآية (٣٧) ..... ٣٣٠
- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ...﴾ الآيتان (٤١، ٤٢) ..... ٣٣١
- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ الآية (٤٣) ..... ٣٣٢
- قوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُّؤْمَنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا...﴾ الآية (٥٠) ..... ٣٣٦
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ الآية (٥٦) ..... ٣٣٦

الموضوع

الصفحة

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ...﴾ الآية (٥٧) ..... ٣٣٧
- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ...﴾ الآيات (٦٦ - ٦٨) ..... ٣٣٨

● سورة سبأ ●

- قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَأْ فِي السَّمَوَاتِ...﴾ الآيتان (١، ٢) ..... ٣٣٩
- قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...﴾ الآية (٦) ..... ٣٤١
- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآيتان (٢٢، ٢٣) ..... ٣٤١
- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ...﴾ الآية (٢٣) ..... ٣٤٢
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ...﴾ الآية (٢٤) ..... ٣٤٢
- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ...﴾ الآية (٣٧) ..... ٣٤٣
- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بِوَحْدَةٍ...﴾ الآية (٤٦) ..... ٣٤٤
- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ...﴾ الآية (٥٠) ..... ٣٤٥

● سورة فاطر ●

- قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ...﴾ الآية (١) ..... ٣٤٦
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ...﴾ الآية (٦) ..... ٣٤٦
- قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ...﴾ الآية (١٠) ..... ٣٤٦
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ...﴾ الآية (١٥) ..... ٣٤٧
- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ...﴾ الآيات (١٩ - ٢٢) ..... ٣٤٨
- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ الآية (٢٨) ..... ٣٤٨
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا...﴾ الآيتان (٣٢ - ٣٣) ..... ٣٥٠
- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ...﴾ الآية (٣٧) ..... ٣٥٤
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ...﴾ الآية (٤١) ..... ٣٥٥

● سورة يس ●

- قوله تعالى: ﴿يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ۝﴾ الآيات (١ - ٤) ..... ٣٥٦
- قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ...﴾ الآيات (٧ - ٩) ..... ٣٥٦
- قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ...﴾ الآية (١٢) ..... ٣٥٨
- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْفِقُونَ أَنْبِئُوا الْمُرْسَلِينَ...﴾ الآيات (٢٠ - ٢٤) ..... ٣٦٠
- قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَنْظِلُمْ نَفْسٌ شَيْئًا...﴾ الآية (٥٤) ..... ٣٦١

الصفحة

الموضوع

- قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ...﴾ الآيات (٦٩، ٧٠) ..... ٣٦١
- قوله تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ...﴾ الآيات (٧٧ - ٨٣) ..... ٣٦٢

• سورة الصافات •

- قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ الآيات (١ - ٥) ..... ٣٦٥
- قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ﴾ الآيات (٦ - ٧) ..... ٣٦٦
- قوله تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ الآيات (٢٢ - ٢٣) ..... ٣٦٦
- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الآيات (٣٥ - ٣٧) .. ٣٦٧
- قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ الآيات (٥٠ - ٥٧) ..... ٣٦٧
- قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ الآيات (٦٢ - ٦٤) ..... ٣٦٨
- قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ الآيات (٧٨ - ٨٠) ..... ٣٦٩
- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ الآيات (٨٥ - ٨٧) ..... ٣٦٩
- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الآية (٩٦) ..... ٣٧٠
- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ الآية (١٠٣) ..... ٣٧٢
- قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَى إِبْلِيسَ﴾ الآية (١٣٠) ..... ٣٧٣
- قوله تعالى: ﴿وَرَأَى بُرْهَانَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآيات (١٣٩ - ١٤١) ..... ٣٧٥
- قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ الآيات (١٥٩ - ١٦٠) ..... ٣٧٥
- قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الآيات (١٨٠ - ١٨٢) ..... ٣٧٥

• سورة ص •

- قوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ الآية (١) ..... ٣٧٧
- قوله تعالى: ﴿أَجْمَلُ آلِهَةٍ إِلَهًا وَحِيدًا...﴾ الآية (٥) ..... ٣٧٧
- قوله تعالى: ﴿فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ...﴾ الآية (٢٥) ..... ٣٧٨
- قوله تعالى: ﴿يَنْدَادُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً...﴾ الآية (٢٦) ..... ٣٧٨
- قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ...﴾ الآية (٢٧) ..... ٣٧٨
- قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآية (٢٨) ..... ٣٧٨
- قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ...﴾ الآية (٣٩) ..... ٣٧٩
- قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا...﴾ الآية (٤٤) ..... ٣٧٩
- قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ...﴾ الآيات (٤٥ - ٤٦) ..... ٣٨١
- قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ عِنْدَنَا لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ...﴾ الآية (٤٧) ..... ٣٨٢

الموضوع

الصفحة

- قوله تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مِّنْهُمْ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى الْيَوْمِ الْأَوَّلِ...﴾ الآية (٥٠ - ٥١) ..... ٣٨٢
- قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ...﴾ الآية (٥٧ - ٦١) ..... ٣٨٣
- قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدِكَ﴾ الآية (٧٥) ..... ٣٨٤
- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الآية (٧٩) ..... ٣٨٥
- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُخَوِّفُهُمْ...﴾ الآية (٨٢، ٨٣) ..... ٣٨٥

سورة الزمر

- قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾ الآية (٣) ..... ٣٨٦
- قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ...﴾ الآية (٦) ..... ٣٨٦
- قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ...﴾ الآية (١٧ - ١٨) ..... ٣٨٧
- قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا...﴾ الآية (٢٩) ..... ٣٨٩
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾ الآية (٤٢) ..... ٣٩٠
- قوله تعالى: ﴿أَوِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ...﴾ الآية (٤٣ - ٤٤) ..... ٣٩١
- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا...﴾ الآية (٤٩) ..... ٣٩٤
- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا...﴾ الآية (٥٣) ..... ٣٩٤
- قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ...﴾ الآية (٥٤) ..... ٣٩٥
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ الآية (٦٢) ..... ٣٩٥
- قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ الآية (٦٧) ..... ٣٩٦
- قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ...﴾ الآية (٦٨) ..... ٣٩٧
- قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ...﴾ الآية (٦٩) ..... ٤٠١
- قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ...﴾ الآية (٧١) ..... ٤٠١
- قوله تعالى: ﴿وَلَكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ الآية (٧١) ..... ٤٠٢
- قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ...﴾ الآية (٧٣) ..... ٤٠٢
- قوله تعالى: ﴿وَنَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ...﴾ الآية (٧٥) ..... ٤٠٣

سورة غافر

- قوله تعالى: ﴿حَمِّمْ﴾ الآية (١ - ٣) ..... ٤٠٤
- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً...﴾ الآية (٧) ..... ٤٠٦
- قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ...﴾ الآية (٩) ..... ٤٠٧
- قوله تعالى: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ الآية (١٥) ..... ٤٠٨

- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ...﴾ الآية (٣٧) ..... ٤٠٨
- قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا...﴾ الآية (٤٦) ..... ٤٠٩
- قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ...﴾ الآية (٥٧) ..... ٤٠٩

● سورة فصلت ●

- قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ...﴾ الآيتان (٦ - ٧) ..... ٤١١
- قوله تعالى: ﴿أَيُنَظِّمُونَ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ...﴾ الآيتان (٩ - ١٠) ..... ٤١١
- قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا...﴾ الآية (١٦) ..... ٤١١
- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَمَهْدِيْنَهُمْ﴾ الآية (١٧) ..... ٤١٢
- قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ﴾ الآية (٢٣) ..... ٤١٣
- قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ...﴾ الآية (٢٤) ..... ٤١٣
- قوله تعالى: ﴿وَقِيَصْنَا لَهُمْ قُرْآنًا...﴾ الآية (٢٥) ..... ٤١٥
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾ الآيات (٣٠ - ٣٢) ..... ٤١٦
- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ...﴾ الآية (٣٣) ..... ٤١٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ...﴾ الآيات (٣٤ - ٣٦) ..... ٤١٧
- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً...﴾ الآية (٣٩) ..... ٤١٩
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَا آذَانُهُمْ وَقُرْ...﴾ الآية (٤٤) ..... ٤١٩
- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ...﴾ الآيتان (٤٩ - ٥٠) ..... ٤٢٠
- قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ...﴾ الآية (٥٣) ..... ٤٢٠

● سورة الشورى ●

- قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ...﴾ الآية (١٠) ..... ٤٢٢
- قوله تعالى: ﴿جَعَلْ لَّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا...﴾ الآية (١١) ..... ٤٢٢
- قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ...﴾ الآيات (١٣ - ١٥) ..... ٤٢٣
- قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ الآية (٢٠) ..... ٤٢٥
- قوله تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ...﴾ الآية (٢٢) ..... ٤٢٥
- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَشْتَلِكُمْ عَلَيْهِ أَحْرًا﴾ الآية (٢٣) ..... ٤٢٦
- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾ الآية (٢٤) ..... ٤٢٦
- قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ...﴾ الآيتان (٣٦ - ٣٧) ..... ٤٢٩
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ...﴾ الآيتان (٣٩ - ٤٠) ..... ٤٢٩

الموضوع

الصفحة

- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً...﴾ الآية (٤٨) ..... ٤٣٠  
 قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآيتان (٤٩ - ٥٠) ..... ٤٣١  
 قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا...﴾ الآية (٥٢) ..... ٤٣٤

● سورة الزخرف ●

- قوله تعالى: ﴿حَمِّمَ﴾ و﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾... الآية (١ - ٤) ..... ٤٣٦  
 قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا...﴾ الآية (٥) ..... ٤٣٦  
 قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ...﴾ الآيتان (١٧ - ١٨) ..... ٤٣٧  
 قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ...﴾ الآيتان (٢٦ - ٢٨) ..... ٤٣٧  
 قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ...﴾ الآيتان (٣٦ - ٣٧) ..... ٤٣٧  
 قوله تعالى: ﴿وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ...﴾ الآية (٤٥) ..... ٤٣٨  
 قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ...﴾ الآية (٨٧) ..... ٤٣٩

● سورة الدخان ●

- قوله تعالى: ﴿حَمِّمَ﴾ و﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾... الآية (١ - ٥) ..... ٤٤٠  
 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ...﴾ الآية (٣٢) ..... ٤٤٠  
 قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآيتان (٣٨ - ٣٩) ..... ٤٤١  
 قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾... الآية (٥١ - ٥٦) ..... ٤٤٣

● سورة الجاثية ●

- قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا﴾ الآية (١٤) ..... ٤٤٦  
 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ...﴾ الآيتان (١٦ - ١٧) ..... ٤٤٦  
 قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ...﴾ الآيتان (١٨ - ١٩) ..... ٤٤٦  
 قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ...﴾ الآية (٢١) ..... ٤٤٧  
 قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ...﴾ الآية (٢٣) ..... ٤٤٧  
 قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ الآية (٢٣) ..... ٤٤٨  
 قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ...﴾ الآية (٢٩) ..... ٤٤٩

● سورة الأحقاف ●

- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ...﴾ الآية (١٥) ..... ٤٥٠  
 قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية (٢٠) ..... ٤٥٠

الموضوع

الصفحة

- قوله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ الآية (٢٥) ..... ٤٥٠  
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآيات (٢٩ - ٣٢) ..... ٤٥١

● سورة محمد ﷺ ●

- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآيات (٤ - ٦) ..... ٤٥٣  
قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية (١٠) ..... ٤٥٤  
قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ الآية (٢٤) ..... ٤٥٤  
قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَارْتَسَكَّهُمْ...﴾ الآية (٣٠) ..... ٤٥٤  
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ...﴾ الآية (٣٣) ..... ٤٥٥

● سورة الفتح ●

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الآية (١ - ٢) ..... ٤٥٦  
قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية (١٨) ..... ٤٥٨  
قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ...﴾ الآية (٢٦) ..... ٤٥٨  
قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّسُولَ بِالْحَقِّ...﴾ الآية (٢٧) ..... ٤٥٩  
قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ الآية (٢٩) ..... ٤٦٠